كتاب

عِلمُ الأدب

مقالاتٌ

لمشاهيرِ العرب

على الجزء الثاني

من

عِلمِ الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

ألقسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخَطَابَةُ فِي اللُّغَةِ كَالْخِطَابِ وَهِيَ الْمُكَالَمَةُ او اللَّفظُ الْمُتَوَاضَعُ عَلَيهِ الْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطلَقُ عَلَى الْكَلَامِ النَّفسِيِّ الْمُوَجَّهِ نَحْوَ الْغَيْرِ لِلْإِفْهَامِ . وَعِنْدَ الْحُكَمَاءِ الْخَطَابَةُ هِيَ الْقِيَاسُ الْمُفِيدُ تَرْغِيبَ الْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ

يستعمل في ذلك من المقالات. ولما ظهر ارسطو في يونان وهذب مباحث المنطق ورتب مسائله وفصوله وجعله اول العلوم الحكمية وفاتحتها جعل الخطابة احد اقسامه الثمانية. وهذه الاقسام تشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وهي كتب المقولات والعبارة والقياس والبرهان واربعة في مادته وهي كتب الجدل والسفسطة والخطابة والشعر. وذلك ان المطالب التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه وهو تشتمل عليه الكتب الاربعة الاولى. ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهذا تشتمل عليه الكتب الاربعة الاخرى. وفيها تدخل الخطابة. وترجمت كلها في الملة الاسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة كلها. ثم جاء المتاخرون فغيروا اصطلاح المنطق وحصروا مطالبه في كتب خمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما واغفلوها كان لم تكن هي المهم المعتمد في الفن. واما الذي يشتمل عليه كتاب الخطابة فهو تعريف المقاييس الخطابية البلاغية النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المشاورات والمخاصمات في المشاجرات او المدح او الذم او الحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والاغراء وتصغير الامر وتعظيمه ووجوه المعاذير والمعاتبات ووجوه ترتيب الكلام في كل قصة وخطبة

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١). وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ إِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ إِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأبرز فيه الحكم من الاجناس العالية المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبُرْهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا. وَكَذَٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ إِنَّمَا تَعْلَمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْأَعْظَامِ وَٱلْأَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْأَجْسَامِ. وَأَمَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَأَيِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذَٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ. وَذَٰلِكَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْأَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ ٱسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطَبِيَّةَ. وَإِنَّمَا كَانَ ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ. وَلَٰكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هَٰذَيْنِ (أَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا. وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخِطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ. وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ. وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ. وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ. فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْاِنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبِغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَالْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ . وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْدِثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ تُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ . (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ . فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ بِالطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ. وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اَوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ اعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سُلِكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اِقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهٰذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُشْتَرِكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بِالمحمُودَاتِ . وَهٰذِهِ ٱلْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ. وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا ٱلإِقْنَاعُ فِي ٱلْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعاً كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلْقِيَاسِ ٱلْجَدَلِيِّ . وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي ٱلْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ ٱلأَمْرَيْنِ جَمِيعاً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ ٱلأَنْفَعِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلشَّيْءُ نَافِعاً فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعاً فِي وَقْتٍ آخَرَ . وَأَيْضاً فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُثْبِتُ ٱلشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّماً قَدْ أَقْنَعَ فِي ٱلضِّدِّ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ ٱلْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي ٱلْقُدْرَةِ ٱلَّتِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى ٱلإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى ٱلسَّوَاءِ لِلإِقْنَاعِ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْس وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ ٱسْتِعْدَادًا لِلإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي ٱلآخَرِ بَلِ ٱلاسْتِعْدَادُ ٱلْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى ٱلإِقْنَاعِ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى ٱلسَّوَاءِ . فَأَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي ٱلأَشْيَاءَ ٱلَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْس ٱسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ ٱلإِقْنَاعِ عَلَى ٱلسَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ ٱلأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَٱلْجَدَلِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ . . . فَقَدِ ٱسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى ٱلسَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي ٱلْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا . وَلَيْس عَمَلُ

هذه الصناعة ان تقنع ولا بدّ . اعني انه ليس يتبع فعلها الاقناع ضرورة كما يتبع فعل النجار وجود الكرسي ضرورة اذا لم يكن هنالك عائق من خارج بل عملها هو ان تعرف جميع المقنعات في الشيء وتأتي بها في ذلك الشيء وان لم يقع اقناع . والحال فيها في هذا المعنى كالحال في صناعات كثيرة مثل صناعة الطب فانه ليس فعلها الابراء ولا بدّ . بل انما فعلها ان تبلغ من ذلك غاية الشيء الممكن فعله في ذلك الشيء المقصود بالابراء . ولذلك قد يشارك في افعال هذه الصنائع من ليس من اهلها مثل ان يبرىء من ليس بطبيب ويقنع من ليس بخطيب لكنّ الفعل الحقيقي انما هو لصاحب الصناعة . وذلك ان الغاية تتبع فعل هذا على الاكثر وذلك على الاقل . وكما ان في الجدل ما هو قياس وما يظنّ به انه قياس وليس بقياس وهو القياس السوفسطائي كذلك في الاقاويل المقنعة المستعملة في هذه الصناعة ما هو مقنع وما يظنّ به انه مقنع من غير ان يكون كذلك . لكن لما كان السوفسطائي ليس انما يكون سوفسطائيا من قبل القوة والملكة التي بها يفعل الاقاويل السوفسطائية بل انما هو سوفسطائي من قبل ما يقصده بتلك الاقاويل من الكرامة والخيرات الخارجة وذلك لايهامه انه حكيم وكان الجدلي انما هو جدلي بالملكة الحاصلة له عن الصناعة فبالواجب لم تكن الاقاويل السوفسطائية جزءا من صناعة الجدل اعني التي يظنّ بها انها مقاييس جدلية من غير ان تكون جدلية

إذا استعملت نحو هذه الغاية . وأما إذا استعملت على طريق الامتحان فهي جزء منها . وأما الخطيب فلما كان خطيبا من اجل الأمور التي من خارج مثل الكرامة وغير ذلك من سائر الخيرات او من قبل ملكة هذه الصناعة كانت الاقاويل التي يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة جزءا من هذه الصناعة . لأن المقصود بهذه الاقاويل في هذه الصناعة قد يكون بعينه مقصود السوفسطاني . وانما كان ذلك كذلك لأن المقصود بهذه الصناعة من الذي يراد اقناعه انما هو الفعل او الانفعال فإذا حصل ذلك منه فلا فرق بين ان يكون حصوله عن اقاويل هي مقنعة في الحقيقة او عن اقاويل يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة . فان كان هذا الفعل المقصود من المخاطب او الانفعال خيرا ما له لا للخطيب كانت الاقاويل التي يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة داخلة في هذه الصناعة بالجهة التي دخلت في صناعة الجدل الاقاويل التي يظن بها انها جدلية اذ لم يقصد بها مقصد السفسطة . وان كان مقصد الخطيب خيرا يناله من الخيرات التي يقصدها السوفسطانيون كان القول الذي يظن به انه مقنع وليس بمقنع من جهة ما هو سوفسطاني جزءا من هذه الصناعة اذ قد يشارك الخطيب السوفسطاني في غايته . فلذلك قد تدخل الاقاويل السوفسطانية في هذه الصناعة ولا تدخل في صناعة الجدل

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ أَنْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احدهما ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ . وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلْاعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلْاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلْاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلْاتِّفَاقِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ . وَهٰذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا أَنْ تُثْبَتَ أَجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلْاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ

الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قالَ مَعمَرٌ ابو الاشعثِ قُلتُ لِبَهلةَ الهنديِّ ايامَ اجتلبَ يحيى ابنُ خالدٍ اطبّاءَ الهندِ : ما البلاغةُ عِندَ اهلِ الهندِ . قال بهلة : عِندَنا في ذلكَ صحيفةٌ مكتوبةٌ ولكنّني لا احسنُ ترجمتَها ولم اُعالجْ هذهِ الصناعةَ فأثقَ مِن نفسي بالقيامِ بخصائصِها ولطيفِ معانيها . (قالَ ابو الاشعثِ) فتلقّيتُ تلكَ الصحيفةَ المترجمةَ فإذا فيها : اوّلُ البلاغةِ اجتماعُ آلةِ البلاغةِ وذلكَ ان يكونَ الخطيبُ رابطَ الجأشِ ساكنَ الجوارحِ متخيّرًا للفظِ لا يكلّمُ سيّدَ الامّةِ بكلامِ الامّةِ والملوكَ بكلامِ السوقةِ ويكونُ في كلامِهِ التصرّفُ في كلِّ طبقةٍ ولا يدقّقُ المعاني كلَّ التدقيقِ ولا ينقّحُ الالفاظَ كلَّ التنقيحِ ويصفّيها كلَّ التصفيةِ ويهذّبُها كلَّ التهذيبِ ولا يفعلُ ذلكَ حتى يصادفَ حكيمًا وفيلسوفًا عظيمًا . ومَن تعوّدَ حذفَ فضولِ الكلامِ واسقاطَ مشتركاتِ الالفاظِ ونظرَ في صناعةِ المنطقِ على جهةِ

الصِّنَاعَةِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ الْأَغْرَاضِ (١) وَالتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ الِاسْتِطْرَافِ وَالتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا. (قَالَ) وَاعْلَمْ أَنَّ حَقَّ الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ الْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ الِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُونِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَالْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي التُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ الْآمِنِينَ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ الْحَقِّ فِي التُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ الْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذَٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ الْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ الْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ: (أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آلَةِ الْبَلَاغَةِ) أَيْ أَوَّلُ آلَاتِ الْبَلَاغَةِ جُودَةُ الْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ اللِّسَانِ وَذَٰلِكَ مِنْ فِعْلِ اللّٰهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ عَلَى اكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَاجْتِلَابِهِ لَهَا. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ أَتَى بِالْبَيَانِ الْعَجِيبِ وَالْكَلَامِ الْبَدِيعِ الْمُصِيبِ وَاسْتَخْرَجَ الْمَعْنَى الرَّائِقَ وَجَاءَ بِاللَّفْظِ الرَّائِعِ. وَإِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَأَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِارْتِجَالِ الْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ أَصْحَابَ الْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ الْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَالنَّاسُ فِي

---

(١) ويروى على جهة الاغتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرّف
(٣) ويروى في اقدار

صِناعَةِ ٱلْكَلامِ عَلَى طَبَقاتٍ فَمِنْهُمْ مَن إِذا حاوَرَ وَناظَرَ أَبلَغَ وَأَجادَ وَإِذا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ • وَمِنْهُمْ مَن إِذا أَمْلَى بَرَزَ وَإِذا حاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ. وَمِنْهُمْ مَن إِذا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذا حاوَرَ وَأَمْلَى أَساءَ • وَمِنْهُمْ مَن يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحالاتِ وَمِنْهُمْ مَن يُسِيءُ فِيها كُلِّها فَأَحْسَنُ حالاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْساكُ وَأَحْسَنُ حالاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلالَ وَقَلَّ ما يَنْجُو صاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجاوَزَ ما هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى ما هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوالِ إِلَى تَجاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْاخْتِصارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثارِ وَٱلْإِهْذارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلامِهِ وَلا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ. وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لا تُطِيلُ ٱلْقَصائِدَ • قالَ: لَوْ أَطَلْتُها عُرِفَ صاحِبُها. يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلامِ فَإِذا طالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسّابِقَ فِي مَيادِينِ ٱلْبَلاغَةِ إِذا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غايَتِها وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِها. وَمِنْ تَمامِ آلاتِ ٱلْبَلاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْاسْتِعْمالِ لَها وَٱلْعِلْمِ بِفاخِرِ ٱلْأَلْفاظِ وَساقِطِها وَمُتَخَيَّرِها وَرَدِيِّها وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقاماتِ وَما يَصْلُحُ فِي كُلِّ واحِدٍ مِنْها مِنَ ٱلْكَلامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ: (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رابِطَ ٱلْجَأْشِ ساكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُما سَبَبا ٱلْإِرْتاجِ

وَٱلإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي ... بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلِاعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلِارْتِجَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) ٱمْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيَعْسُرُ ٱلْمُوسِرُ وَيَفُلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلإِفْحَامِ كَٱلإِشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا ٱحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا ٱمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مَقَامِنَا هٰذَا مَقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَالتَّسَهُّلَ وَالْجَزَالَةَ وَالْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ الْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ: (مُتَخَيَّرَ الْأَلْفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ الْبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ اللَّفْظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ: (وَيَكُونُ فِي قُوَّتِهِ فَضْلُ التَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ الْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِاخْتِلَافِ قُوَى النَّاسِ فِي الشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ: كَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ أَشْعَرَ النَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَالْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ. وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ: أَمَرَنِي الْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى النَّوَاحِي فِي الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْقَنَادِيلِ فِي الْمَسَاجِدِ. فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ: قُلْ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ عِمَارَةً لِلْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلْمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِمَكَامِنِ الرِّيَبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ اللّٰهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ الظُّلَمِ. فَانْتَبَهْتُ وَقَدِ انْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَابْتَدَأْتُ بِهَذَا وَأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ. وَالْمُقَدَّمُ فِي صَنْعَةِ الْكَلَامِ هُوَ الْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ الْمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهَذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا: كَانَ لَهُ فِي الشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا الْفَرَزْدَقُ. وَسُئِلَ

بعضهم عن ابي نواس ومسلم فذكر ان ابا نواس اشعر لتصرفه في وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه. (قال) ومسلم جار على وتيرة لا يتغير عنها. وابلغ من هذه المنزلة ان يتفنن صانع الكلام في قوله اي يأتي مرة بالجزل واخرى بالسهل فيلين اذا شاء ويشتد اذا اراد. ومن هذا الوجه فضلوا جريرا على الفرزدق وابا نواس على مسلم . . .

وقوله: (ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة) لان ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام. وقد احسن الذي قال: لكل مقام مقال. وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي والمملوك الأعجمي بالفاظ اهل نجد ومعاني اهل السراة. كأبي علقمة اذ قال لحجامه: أشدد لقصب الملازم وارهف ظبات المشارط وامر المسح واستحل الرشح وخفف الوطء وعجل النزع ولا تكرهن آبيا ولا تمنعن آتيا. فقال له الحجام: ليس لي علم بالحروب. واخبر ابو المغازل الضبي عن ابيه قال: كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم الا بالغريب فخرج الى ضيعة له على حجر معها مهر. فأفلتت فذهبت ومعها مهرها فخرج يسأل عنها فمر بخياط فقال: يا ذا النصاح وذات السم الطاعن بها في غير وغى لغير عدى هل رأيت الخيفانة القباء يتبعها الحاسن المسرهف (١) كأن

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتُهُ ٱلْقَمَرُ ٱلْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَٱلْخَلْبِ ٱلْأَجْرَدِ (١). فَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ أَطْلُبُهَا فِي بَرِّ لَخَا (٢). فَقَالَ: وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَبَّحَكَ ٱللهُ فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ. فَقَالَ: لَعَنَ ٱللهُ أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَأَنَا مَنْطِقًا

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُدَقِّقِ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ: لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ ٱلْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعْمِيَةُ ٱلْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ ٱلْأَلْغَازُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ إِثْبَاتِ (٣) ٱلْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱسْتَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلْمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلْغَرَضِ. فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ ٱلْإِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُنَقِّحِ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفْظِ أَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلْاِسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلْوُزَرَاءِ: أَحْسَنَ ٱللهُ إِبَانَتَكَ. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَزِيرُ: عَجَّلَ ٱللهُ إِمَاتَتَكَ. وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيحِ ٱللَّفْظِ ٱسْتِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ. وَقَدْ أَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً ... بِنَهْكَةِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱسْتَبْشَعُوا (ٱلْحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلْخُلُقِ وَقَالُوا: لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهُ. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: رَأَيْتُهُمْ يُرِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ فَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

(١) وفي رواية: ينير في خضره كالحلب الاخرز (٢) ويروى: في بَرّ بلخ
(٣) وفي رواية: ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَغِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ (وَلَا تَفْعَلْ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرِّد عنَّا

تَعَوَّدَ حذفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلِٱسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنْبَغِي اَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنِ ٱسْتَطْرَفَ شَيْئًا مِنْهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظَرًا غَيْرَ كَامِلٍ اَوْ اَخَذَ مِنْ اَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ اَطْرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَثِقْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنْفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلْعَامِّيَّ اِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ ٱلْعِلْيَةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ اَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَنْتَقِلُونَ ٱلْبَارِحَةَ (يَعْنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَّالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (اَيْشَ كَانَ نُقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَّتِهِ. فَيَنْبَغِي اَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَامَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ اَلخ) هُوَ اَنْ يُسْقِطَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلْكَلَامُ مَعَ إِسْقَاطِهِ تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ اَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلْعَبْدِيِّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ فَقَالَ: اَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئَ. ثُمَّ قَالَ: اَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخْطِئُ وَلَا تُبْطِئُ). فَأَلْقَى ٱللَّفْظَتَيْنِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي اَبْقَى غِنًى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَامَّا اِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْاَلْفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ. وَقَوْلُهُ: (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْاَلْفَاظِ) فَهُوَ اَنْ يُرِيدَ ٱلْاِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِٱلْاَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ اُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ اَيَّهَا اَرَادَ. وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ اِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ. فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

لَوْ كُنْتُ اَعْلَمُ اَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ ... يَوْمُ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلْاِشْتِرَاكِ فِي هٰذَا اَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي اِلَى اَيِّ شَيْءٍ اَشَارَ مِنْ اَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ: (فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ) أَاَرَادَ اَنْ يَبْكِيَ اِذَا رَحَلُوا اَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ اَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ اَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ اَوْ يَدْفَعَ اِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ اَحِبَّتِهِ. فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَاَحْوَجَ اِلَى اَنْ يَسْاَلَهُ عَمَّا اَرَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ. وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ: (لَوْ رَاَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ). لِاَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَاَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ اَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِحُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْاَزْدِيِّ:

فَاِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ ... لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا اَرَادَ بِقَوْلِهِ: (لَلَاقَيْتَ) أَخَيْرًا اَرَادَ اَمْ شَرًّا اِلَّا

انْ تَسمعَ ما قبلهُ وما بعدهُ فيتبيَّنَ معناهُ وامَّا في نفسِ البيتِ فلا يتبيَّنُ مغزاهُ . ومثلهُ قولُ ابي تمَّام :

وقُمْنا فقُلْنا بعدَ انْ أُودِعَ الثَّرَى ‏ ‏ ‏ ‏ بِهِ ما يُقالُ في السَّحابةِ تُقلِعُ

فقولُ النَّاسِ في السَّحابِ اذا أقلعَ على وُجوهٍ فمنهم مَن يمدحُهُ ومنهم من يذمُّهُ ومنهم مَن كانَ يحبُّ انقلاعَهُ ومنهم مَن يكرهُ انقشاعَهُ على حسبِ ما كانتْ حالاتُها عندَهم ومواقعُها منهم فلم يُبيِّنْ بقولِهِ معنًى يعتمدُهُ السَّامعُ . على انَّ المُحتجَّ لهُ لو قالَ : إنَّ اكثرَ العادةِ في السَّحابِ انْ يُحمدَ اثرُهُ ويُثْنَى عليهِ بعدَهُ لمَا كانَ مُبعِدًا . ولم اُرِدْ عيبَ ابي تمَّامٍ بما قُلتُ وانَّما اردتُ الإخبارَ عن وجوهِ الاشتراكِ وذكرِ ما يتشعَّبُ منهُ وما يقرُبُ من بابِهِ ويَنظرُ اليهِ من قريبٍ او بعيدٍ . ومن اللفظِ المُشترَكِ قولُ ابي نُواسٍ :

وخَبْزِ ما يُخبَزُ من آخرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ منهُ وللطَّابنِ أمهارُ (١)

الأمهارُ هاهُنا جمعُ مُهرٍ من قولِهم : مهرَ يمهرُ مهرًا . والمصادرُ لا تُجمعُ ولا يشكُّ سامعُ هذا الكلامِ انَّهُ يريدُ جمعَ مُهرٍ فيُشكِلُ المعنى عليهِ . وخطبَ بعضُ المتكلِّمينَ فقالَ في صفةِ اللهِ تعالى : لا يُقاسُ بالقياسِ ولا يُدرَكُ بالالماسِ . ارادَ جمعَ لَمسٍ فأعابَ السَّجعَ واخطأَ المعنى . وامَّا ما بنيتهم فلا يُعرَفُ معناهُ الَّا بالتوهُّمِ . ومنَ الكلامِ الخالي منَ الاشتمالِ قولُ بعضِهم لأخٍ لهُ ارادَ فراقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوَّاس :

وخبزِ ما يخبز من بعدهِ ‏ ‏ ‏ ‏ منهُ وللطابن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ أَخلَاقَكَ فَوَجَدتُّهَا مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَيَّرْتُ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى ٱلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ أَخلَاقِ ٱلْمُعَاشِرِينَ وَلِعِلْمِي بِكَامِنِ ٱلعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ ٱلعَالَمِينَ. وَٱلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا أُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ ٱلتَّجَاوُزِ وَأَسْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا أَذْيَالَ ٱلتَّغَاضِي. وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ ٱعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ. فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَٱنْقَطَعَتْ أَسْبَابُ أَمَلِي مِنْكَ وَرَأَيْتُ ٱلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى ٱلتَّعَهُّدِ بِٱلدَّوَاءِ إِلَّا فَسَادًا وَٱلْخَرْقَ عَلَى ٱلتَّرْقِيعِ إِلَّا ٱتِّسَاعًا قَدَّمْتُ ٱلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى ٱلرَّجَاءِ فِيكَ فَٱحْتَسَبْتُ أَيَّامِي ٱلسَّالِفَةَ فِي ٱسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ: (وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا) أَيْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا لِلَّفْظِ بِقَدْرِ ٱلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ عَنْهُ فَكَانَ كَٱلطَّبَقِ عَلَى ٱلْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي ٱلْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ: وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا. وَمِثَالُ ٱلْفَاضِلِ مِنَ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ:

وَٱسْقِ ٱلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَٱعْلَمْ لَهُ ... بِٱلْغَيْبِ أَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا
وَٱجْزِ ٱلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى أَنْ لَوْ لَهُ ... يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: ٱجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ. وَكَانَ ٱلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ أَبِي ٱلْعِيَالِ ٱلْهُذَلِيِّ.

ذَكَرْتُ اخِي فَعَاوَدَنِي ... صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ إِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ... ٱلنُّوكِ مِمَّنْ دَامَ كَدًّا

وَقَوْلُهُ: (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ مُفْتَقِرًا إِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْأَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى إِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ. وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ ٱلْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ ٱلْأَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْأَنْصَافَ وَٱلْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا. وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ: (وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اما الأشياء التي تفعل التصديقات في هذه الصناعة فنها ما هي صناعية وتلك هي التي وجودها لاختيارنا ورويتنا ونحن الفاعلون لها. ومنها ما هي غير صناعية وهي التي ليس وجودها لاختيارنا ورويتنا مثل الشهود والتعذيب والعقود وما اشبه ذلك. والأشياء الصناعية التي نحن الفاعلون لها منها اشياء قد تقدم غيرنا فصنعها مثل الاحتجاج بالأمثال السائرة التي قد وضعت واشتهرت ومنها ما نخترعها نحن عند القول في الشيء الذي فيه الاقناع ونستنبطها. فاما التصديقات التي نفعلها نحن ونخترعها فهي ثلاثة انواع: (احدها) اثبات المتكلم فضيلة نفسه التي يكون بها اهلا ان يصدق وان يكون عند المتكلم بهيئة في وجهه واعضائه شأنها ان توقع التصديق بالشيء المتكلم فيه مثل التؤدة والوقار وغير ذلك. والفضيلة التي شأنها هذا هي التي يعني ارسطو بالكيفية. والهيئة التي شأنها هذا هو الذي يعني بالسمت. وقد يدل على ان للفضيلة تأثيرا في التصديق ان الصالحين الفاضلين يصدقون سريعا

دُونَ قَولٍ يَتكلّفونهُ فِي الشيءِ. وَإِنّما يَكونُ ذلكَ فِي الأُمورِ الظَّاهِرةِ لِلحِسِّ الَّتي يَزعُمونَ أَنّهمْ أَحسُّوها مِثلُ قَولهمْ: إِنّهُ شَرِبَ أَوْ قَتلَ. فَأَمّا إِخبارُهُمْ عَنِ الأُمورِ الخَفيّةِ عِندَ الحِسِّ وَهيَ الَّتي يُظَنُّ أَنّهُ خَفيَ عَنهُمْ مَا أَحسُّوا مِنْ ذلكَ أَوْ وَهِمُوا فيهِ إِذا كانَ ذلكَ الشيءُ مُمكِناً أَنْ يَهِمَ فيهِ الحِسُّ فَليسَ يُصدَّقونَ فِي الأَشياءِ الَّتي يَدَّعونَها فِي أَمثالِ هذهِ الأَشياءِ دُونَ أَنْ يَستَعمِلوا فِي تَثبيتِ ذلكَ الشيءِ القَولَ. وَعَليهِ قَدْ أَخطَأَ الَّذينَ ذَكَرْنا أَنّهمْ تَكلّموا فِي الخَطابةِ فَذَهَبوا إِلى أَنَّ الفَضيلةَ وَالأَناةَ إِنّما هيَ نافِعةٌ فِي بابِ الانفِعالِ فَقطْ. وَأَمّا (الصِّنفُ الثّاني مِنَ التَّصديقاتِ) فَهُوَ الصِّنفُ الَّذي يَكونُ بِأَنْ يَكسَبَ السّامِعُ بِالقَولِ انفِعالاً ما يُوجِبُ لهُ التَّصديقَ بِالشيءِ الَّذي فيهِ القَولُ. فَإِنّهُ لَيسَ تَصديقُنا بِالشيءِ وَإِقرارُنا بِهِ وَنَحنُ فِي حالِ الفَرَحِ أَوِ الحُزنِ تَصديقاً واحِداً. وَكذلكَ إِذا كُنّا فِي حالِ السُّخطِ عَلى الشيءِ أَوْ حالِ الرِّضا عَنهُ. وَهذهِ هيَ الأَشياءُ الَّتي تَكلّمَ فيها أُولئكَ الَّذينَ ذَكَرْنا أَنّهمْ تَكلّموا فِي هذهِ الصِّناعةِ. وَأَمّا (الصِّنفُ الثّالثُ مِنْ هذهِ التَّصديقاتِ) فَهُوَ تَثبيتُ الشيءِ بِالكلامِ المُقنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنّهُ مُقنِعٌ وَذلكَ فِي الأُمورِ الجُزئيّةِ الَّتي تُقنِعُ فيها هذهِ الصِّناعةُ. وَإِذا كانَتِ التَّصديقاتُ إِنّما تَكونُ فِي هذهِ الصِّناعةِ بِهذهِ الوُجوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ الَّذي يَقدِرُ أَنْ يُقنِعَ الإِقناعَ المُمكِنَ فِي كُلِّ واحِدٍ مِنَ الأَشياءِ إِنّما هُوَ الَّذي يَكونُ عالِماً بِثلاثةِ أَشياءَ: (أَوّلُها) مَعرفةُ الأَقاويلِ المُقنِعةِ. (وَثانيها)

مَعْرِفَةُ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلِانْفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِانْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ أَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة. وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)

الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاول

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمَنْسُوبَةَ إِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلِاعْتِرَافُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعْوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَثْبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱلْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ أَنَّا إِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثْبُتُ بِهِ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِأَنَّ هٰذَا هُوَ أَصْلُ ٱلتَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّصْدِيقِ أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلْبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةُ ٱلْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِمَّا فِي كُلِّهَا وَإِمَّا فِي أَجْزَاءٍ مِنْهَا. وَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَلْتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ أَنْ

---

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

تعرف القياس الذي هو جنسه. والذي يزيد على هذا فيعلم لماذا تعمل الضمائر والفصول التي بين الضمير وبين سائر المقاييس التي تستعمل في الصنائع الاخر فهو اقدر من ذينك. والمعرفة بهذا كله انما هو لصناعة المنطق. فان للقوة الواحدة بعينها اعني للصناعة الواحدة بعينها ان تعرف الشيء الذي هو حق والذي هو شبيه بالحق والتصديقات الخطبية وان لم تكن حقا فهي شبيهة بالحق وايضا فان الناس متهيئون بطبيعتهم كل التهيئة نحو الوقوف على الحق نفسه. وهم اكثر ذلك يؤمونه ويفعلون عنه. والمحمودات وهي التي تكون منها الضمائر شبيهة بالحق من قبل انها نائبة عند الجمهور مناب الحق. والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو علم المنطق. واذا كان الامر هكذا فقد استبان ان قصور هؤلاء فيما تكلموا فيه من امر الخطابة انما كان من اجل انه لم يكن عندهم علم بالمنطق وان سائر من تكلم في الخطابة ومن يستعمل الاقاويل الخطبية فقط من غير ان يتقدموا فيعرفوا هذه الاشياء التي هي عمود البلاغة انهم انما يتكلمون في اشياء تجري من البلاغة مجرى التزيين والتنميق الذي يكون في ظاهر الشيء وصفحته لا في الاشياء التي تتنزل منها منزلة ما به قوام الشيء ووجوده وان كان قد يظن بما فعلوا من ذلك انهم قد بلغوا الغاية من الاقاويل الاقناعية وجروا في ذلك على طريق الصواب والعدل

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمه (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ ٱلْمُوصِلُ إِلَى ٱلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَإِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ ٱلظَّنِّيَّ وَٱلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِٱلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى ٱلظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمَعْلُولِ عَلَى ٱلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقاً بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضاً التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم توخذ مع ترتيبها . واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلَّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَأَتِّيهَا لِأَنْ يُسْتَعْمَلُ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ أَقَلَّ عُمُومًا كَانَ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ. وَلِذَلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ. وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ أَعْنِي ٱلْإِرَادِيَّةَ. وَذَلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ (*) فَإِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

لتناول المطلوب التصوري والتصديقي. (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر. (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا). (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر. (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع. (وقد يخص) الدليل (بالقطعي). (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انيًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لِمّيًّا

تُعمَلُ مِنها ٱلمقاييسُ في صناعةٍ واحدةٍ من هذهِ الثلاثِ ٱلَّتي ذكرنا بل في جميعها اذ كانت لا تستعمل نفسها وانما تستعمل قوتها. واما الانواع فهي المقدمات الخاصة بصناعة صناعة من الصنائع الجزئية مثل المقدمات التي تعمل منها المقاييس في الامور الطبيعية فانها لا تعمل منها المقاييس في الامور الخلقية ولا التي في الامور الخلقية تعمل منها المقاييس في الامور الطبيعية. واذا كان الامر هكذا فاذن المواضع لا يؤلف منها قياس في صناعة مخصوصة اذ ما يتصور منها هو عامٌّ لاكثر من صناعة واحدة. واما الانواع فهي التي تؤلف منها المقاييس التي تلتئم منها الصناعة التي تلك الانواع مخصوصة بها. لكن الانواع التي نحن عازمون في هذا الكتاب على ذكرها ليست هي مقدمات يقينية لانه لو كان ذلك كذلك لكانت المقاييس الخطبية مقاييس يقينية ولم تكن مقاييس جدلية فضلا عن خطبية. والضمائر المعمولة في هذه الصناعة اكثر ذلك انما تؤلف من هذه الانواع ما كان منها خاصا بجنس جنس من اجناس الخطابة الثلاثة وما كان منها عاما للاجناس الثلاثة التي تحدد بعد

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذَلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلِاكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَالْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِالْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ اَوْ بِالْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ: إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ. وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ. فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ. وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ. فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ: (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرِّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول: (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفته وسبب لها فلا بد ان تتقدمها. (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله. (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك: الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة. (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك: الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة. (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) به (التميز). (اذ لولاء)

وَلَا بُدَّ أنْ يُسَاوِيَهُ فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ التَّمْيِيزُ إذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ الْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا. أوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ أفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَإلَّا سُمِّيَ رَسْمًا. وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَإنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ الذَّاتِيِّ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ الْمُسَمَّى بِالْجِنْسِ الْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَإلَّا فَنَاقِصٌ. وَالْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ الْبَسِيطِ فَإنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَإلَّا فَلَا. وَكُلُّ كُلِّيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَإلَّا فَلَا.

اي لولا كونهُ مساوياً (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقاً او من وجهٍ (فلم يكن مانعاً) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطرداً) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضاً. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص امَّا مطلقاً او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكساً) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق مما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها . . . (ولا بد فيهِ) اي في المعرَّف (من مميز) مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتياً سمي) المعرَّف (حدًّا) (والا سمي رسماً. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تام مركب من الجنس والفصل القريبين وامَّا رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) امَّا حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. وامَّا رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًّا وناقصاً (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كلي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزماً لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفُ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والَّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسمًا على حدة. ولما كان استئناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة. فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية)

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شَرِكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخر الجنس فيه كان حدًّا ناقصًا فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيره. (وبالجملة فمن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدُقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخِطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنْ

الأنواع فيجعله جنساً تعظيماً له وتنخيماً لأمره بعد أن يحصر جميع أقسامه. والمراد عندهم بالنوع أعم من أن يكون صادقاً على متعدد ذهناً كما هو النوع المعهود عند علماء المنطق أو لا يصدق إلا على فرد واحد كالجزئي المعروف عندهم. والمراد بالكلي الجنس وهو ما صدق على متعدد اختلفت حقيقة أفراده. ومثال ذلك عندهم كقول المتنبي:

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى
ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

فقد قصد تعظيم ممدوحه فجعل منزله الذي هو جزئي كلياً وهو الدنيا وجعل ذاته التي هي جزئية كلية وهي الخلائق. وأما حصر أقسام الجزئي فلأن العالم عبارة عن حيوان ونبات وجماد. والمنزل شامل لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسية والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

الجنس في اللغة الضرب في كل شيء وهو أعم من النوع. يقال: الإنسان نوع والحيوان جنس. ويراد به عند أهل العربية الماهية. وكل ما دل على شيء وعلى كل ما أشبهه وبالنظر إلى

هذا قيل اسم الجنس اسم موضوع للماهية من حيث هي . والجنس عبارة عن كلي مقول على كثيرين مختلفين بالأغراض دون الحقائق. وقيل ايضا الجنس هو المقول على افراد مختلفة من حيث المقاصد والأحكام. والنوع كلي مقول على افراد متفقة من حيث المقاصد والأحكام مختلفين بالعدد فقط كالانسان فانه مقول على زيد وعمرو وبكر في جواب ما هو. وربما اطلق الجنس على الأمر العام سواء كان جنسا عند الفلاسفة او نوعا. كالحر والعبد مثلا فهما نوعان يندرجان في حكم واحد ويشتركان في الانسانية . ثم ان الجنس يقسم الى قريب وبعيد لأنه ان كان الجواب عن الماهية وعن جميع مشاركاتها في ذلك الجنس واحدا فهو قريب. ويكون الجواب ذلك الجنس فقط كالحيوان بالنسبة الى الانسان وعن جميع ما يشاركه في الحيوانية كالفرس والغنم والبقر ونحوها. وان كان الجواب عنها وعن جميع مشاركاتها في ذلك الجنس متعددا فهو بعيد ويكون الجواب هو غيره كالجسم النامي بالنسبة الى الانسان فانه جواب عن الانسان وعن بعض مشاركاتها فيه كالنباتات . . والأجناس تترتب متصاعدة والأنواع متنازلة الى ان تبلغ الى جنس ليس فوقه جنس آخر وهو الجنس العالي والى نوع ليس تحته نوع آخر وهو الجنس المفرد

البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعلَمْ انَّ ٱلعِلِّيَّةَ وَٱلمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوَارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَالإمكَانِ وَٱلوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ الى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلمُحتَاجُ اِلَيهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلمُحتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاوَّل) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِالفِعْلِ كَالهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِالقُوَّةِ كَالخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلمَادَّةُ. وَلَهَا اسمَاءٌ بِاعتِبَارَاتٍ مُختَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيهَا ٱلصُّوَرُ ٱلمُختَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱستِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنهَا يُبتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاِسْطَقِسٌ اِذ اِلَيهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلمَاهِيَّةِ كَمَا انَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَالنَّجَارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجلِهِ ٱلشَّيْءُ كَالجُلُوسِ عَلَيهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلوُجُودِ. وَٱلاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِالِاختِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ ٱلمُوجِبِ غَايَةً ايضًا تَشْبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةُ

العلية والمعلولية. ويسمى جميع ما يحتاج اليه الشيء علة تامة وهي قد تكون علة فاعلية او مع الغاية كما في البسيط. وقد تكون مجتمعة من الاربع كما في المركب... والفرق بين العلة والشرط ان العلة مطردة فحيثما وجدت وجد الحكم وتأثيرها بالذات. اما الشرط فيتوقف عليه تأثير المؤثر لا ذاته كيبوسة الحطب للاحراق اذ النار لا تؤثر في الحطب بالاحراق الا بعد ان يكون يابسا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاول

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم اذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوئ ادبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه. (فمن آدابه) ان لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما. والتجاوز في المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقاما

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ. عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ مُحْنَقًا. وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ. قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيَضْأَلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمُغَيَّبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَئِنْ يَفْعَلُ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ:

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلْفِعْلُ   وَٱلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ   يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنَّ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَنِ

ٱبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدِّ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عَقْبَ ٱلتَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْأَزْدِيُّ عَنِ ٱلصُّولِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِٱللهِ سِيرِي
أَنْتَ رَبِّي وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيْ لَابِسٌ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ . وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللهِ بِمَعْصِيَتِهِ . وَقَوْلُهُ : (بِٱللهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ . وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدِكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ . وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ . فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا أَعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةُ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ إِلَّا لَوْمًا إِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ . وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ خَلِيعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشِرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي بيعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ. وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱسْتَرْشِدُوا ٱلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ: ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ ٱلْعَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقَ إِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ. قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ. وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّجَارِبِ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ: ٱلْأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْأَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ. وَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيُّ:

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ   وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتُجْمِعَا عِنْدَ صَاحِبٍ   فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذَلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ السَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ الْعَزِيمَةِ. (وَالْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ النُّصْحَ وَالْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ الْفِكْرَةَ وَيُمْحِضَانِ الرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا الْحَازِمَ غَيْرَ الْحَسُودِ وَاللَّبِيبَ غَيْرَ الْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى الْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى الْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ الْمُشْفِقِ الْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ الْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ   وَاسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَارْضَ مِنَ الْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ   بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا   تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ   فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ الْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَاسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدِرَةٍ   فِي مُشْكِلِ الْأَمْرِ فَاخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي لَهَبٍ:

وَقَدْ يُحْكِمُ ٱلْأَيَّامَ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ أَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللهِ ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ٱلْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ شَاوِرْ. مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلانْسَانِ. وَٱلغَلْوَةُ ٱلأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلانْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلأَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلأَذَى. وَإِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا دَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى ٱلدُّخُولِ فِي أَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلأَوْصَابِ. وَمَا يَنْتَظِرُهُ مِنَ ٱلأَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ إِلَّا ٱلرَّمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ إِلَّا إِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حالُ ٱلفُتوَّةِ) هٰذا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّاني لِلحَياةِ ٱلانسانيَّةِ. وَٱلمَساحةُ ٱلأولى لِانتِشارِ ٱلقُوى ٱلعَقليَّةِ او ٱلتَلُّ ٱلاوَّلُ في طَريقِ ٱلأجلِ. وَمَسلَكِ ٱلعَمَلِ. فَيَصعَدُ ٱلانسانُ عَلَيهِ وَيَنظُرُ ٱلعالَمَ بِعَينَيهِ. فَيَراهُ مَشهَدًا بَديعَ ٱلجَمالِ. وَمَلعَبًا تَلعَبُ بِهِ ٱلآمالُ. وَتَرقُصُ فيهِ ٱلمَلذَّاتُ وَٱلأَماني. وَتَحومُ حَولَهُ ٱلبَشائِرُ وَٱلتَهاني. فَتَشمَلُهُ شَمولُ هٰذا ٱلظُّهورِ. وَتَلعَبُ بِرأسِهِ حَمِيَّةُ هٰذِهِ ٱلأُمورِ. فَيَبيتُ سَكرانَ بِٱلأفراحِ. وَمأخوذًا بِرَنينِ تِلكَ ٱلأقداحِ. فَيَنسِمُ مَدى ٱلأوقاتِ. وَلا يَعلَمُ ما ٱلآفاتُ. اِذ يَظَلُّ مُلتَفًّا بِكِساءِ ٱلآمالِ. وَمُحتَفًّا بِاوهامِ ٱلأعمالِ. وَلا يَنظُرُ اِلَّا اِلى ذاتِهِ. وَلا يَحفَلُ اِلَّا بِصِفاتِهِ. هائِمًا في مَلاهي دُنياهُ. وَمُتَهافِتًا على حَداثَةِ قُواهُ. وَهٰكَذا يَهبِطُ في وادي هٰذا ٱلعالَمِ ٱلمُلِمِّ. وَيَخبِطُ في ذٰلِكَ ٱلبَحرِ ٱلخِضَمِّ. وَلا يَزالُ بَينَ هُبوبٍ وَٱنكِبابٍ. اِلى ان يَنشُلَهُ ٱلصَوابُ. وَيُدرِكَهُ ٱلشَّبابُ

(حالُ ٱلشُّبوبيَّةِ) امَّا ٱلشُّبوبيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلأجلِ. وَمَحَلُّ ٱلكَدِّ وَٱلعَمَلِ. وَمَوقِعُ ٱليأسِ وَٱلأمَلِ. حَيثُما يوجَدُ ٱلإنسانُ ضائِعًا في مَفازةِ ٱلعُمرِ. حائِرًا في تَنوفَةِ ٱلنَّهيِ وَٱلأمرِ. فَيَرى نَفسَهُ قائِمًا في وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنيا. مُمنطِقًا بِكافَّةِ ٱلأشياءِ. مُلتَطِمًا بِأمواجِ ٱلعالَمِ وَاهوائِهِ. مَصروعًا وَمأخوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوضائِهِ. وَهٰكَذا تَنهَضُ في قَلبِهِ ثَورَةُ ٱلحَواسِّ. وَتَشُبُّ في دِماغِهِ نارُ ٱلوَسواسِ. وَتَصفِرُ في سَريرَتِهِ ريحُ ٱلأهجاسِ. فَيَندَفِعُ اِلى مُنازَلَةِ ٱلأقدارِ وَٱلأيَّامِ. وَمُقاتَلَةِ ٱلحَقائِقِ وَٱلأوهامِ. فَتارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلآمالُ اِلى اوجِ ٱلأفراحِ وَٱلمَسرَّاتِ.

وَطَوْرًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّبَحِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلْمَطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحِدْثَانِ. وَمُسْقِطًا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَنْتُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَصْفَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقَمْرَةِ. حِينَئِذٍ يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدُّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنَهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْأَمْرَاضِ. فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا. وَمَرْضُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا. فَتَصْمُتُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكُفُّ بَصَرُهُ. وَتَجِفُّ فِكْرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَبْخَلُ حَتَّى بِٱلْفَلْسِ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلْقَلْسِ. فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطُّرُقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ. ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ. امَّا اِذَا الْتَفَتَ اِلَى الْامَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْاَيَّامِ. حَنَّ اِلَى الْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَالْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ. وَالْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ يَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ. وَتَسْلُبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَّةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ الْخَطِيبَ اِذَا مَا اَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ اَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ اَحْوَالِهِمْ. قَالَ اَفْلَاطُونُ: لِكُلِّ اَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ اِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْاُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْاِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ. عَلَى اَنَّهُ لَا يَعُمُّ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . إِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ . وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمَاتٍ مِنْهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ . وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ . لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَعْظَمَ مَثَلًا وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمًّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلَةِ . إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ . فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا . وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ . . . وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَامَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا . ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا . وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ أَشْخَاصِ

النّاس قوّتين إحداهما ناطقة والأخرى بهيمية ولكل واحدة منهما نزاع غالب. فنزاع القوة البهيمية نحو اللذات العاجلة الشهوانية مثل أنواع الغذاء ونزاع القوة النطقية نحو الأمور المحمودة العواقب.. فعلى كل من يرشد الجمهور ويحضهم على نيل الفضائل ان لا يتغافل عن تحريضهم على ما هو أصلح لهم وان لا يهملهم فإنه متى ما أهملهم تحركوا نحو الطرف الآخر الذي هو البهيمي. وإذا تحركوا نحوه تشبثوا ببعض منه حتى إذا أراد ردهم عمّا تحركوا نحوه لحقه من النصب أضعاف ما كان يلحقه إذا لم يكن أهملهم. ونقول أيضاً ان الخطيب لا يخلو في جميع متصرفاته من ان يلقى الجمهور مائلاً إلى أمر محمود أو أمر مذموم. وله في كل واحد من الأمرين فائدة وموضع رياضة للتصرف وهو ان يحاول دفع السامعين إلى ذلك الأمر المحمود الذي يلقاه ان وجد السبيل إلى الدفع إليه وينبههم على فضيلته ويوجب عليهم التمسك بها متى وجد الفرصة لذلك. وإذا يلقاه الأمر المذموم فليجتهد في التحذير منه والتجنيب منه. وان لم يجد إلى ذلك سبيلا فلينبههم على الاعتبار بمن نالهم مضار مثلها. فقد ظهر ان للخطيب في جميع أحواله جلها ودقها خيرها وشرها موضع الرياضة لنفسه وإرشاد الجمهور. وإذا تيقن ذلك فينبغي ان يقدم على سياسة الأحوال بقلب قوي ونية صادقة وعذر واسع وثقة ان ما يأتيه من ذلك وان قل يجدي عليه نفعاً يجل. ونبدأ بتعهد الخطيب للرؤساء انه

يجب عليه ان يكون ملازماً لما هو في صدده مواظباً على ما فوض اليه ولا يخشى الملال وخصوصاً من الملوك. وان يكون مجتهداً في طلب وجوه حسان لكل ما يطلبه منهم اذ لا شيء من الامور في العالم الا وله وجهان احدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل امر من اموره وجهاً جميلاً يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فان الخطيب المفوض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان اراد المرء ان يواجهه اهلك نفسه واتى عليه السيل فاغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه الى الناحية بان يطرح في بعض جوانبه مقداراً من السدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب ان يصرفه الى حيث شاء. فينبغي له كذلك ان يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن امر يريد ان يجري معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقر بما يلقي منه الى الناس مما يستقبح فسيان بين الخبر والاقرار.. وينبغي ان يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بان لا يلح في السؤال ولا يديمه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في ان يطلب من الرؤساء اسباب المنافع لا المنافع انفسها.. وليجتهد في ان يظهر في كل ما يقول ويفعل انه انما يفعله زينة وجمالاً للرئيس لا لنفسه وانه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأتيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

بعض ما يعرض بما هو فيه. فانه متى ما استعمل هذه الطريق لا ينشب ان يعود الحال براده.. وان يعلم ان للرؤساء هما ينفردون بها عمن سواهم من الناس وهي انهم يعتقدون في جميع من دونهم الاستخدام والاستعباد وفي انفسهم الاصابة في جميع ما يأتون وانما يحدث هذا بهمتهم لكثرة مدح الناس لهم واطرائهم اعمالهم وتصويبهم آراءهم

فهذه قوانين ينتفع باستعمالها الخطيب في معاشر الرؤساء التي ينبغي ان يستعملها المرء مع الاكفاء فسنذكر منها جملا ونقول ان الاكفاء لا يخلو من ان يكونوا اصدقاء او اعداء او ليسوا باصدقاء ولا اعداء. والاصدقاء صنفان احدهما الاصفياء المخلصون في الصداقة فينبغي للمتكلم ان يديم ملاطفتهم وتعهد اسبابهم واهداء ما يستحسنه وما يتيسر له اليهم في كل وقت. ويجري الحال فيما بينهم وبينه بذلك بغير ان يظهر منه ملالا او تقصيرا ويجتهد في الاكثار منهم غاية الجهد فان الصديق زين المرء وعضده وعونه وناصره ومذيع فضائله وكاتم هفواته ومخفي زلاته ومهما كان هؤلاء اكثر كانت احوال الخطيب فيما بينهم احسن واقوم. والصنف الآخر اي الاصدقاء في الظاهر عن لا صدق فيما يظهرونه بل بتشبه وتصنع فينبغي للخطيب ان يعاملهم بمداراة ويحسن اليهم ولا يطلعهم على شيء من اسراره وخصوصا من عيوبه. وليجتهد في استمالتهم والصبر معهم ومعاملتهم بحسب الظاهر

دُونَ اَخذِهِمْ بِالبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِالتَّقصِيرِ فَإِنَّهُ مَهمَا عَمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتبَةِ الْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا الْاَكْفَاءُ الْاَعدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ النُّصَحَاءُ الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيهِ وَيَعزِمَ عَلَى قَلبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغتَرَّ بِكُلِّ قَولٍ يَسمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعرِفَةِ اَغرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَإِذَا لَاحَ لَهُ وَجهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنفَاذِ الْاَمرِ . وَمِنْهُمُ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصلَاحِ مَا بَينَ النَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ يَمدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحوَالِهِ فَإِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرضِيَّةٌ عِندَ كُلِّ النَّاسِ وَمَهمَا مَالَ الْخَطِيبُ اِلَيهِمْ عُرِفَ بِالْخَيرِ وَحُسنِ النِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ السُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيأَسُوا مِن مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤذُوهُ بَعدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلقَوهُ بِالْمُشَاغَبَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْاِكتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهلُ الْكِبرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضُعفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرءُ عَلَيهِم

وَكَاثَرهم فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذَٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَأَنَا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُؤَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمُهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ

الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ ٱلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ ٱلْإِنسَانُ أَفْعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِٱجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلشَّرَهِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلِٱحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلِٱفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلِٱعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.

أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجَوْدَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِٱجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

اِذَا نُبِّهَ عَلَيهِ اَحسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُم مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ اِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيهَا وَرَامَ ٱلعُدُولَ عَنهَا تَعَذَّرَ عَلَيهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلعُدُولِ عَنهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ اَنْ تُرْشَدَ اِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلعَادَاتِ ٱلمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ اِلَيهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلأَخلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ اَو نُبِّهَ عَلَيهَا فَلَا يَحِنُّ اِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلاِصرَارَ عَلَيهَا مَعَ عِلمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيسَ اِلَى تَهذِيبِهَا طَرِيقٌ اِلَّا بِٱلقَهْرِ وَٱلعُقُوبَةِ اِنْ لَمْ يَردَعهَا ٱلتَّخوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَاَمَّا ٱلأَخلَاقُ ٱلمَحْمُودَةُ فَاِنَّهَا وَاِنْ كَانَتْ فِي بَعضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيسَتْ فِي جَمِيعِهِم فَعَلَى ٱلبَاقِينَ اَنْ يَصِيرُوا اِلَيهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرتَقُوا اِلَيهَا بِٱلاِعتِيَادِ وَٱلتَّاَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبعُهُ ٱلعَادَاتِ ٱلحَسَنَةَ وَلَا ٱلأَخلَاقَ ٱلجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلأَشرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُم. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلأَخلَاقِ ٱلمَحْمُودَةِ وَيَاْنَفُ طَبعُهُ عَنْ بَعضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتبَتُهُ فِي ٱلخَيرِ وَٱلتَّهذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

امَا ٱلأَخلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَانَّ مِنهَا (ٱلعِفَّةَ) وهي ضَبطُ ٱلنَّفسِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَسرُهَا عَلَى ٱلِاكتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اوَدَ ٱلجَسَدِ وَيَحفَظُ صِحَّتَهُ فَقَط وَٱجتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصدِ ٱلِاعتِدَالِ. وَانْ يَكُونَ مَا يُقتَصَرُ عَلَيهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ عَلَى ٱلوَجهِ ٱلمُستَحَبِّ ٱلمُتَّفَقِ عَلَى ٱلِارتِضَاءِ بِهِ وَفِي اوقَاتِ ٱلحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنهَا وَعَلَى ٱلقَدرِ ٱلَّذِي لَا يَحتَاجُ إِلَى أَكثَرَ مِنهُ. وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلعِفَّةِ

(وَمِنهَا أَيضًا ٱلقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلِاقتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلعَيشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلمَعَاشِ وَتَركُ ٱلحِرصِ عَلَى ٱكتِسَابِ ٱلأَموَالِ وَطَلَبِ ٱلمَرَاتِبِ ٱلعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَإِيثَارِهِ وَٱلمَيلِ إِلَيهِ وَقَهرِ ٱلنَّفسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱلقَنعِ بِٱليَسِيرِ مِنهُ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مُستَحسَنٌ مِنْ اوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاصَاغِرِهِم فَامَّا ٱلمُلُوكُ وَٱلعُظَمَاءُ فَلَيسَ ذٰلِكَ مُستَحسَنًا مِنهُم وَلَا تُعَدُّ ٱلقَنَاعَةُ مِن فَضَائِلِهِم

(وَمِنهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ. فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ الهَزلِ القَبيحِ ومُخالَطَةِ اهلِهِ وحُضُورِ مجالِسِهِ وضَبطُ اللِّسانِ عَنِ الفُحشِ وذِكرِ الخَنا والمَزحِ والسَّخيفِ وخاصَّةً في المَحافِلِ ومَجالِسِ المُحتَشِمِينَ اِذ لا اُبَّهَةَ لِمَن يُسرِفُ في المَزحِ ويُفحِشُ فيهِ. ومِنَ التَّصوُّنِ الانقِباضُ عَن ادنياءِ النّاسِ واصاغِرِهِم ومُصادَقَتِهِم ومُجالَسَتِهِم والتَّحرُّزُ مِنَ العِيشَةِ الزَّرِيَّةِ واكتِسابِ الاَموالِ مِنَ الوُجُوهِ الخَسِيسَةِ والتَّرفُّعُ عَن طَلَبِ الحاجاتِ مِن لِئامِ النّاسِ وسَفِلَتِهِم والتَّواضُعِ لِمَن لا قَدرَ لَهُ والاِقلالُ مِنَ البُرُوزِ اَعني الطَّوافَ مِن غَيرِ اضطِرارٍ والتَّبذُّلَ بالجُلُوسِ في الاَسواقِ وقَوارِعِ الطُّرُقِ مِن غَيرِ حاجَةٍ حَيثُ اِنَّ الاِكثارَ مِن ذلِكَ لا يَخلُو مِنَ العُيُوبِ فَاِنَّ اعظَمَ النّاسِ قَدرًا كما قِيلَ مَن ظَهَرَ اِسمُهُ وخَفِيَ جِسمُهُ

(ومِنها الحِلمُ) وهُوَ تَركُ الانتِقامِ عِندَ شِدَّةِ الغَضَبِ مَعَ القُدرَةِ على ذلِكَ وهذا الخالُ مَحمُودٌ ما لم يُؤَدِّ اِلى ثَلمِ جاهٍ او فَسادِ سِياسَةٍ وهُوَ بالمُلُوكِ والرُّؤَساءِ احسَنُ لِاَنَّهُم اَقدَرُ على الانتِقامِ مِن مُغضِبِيهِم. ولا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلمُ الصَّغِيرِ على الكَبِيرِ وانْ كانَ قادِرًا على مُقابَلَتِهِ في الحالِ فَاِنَّهُ وانْ امسَكَ عَنهُ فَاِنَّما يُعَدُّ ذلِكَ مِنهُ خَوفًا لا حِلمًا

(ومِنها الوَقارُ) وهُوَ الاِمساكُ عَن فُضُولِ الكَلامِ والعَبَثِ وكَثرَةِ الاِشارَةِ والحَرَكَةِ فِيما يُستَغنَى عَنِ التَّحرُّكِ فِيهِ وقِلَّةُ الغَضَبِ والاِصغاءِ عِندَ الاِستِفهامِ والتَّوقُّفُ عِندَ الجَوابِ والتَّحفُّظُ عِندَ السُّرعَةِ والمُبادَرَةِ في جَمِيعِ الاُمُورِ. ومِن قَبِيلِ الوَقارِ اَيضًا الحَياءُ وهُوَ غَضُّ الطَّرفِ والاِنقِباضُ مِنَ الكَلامِ حِشمَةً لِلمُستَحيِينَ مِنهُ وهذِهِ

الْعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ أَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا الْوُدُّ) وَهُوَ الْمَحَبَّةُ الْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ وَالْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالنُّبْلِ وَذَوِي الْوَقَارِ وَالْأُبَّهَةِ وَالْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ النَّاسِ. فَأَمَّا التَّوَدُّدُ إِلَى أَرَاذِلِ النَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَأَهْلِ الْخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ الْوُدِّ مَا نَسْجَتُهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ أَوْثَقُ الْوُدِّ وَأَثْبَتُهُ فَأَمَّا مَا كَانَ ابْتِدَاؤُهُ اجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ أَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى الشَّرِّ

(وَمِنْهَا الرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ الْوُدِّ وَالْجَزَعِ وَالرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خَلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ إِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَالرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي رُحِمَ لِأَجْلِهَا. وَهٰذِهِ الْحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تُخْرِجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ الْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ إِلَى الْجَوْرِ وَإِلَى فَسَادِ السِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ الْقَاتِلِ عِنْدَ الْقَوَدِ وَالْجَانِي عِنْدَ الْقِصَاصِ

(وَمِنْهَا الْوَفَاءُ) وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيُرْهِنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ الْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ أَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا أَضَرَّ بِهِ الدُّخُولُ تَحْتَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ أَبْلَغَ فِي الْوَفَاءِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِالْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ الْقَوْلِ عِنْدَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاهِ إلّا انّ انتفاعَ الملوكِ بهذا الخُلقِ انفعُ وحاجتهم اليهِ اشدُّ لِأنّهُ متى عُرِفَ منهم قلّةُ الوفاء لم يُوثَق بمواعيدِهِم ولم تتمّ اغراضهُم ولم تسكن اليهم جُندُهُم واعوانُهُم

(ومنها اداء الامانةِ) وهو التعفّفُ عمّا يتصرّفُ الانسانُ فيهِ من مالِ غيرِهِ وما يُوثَقُ بهِ عليهِ من الاعراضِ والحُرَمِ مع القدرةِ عليهِ وردّ ما يُستودَعُ الى مُودِعِهِ

(ومنها كتمانُ السرّ) وهذا الخُلقُ مركّبٌ من الوقارِ واداء الامانةِ. فانّ اظهارَ السرّ من فُضولِ الكلام. وليس بوقورٍ من تكلّمَ بالفُضولِ والفُضوليُّ ناقصُ الشرفِ. فكما انّ من استودِعَ مالًا فاخرجَهُ الى غيرِ مُودِعِهِ قد حقرَ الامانةَ كذلك من استودِعَ سرًّا فاخرجَهُ الى غيرِ صاحبِهِ فقد حقرَ الامانةَ ايضًا. وكتمانُ السرّ محمودٌ من جميعِ الناسِ وخاصّةً من يصحبُ السلطانَ واولياءَ الامورِ فانّ اخراجَهُ اسرارَهُم قبيحٌ في نفسِهِ يُؤدّي الى ضررٍ عظيمٍ وبلاءٍ جسيمٍ

(ومنها التواضعُ) وهو تركُ الترؤّسِ واظهارُ الخمولِ وكراهيةُ التعظيمِ والزيادةِ في الاكرامِ وان يتجنّبَ الانسانُ المباهاةَ بما فيهِ من الفضائلِ والمفاخرةَ بالمالِ والجاهِ وان يتحرّزَ من الاعجابِ والكبرِ. ولا يُحمَدُ التواضعُ إلّا من اكابرِ الناسِ ورؤسائهم واهلِ الفضلِ والعلمِ. وامّا ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعينَ بالتواضعِ لانّ الضعةَ هي محلّهم ومرتبتُهُم ولو كانوا غيرَ متضعينَ

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغَضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلْاِغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(ومنها السخاء) وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق. وهذا الخلق مستحسن ما لم ينته الى السرف والتبذير فان من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخيا بل يسمى مبذرا ومضيعا. والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة واما في الملوك والاولياء فامر واجب لان البخل يؤدي الى الضرر العظيم في الاحكام. والسخاء والبذل ترتبط بهما قلوب الرعية والجند والاعوان فيعظم الانتفاع به

(ومنها الشجاعة) وهي الاقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة الى ذلك وثبات الجاش اي القلب عند المخاوف والاستهانة بالموت. وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك واعوانهم اليق واحسن بل ليس يستحق للملك من عدم هذه الخلة. واكثر الناس اخطارا واحوجهم الى اقتحام الغمرات هم الملوك والحكام فالشجاعة اذا من اخلاقهم الخاصة بهم

(ومنها المنافسة) وهي منازعة النفس الى التشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي الى درجة اعلى من درجته. وهذا الخلق محمود اذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية او فيما يكسب مجدا وسوددا فاما في غير ذلك من اتباع الشهوات والمباهاة باللذات والزينة وغير ذلك فمكروه جدا

(ومنها الصبر عند الشدائد) وهذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة وهو مستحسن جدا ما لم يكن الجزع نافعا والحزن والقلق

مجديًا والاجتهاد دافعة ضرر تلك الشدائد فما احسن الصبر اذا عدمت الحيلة وما اقبح الجزع اذ لم يكن مفيدًا

(ومنها عظم الهمة) وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور وطلب المراتب السامية واستحقار ما يجود به الانسان عند العطية والاستخفاف باواسط الامور وطلب الغايات والتهاون بما يملكه وبذله لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به. وهذا الخلق من خصوصيات الملوك والحكام وقد يحسن بالرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه الى مراتبهم . ومن عظم الهمة الانفة والحمية والغيرة. فالانفة هي بعد النفس عن الامور الدنية والحمية والغيرة معًا والغضب عند الاحساس بالنقص. وتلحق الانسان الغيرة على الحرم لان في التعرض لهن عارًا ومنقصة فان المتعرض للحرم مهتضم لصاحبها ومتصرف في غير حق له والاهتضام نقيصة ومن اعظم الهمة الانفة منه. وهذا الخلق مستحسن جدًا من جميع الناس

(ومنها العدل) وهو التقسط اللازم للاستواء واستعمال الامور في مواضعها واوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير

البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَأَمَّا ٱلاخلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَانَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِانْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلِادْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ بِمَاءِ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُنَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْاعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلِاكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْاعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْحَرَكَةُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلِٱحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

وَمَنفَعَةٌ. وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ أَقبَحُ وَأَضَرُّ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ بِٱلْغَدْرِ لَمْ يَرْكُنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ إِنْسَانٌ فَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْخِيَانَةُ) وَهِيَ ٱلِاسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ ٱلْإِنسَانُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْحُرَمِ وَتَمَلُّكُ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمُجَاحَدَةُ مُودِعِهِ. وَمِنَ ٱلْخِيَانَةِ أَيضًا طَيُّ ٱلْأَخْبَارِ إِذَا نُدِبَ ٱلْإِنسَانُ لِتَأْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ ٱلرَّسَائِلِ إِذَا حَمَلَهَا وَصَرْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ أَعْنِي ٱلْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَيَثْلِمُ ٱلْجَاهَ وَيَقْطَعُ وُجُوهَ ٱلْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا إِفْشَاءُ ٱلسِّرِّ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْخِيَانَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَوْثُوقٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَٱلسِّرُّ أَحَدُ ٱلْوَدَائِعِ وَإِفْشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَٱلْمُفْشِي بِٱلسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ ٱلْمُلُوكَ وَأَوْلِيَاءَ ٱلْأُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ. وَمِنْ قَبِيلِ إِفْشَاءِ ٱلسِّرِّ أَيضًا ٱلْغِيبَةُ وَٱلنَّمِيمَةُ وَهِيَ أَنْ يُبَلِّغَ إِنسَانٌ إِنسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ أَيضًا بِمَا يَسْمَعُهُ أَوْ يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ إِلَى مَنْ يَكْرَهُهُ قَبِيحٌ لِأَنَّ فِي ذٰلِكَ إِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ ٱلْمُبَلِّغِ وَٱلْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلْكِبْرُ) وَهُوَ ٱسْتِعْظَامُ ٱلْإِنسَانِ نَفْسَهُ وَٱسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلِاسْتِهَانَةُ بِٱلنَّاسِ وَٱسْتِصْغَارُهُمْ وَٱلتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ ٱلتَّوَاضُعُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِأَنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْاَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ. فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرَ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

في حكمهم وبعضهم الى رعيتهم

(ومنها الجبن) وهو توهم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء . وهذا الخلق مكروه الا انه بالجنود واصحاب الحروب مضر جداً

(ومنها الحسد) وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام الغير ما هو له . وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل احد

(ومنها الجزع عند الشدة) وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن . وهو مستقبح جداً اذا لم يكن مجدياً نفعاً واما اظهاره للحيلة عند الوقوع في الشدة او لاستغاثة مغيث او اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة

(ومنها صغر الهمة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الامل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها . وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء اقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كاخذ الاموال من غير وجوهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا اوقاتها ولا على القدر

اَلَّذِي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى اَلْوَجْهِ اَلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذَٰلِكَ اَلسَّرَفُ وَالتَّبْذِيرُ اَيضاً

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنهَا حُبُّ اَلْكَرَامَةِ) وَهُوَ اَنْ يُسَرَّ اَلْاِنْسَانُ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّبْجِيلِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ اَلْجَمِيلِ . وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي اَلْاَحْدَاثِ وَالصِّبْيَانِ لِاَنَّ مَحَبَّةَ اَلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى اَلرَّغْبَةِ فِي اكْتِسَابِ اَلْفَضَائِلِ . وَذٰلِكَ اَنَّ اَلْحَدَثَ وَالصَّبِيَّ اِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِياً لَهُمَا اِلَى اَلْاِزْدِيَادِ فِي اَلْفَضَائِلِ . وَاَمَّا اَلْاَفَاضِلُ مِنَ اَلنَّاسِ فَاِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً . لِاَنَّ اَلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى اَلْفَضِيلَةِ اِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ اَمَّا اِذَا كَانَ مِنْ اَهْلِ اَلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي اَنْ يُسَرَّ اَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ اَلْفَضَائِلِ . وَكَذٰلِكَ اَلْاِكْرَامُ وَالتَّبْجِيلُ اِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ فَاِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى اَلْمَلَقِ وَالسُّرُورُ بِالْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِاَنَّهُ مِنْ جِنْسِ اَلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ اَلزِّينَةِ) وَهُوَ اَلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ اَلثِّيَابِ اَلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ اَلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ اَلْخَدَمِ وَالْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ اَلْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ وَالْاَحْدَاثِ وَالظُّرَفَاءِ وَالنِّسَاءِ . فَاَمَّا اَلرُّهْبَانُ وَالزُّهَّادُ

وَالشُّيُوخُ وَاهلُ العِلمِ وخَاصَّةً الْخُطَبَاءُ وَالْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ فَانَّ التَّصَنُّعَ بِالزِّينَةِ مُسْتَقْبَحٌ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ الْخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ التَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ الصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا الْمُجَازَاةُ عَلَى الْمَدْحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمْدَحُ الْإِنْسَانَ وَيَشْكُرُهُ فِي الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُو الْمَادِحَ إِلَى الْإِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ الْمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى إِلَى الدَّهْرِ. وَمِنْ فَضَائِلِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ الْجَمِيلِ. وَأَمَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ الْمَدْحِ مِنَ الْمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَقِ وَحُبُّ الْمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قَبِيلِ الْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. فَأَمَّا إِيثَارُهُمْ انْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَدَاوُلَ النَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ الْمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَقْبَحٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى أَيْضًا إِلَى الدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ. أَمَّا أَصَاغِرُ النَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ الْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِأَنَّ الْمَادِحَ إِذَا مَدَحَ الدَّنِيءَ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَإِذَا أَجَازَهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ الْجَائِزَةَ بِالْحِيلَةِ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا مُدِحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ إِلَى مُجَازَاةِ الْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ الشَّيْءَ إِلَى الضُّعَفَاءِ وَأَهْلِ الْمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ أَجْمَلَ بِهِمْ وَأَلْيَقَ

(وَمِنْهَا الزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرَّغْبَةِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْإِدِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وايثار القناعة بما يقيم الرمق والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمراتب العالية واستصغار الملوك وممالكهم وارباب الاموال واموالهم. وهذا الخلق مستحسن جداً من العلماء ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ومن يرغب الناس في المعاد والبقاء بعد الموت. فاما الملوك والعظماء فان ذلك غير مستحسن منهم ولا لائق بهم لان الملك اذا اظهر الزهد صار ناقصاً اذ ان ملكه لا يتم الا باحتشاد الاموال والاعراض وادخارها ليدبر بها ملكه ويصون بواسطتها حوزته ويتفقد بها رعيته وهذا مضاد للزهد فانه اذا ترك الادخار ابطل ملكه وصار معدوداً في جملة الملوك الحائدين عن طريق السياسة

فهذه الاقسام التي ذكرناها هي اخلاق جميع الناس. اما الممدوحة منها المعدودة فضائل فقلما تجتمع كلها في انسان واحد واما المذمومة منها المعدودة نقائص ومعائب فقلما يوجد انسان يخلو من جميعها حتى لا يكون فيه خلق مكروه وخاصة من يروض نفسه ويؤدبها. فان من لا يتعمل لضبط نفسه وتفقد عيوبه لم يخل من عيوب كثيرة وان لم يحس بها ولم يفطن اليها. واذا كان الحال على ما ذكرناه كان اولى الامور بالانسان ان يتفقد اخلاقه ويتأمل عيوبه ويجتهد في اصلاحها ونفيها عن نفسه ويتبع الاخلاق المحمودة ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها لان الناس انما يتفاضلون على الحقيقة بفضائلهم

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معائبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلمحظُورَاتِ وَٱلشَّهوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلأَموَالِ فَٱلفَقِيرُ ٱلمُعسِرُ وَإِنْ كَانَ مَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظهَرُ ذَلِكَ مِنهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهوَاتِهِ فَتَظهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءً عَلَيهِ يَكُونُ ٱلغِنَى مُكسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلفَقرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فَيَنتُجُ مِنْ ذَلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلأَموَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلآدَابِ وَٱلمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ . فَٱلخَلِيقُ بِٱلإِنسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفسَهُ بِٱلآدَابِ ٱلمُستَحسَنَةِ وَيَسلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلمَحمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ مَحبُوبًا عِندَ ٱلنَّاسِ مَقبُولًا لَدَيهِم مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِم مُفَضَّلًا عَنْ غَيرِهِ مُوَقَّرًا عِندَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلمُلُوكِ مَقبُولَ ٱلقَولِ عَظِيمَ ٱلجَاهِ

فَهَذِهِ حَالَةُ ٱلعَظَمَةِ ٱلحَقِيقَةِ ٱلمُكتَسَبَةِ بِٱلأَموَالِ لِأَنَّ ٱلمَالَ قَدْ تَلحَقُهُ ٱلمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَت مَنزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذَلِكَ لِأَنَّ ٱلمُعَظِّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفسَهُ فَمَتَى زَالَ ذَلِكَ ٱلمَالُ لَمْ يَبقَ لَهُ شَيءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجلِهِ . وَلَيسَ كَذَلِكَ ٱلعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلفَاضِلُ ٱلمُهَذَّبُ ٱلأَخلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيءٍ خَارِجٍ عَنهُ

البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وبما انَّ الراغبَ في سياسةِ نفسهِ المؤثرَ تهذيبَ اخلاقهِ اذا نُبّه على خُلقٍ مذمومٍ وُجدَ فيهِ واحبَّ اجتنابهُ ربما صعُبَ عليهِ الانتقالُ عنهُ من اوَّلِ وهلةٍ وربما لم ينلِ التخلّصَ منهُ ولم يطاوعهُ طبعهُ او ربما استحسنَ ايضاً خلقاً محموداً لا يجدهُ لنفسهِ وآثرَ التخلّقَ بهِ لم تسمحْ لهُ عادتهُ ولم يصلْ الى مرادهِ. لذلكَ وجبَ ان نرسمَ للراغبينَ في السياسةِ المحمودةِ طرقاً يتدرَّبونَ بها ويتدرَّجونَ فيها حتّى ينتهوا الى مرادهم من اعتيادِ الاخلاقِ الجميلةِ والانطباعِ عليها وتجنبِ الاخلاقِ القبيحةِ والتفرغِ منها ولهذا نذكرُ طريقَ الارتياضِ بالاخلاقِ المحمودةِ والتعمّلَ لاعتيادها لكي يمكنَ للراغبِ ان يتخلّقَ بها فنقولُ:

انهُ لأمرٌ مقرَّرٌ انَّ سببَ اختلافِ الاخلاقِ في الناسِ هو اختلافُ قوى النفسِ الثلاثِ فيهم وهي الشهوانيّةُ والغضبيّةُ والناطقةُ وانَّ اصلاحَ الاخلاقِ هو تذليلُ الشهوانيّةِ منها والغضبيّةِ وتمييزُ

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور متوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من افعالها. فطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات القبيحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين

اما النفس الشهوانية فالطريق الى قمعها ان يتذكر الانسان في اوقات شهواته وعند شدة العزم الى لذاته انه يريد تذليل نفسه الشهوانية فيعدل عما تاقت نفسه اليه من الشهوة الرديئة الى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة ومتفق على ارتضائه ويقتصر عليه. فان لم تنكسر شهواته يعللها ويعدها فان سكنت انتصر والا عاود الفعل من الوجه المستحسن. فانه اذا فعل ذلك وكرره كفت النفس واذا استمر على هذا الحال الفت هذه العادة وتانست بها واستوحشت مما سواها . وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك واهل الورع والواعظين ويلازم مجالس الرؤساء واهل العلم فان هؤلاء وخاصة رؤساء الدين يعظمون من كان معروفا بالعفة ويستهزئون من كان فاجرا منهمكا. فمجالسته وملازمته لهذه المجالس تضطره الى التصون والتعفف والتجمل لذويهم لئلا يستهزئوه ويغضبوا منه ويلحق برتبة من يعظم في المحافل والمجالس. وينبغي له ايضا ان يديم النظر في كتب الاخلاق والسياسة واخبار الزهاد والرهبان والنساك واهل الورع ويتجنب مجالس الخلعاء والسفهاء والمنهمكين ومن يكثر الهزل واللعب وحينئذ يلحق برتبة ويعظم في المحافل. واكثر ما

يجب له ان يجتنب السكر فانه مما يثير نفسه الشهوانية ويقويها ويحملها على التهتك وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها. . وينبغي لمن اراد قمع نفسه الشهوانية ان يقل من استماع الغناء وخاصة من النساء المتصنعات والشبان الظرفاء فان للسماع قوة عظيمة في اثارة الشهوة... اما الطعام فينبغي ان تعلم ان غايته هو الشبع لدفع الم الجوع. وفاخر الطعام ودنيئه جميعهما مشبعان فليس للمبالغة في تجويد الطعام الكثير حظ ولا فائدة. والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده والفه... وطريق التدرج الى الاقتصار في الطعام هو ان يبادر ذو الشهوة الى اي شيء وجده من المآكل فان كان المشتهى الذي تاقت نفسه اليه حلوا فالا اي حلاوة وجدها وان كان غير ذلك فالا ما يشتهيه من الطعام فانه اذا تناول الانسان من ذلك تكرارا وشبع منه سكنت شهوته وكفت نفسه بعد ذلك

وينبغي لمن احب العفة ان يكون ابدا متيقظا ذاكرا لما يلحق الفاجر والنهم والشره والمتهتك من القباحة والعار في الدنيا جاعلا ذلك ديدنه وشعاره ومداوما على ذكره. فان نفسه حينئذ تبغض الشهوات الرديئة وتشتاق الى التعفف والقناعة وتطرب عند العدول عن الفواحش مع القدرة عليها وترتاح لما ينشر عنها وما يبلغها عن الناس من الثناء الجميل على صاحبها. فهذا هو طريق رياضة النفس

إلى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها اعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنية

فاما النفس الغضبية فان طريق قمعها وتذليلها هو ان يصرف الانسان همته الى تفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب في اوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على اخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فانه يشاهد اذ ذاك منظرا شنيعا يأنف منه الخاص والعام وان يتذكر في اوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب اخوانه واودائه في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من اولئك . فانه اذا تفكر فيما كان استحقه منهم فتنكسر بذلك سورة غضبه ويحجم عما هم بالاقدام عليه من السب والوثوب فان لم يكف بالكلية قصر ولم ينته الى غاية الفحش

وينبغي لمن اراد ان يقهر نفسه الغضبية ان يتذكر في اوقات غضبه على من يؤذيه او يتجنى عليه انه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق ان يقابل به على جنايته فانه بهذا الفعل يعتقد ان درك تلك الجناية وذلك الاذى يسير جدا فاذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائما وجعله ديدنا وتفقد معايب السفهاء ومن يسرع اليه الغضب لم يبعد ان تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد اليه واذا استمر على هذا

العَمَلِ مُدَّةً صارَ لَهُ خُلقاً وعادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ الغَضَبِيَّةِ انْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ السِّلاحِ فِي مَجالِسِ الشَّرابِ وَحُضُورَ مَواضِعِ الفِتَنِ وَمَقاماتِ الحُرُوبِ وَفِي مُجالَسَةِ الأَشْرارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعاشَرَتَهُمْ وَمُخالَطَةَ الشُّرَطِ فَانَّ هذِهِ المَواضِعَ تُكْسِبُ قَساوَةَ القَلْبِ وَتُغَلِّظُهُ وَتُعْدِمُهُ الرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذلِكَ القُوَّةُ الغَضَبِيَّةُ فاذا ارادَ تَذْلِيلَها وَتَسْكِينَها يَجِبُ انْ يَجْعَلَ مُجالَسَتَهُ لِأَهْلِ الوَقارِ وَالشُّيُوخِ وَالرُّؤَساءِ وَالأَفاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ انْ يَتَجَنَّبَ المُسْكِرَ مِنَ الشَّرابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ القُوَّةَ الغَضَبِيَّةَ اكْثَرَ مِمّا يُهَيِّجُ القُوَّةَ الشَّهْوانِيَّةَ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ ارادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ الغَضَبِيَّةِ وَالشَّهْوانِيَّةِ مَعاً انْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ ما يَفْعَلُهُ الفِكْرَ وَلا يُقْدِمَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ انْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ الفِكْرَةَ وَاتِّباعَ الرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعادَتَهُ فَإِنَّ الرَّأْيَ وَجُودَةَ الفِكْرِ يُقَبِّحانِ لَهُ السَّفَهَ وَسُرْعَةَ الغَضَبِ وَالِانْهِماكَ فِي الشَّهَواتِ وَاتِّباعِ اللَّذّاتِ . فَإِذا اسْتَقْبَحَ ذلِكَ احْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى ما يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ وَالفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِالكُلِّيَّةِ لا بُدَّ انْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمّا يُرِيدُ التَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلاكُ الأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ الأَخْلاقِ وَضَبْطِ القُوَّةِ الشَّهْوانِيَّةِ وَالقُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ هِيَ القُوَّةُ النّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهذِهِ القُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ السِّياساتِ فَإِذا كانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صاحِبِها امْكَنَهُ انْ

يَسُوس بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفُّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلقَبَائِحِ وَيَتَّبِعُ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلعُلُومِ ٱلعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَنْخَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلفَضَائِلَ وَٱلمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلقُوَّةِ هِيَ ٱلعُلُومُ ٱلعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلِٱرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا ايضاً مُجَالَسَةُ اهلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِاَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً اَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمْ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

امَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَاِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ اِذَا رَاضَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ • فَاِنَّهَا اِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ اَنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْاِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ اَنَّ طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِاَعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ اِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَاِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ اكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْاِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَاتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ اَيُّهَا اَجْدَى عَلَيْهِ وَاَنْفَعُ وَاَيُّهَا اَجْدَرُ عَاقِبَةً وَاَبْقَى عَلَى ٱلْاَيَّامِ فَاِنَّهُ اِذَا صَدَقَ مَا تَاكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ اَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ اِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

وَقْتِ اسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ اَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا اِلَى الدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ الْغَضَبِ وَالْاِسْرَاعِ اِلَى الْاِنْتِقَامِ وَالسَّبِّ وَالْفُحْشِ فَمَتَى انْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَامَّلَ اَمْرَهُ فَرَاَى اَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ الْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَيَّرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ارْتَكَبَ حَالَ الْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اَجْلِهَا. كَذٰلِكَ الْعَادَاتُ الْمَكْرُوهَةُ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ هِيَ اَيْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْاِنْسَانِ نَفْعًا كَالْحَسَدِ مَثَلًا وَالْحِقْدِ وَالْخُبْثِ وَاَمْثَالِ هٰذِهِ اِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَاِنِ انْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مَضَرَّةٌ لَهُ لِاَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ النَّاسُ بِالشَّرِّ وَاسْتَعَدُّوا لِاَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَاحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ الْخَيْرِ.. فَاِذَا حَاسَبَ الْاِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ اَنَّ الضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ الْاَخْلَاقِ اَكْثَرُ مِنَ النَّفْعِ بِهَا وَاَنَّ الَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَاِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٍّ وَاَنَّ هٰذَا الْيَسِيرَ الَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِالضَّرَرِ الْكَثِيرِ وَالْعَارِ الدَّائِمِ الْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ سِيَاسَةَ اَخْلَاقِهِ اَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ الْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى اِلَّا

بأعلى درجة فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريًا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية إن فاتته الدرجة العليا وأما إن قنع بالتوسط يأمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى في أدنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبدًا في التمام.

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فإذا أخذ الإنسان بتدريب نفسه به وأكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدنًا والمحاسن خلقًا وطبعًا

هذا وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق... فنقول إن الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان وإذا انتهى إليه افتراضا كان أشبه منه بالناس. وذلك لأن الإنسان مضروب بأنواع النقص مستولٍ على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتام وإن كان عزيزًا بعيد التناول إلا أنه ممكن وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان فإذا صدقت عزيمته وأعطى الاجتهاد حقه كان ممكنا له أن ينتهي إلى الغاية المقصودة المتهيء هو لها بلك التي تسمو نفسه إليها

أما تفصيل ذلك هو أن يكون متفقدًا لجميع أخلاقه متيقظًا

لسائر معايبه متحرزًا من دخول نقص عليه مستعملًا لكل فضيلة مجتهدًا في بلوغ الغاية عاشقًا لصورة الكمال مستلذًا بمحاسن الأخلاق متيقظًا لمذموم العادات معتنيًا بتهذيب نفسه غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل مستعظمًا لليسير من الرذائل مستصغرًا للرتبة العليا مستحقرًا للغاية القصوى يرى التمام دون محله والكمال اقل اوصافه . .

فما اولى من نظر في هذه الاقوال وتصفحها وفهم مضمونها وتدبرها واخذ نفسه باستعمال ما تبين في فصوله وساق اخلاقه على التطرق الى ما فنن في ابوابه واجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه واستفرغ غاية الوسع في طلب التمام . وما اقبح النقص بالقدر على التمام والعجز عن المقتدر

الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ : أَمعاشِرَ ٱلكُتَّابِ أَحسِنُوا ٱلِٱبتِداءاتِ فَإِنَّهنَّ دَلَائِلُ ٱلبَيانِ . وَذَلِكَ أَنْ يَجعَلَ ٱلخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَأَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِإِلقَائِهِ فَيَنظُرَ إِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمَطلُوبِ فَيَجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ أَوِ ٱلدُّعَاءَ أَوِ ٱلتَّضمِينَ مُشعِرًا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلَاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ ٱلِٱبتِدَاءَاتُ بِٱلِٱختِيَارِ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلَامِ فَإِذَا كَانَ ٱلِٱبتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱستِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ أَسمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُمْ بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ أَنْ يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ أَكثَرَ ٱلِٱبتِدَاءَاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِأَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

الى الاستماع . وقد قيل : كل كلام لا يبتدأ فيه بالحمدلة فهو ابتر . وحقيقة هذا الباب ان يجعل مطلع الكلام من الخطب او الرسائل او الشعر دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام ان فتحاً ففتحاً وان كان هناء فهناء او كان عزاء فعزاء وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني . وفائدته ان يعرف من الكلام ما المراد به ويستفتح المتكلم ابواب الاسماع ويستحضر الاذهان للاستماع . وهذا الشعب عظيم النفع لمن حققه ولا يفتح بابه الا لمن طرقه وقد يسمى ايضاً هذا النوع براعة الاستهلال وسيأتي عنه الكلام في القسم الثاني من هذا المجموع عند الكلام عن الشعر

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

القضية قول يصح ان يقال لقائله انه صادق فيه او كاذب وهي مجموع المعلومات الاربعة وهي المحكوم عليه والمحكوم به والنسبة الحكمية والحكم وادراك هذه الاربعة تصديق . والقضية اما حملية واما شرطية . قالوا : ان كان المحكوم عليه والمحكوم به قضيتين عند التحليل اي عند حذف ما يدل على العلاقة بينهما من النسبة

ٱلحكمية سُمِّيَتْ شرطيةً وإلّا سُمِّيَتْ حمليةً . فإنَّ قولنا مثلًا : (زيدٌ نائمٌ) . قضيةٌ حمليةٌ . لأنَّ طرفيها مفردانِ عند ٱلتحليلِ ويُسمَّى ٱلطرفُ ٱلأوّلُ من ٱلقضيةِ ٱلحمليةِ وهو ٱلمخبَرُ عنهُ موضوعًا وٱلثاني محمولًا . وقولنا : (إن كانت ٱلشمسُ طالعةً فٱلنهارُ موجودٌ) قضيةٌ شرطيةٌ . لأنَّهُ إذا حذفنا (إنْ وٱلفاء) ٱلموجبتينِ للربطِ بقيَ : (ٱلشمسُ طالعةٌ) (وٱلنهارُ موجودٌ) وهما قضيّتانِ . وٱلقضيةُ ٱلحمليةُ إمّا شخصيةٌ وهي ٱلتي يكونُ ٱلمحكومُ عليهِ فيها جزئيًّا معيّنًا كقولك : زيدٌ كاتبٌ . وإمّا كليّةٌ وهي ٱلتي يكونُ ٱلمحكومُ عليهِ فيها كليًّا يشملُ جميعَ أفرادِ ٱلموضوعِ . وتكونُ كلاهما إمّا موجبةً وإمّا سالبةً . وإنّما يُحكَمُ في ٱلقضيةِ ٱلشرطيةِ على ٱلتعليقِ وهو وجودُ إحدى قضيّتيها معلّقٌ على وجودِ ٱلأخرى أو على نفيها وهي قسمانِ متّصلةٌ وهي ٱلتي يُحكَمُ فيها بلزومِ قضيةٍ أخرى أو لا لزومها وهي ٱلتي توجبُ ٱلتلازمَ بينَ جزئيها نحوُ : لو كانَ في ٱلسماءِ وٱلأرضِ آلهةٌ إلّا ٱللهُ لفسدتا . ومنفصلةٌ وهي ٱلتي يُحكَمُ فيها بامتناعِ ٱجتماعِ قضيّتينِ فأكثرَ في ٱلصدقِ وهي ٱلتي جزءاها متعاندانِ نحوُ : ٱلعالمُ إمّا قديمٌ أو حادثٌ . ويُسمّى ٱلطرفُ ٱلأوّلُ من ٱلقضيةِ ٱلشرطيةِ مقدّمًا وٱلثاني تاليًا . ولا بُدَّ من رابطٍ بينَ ٱلموضوعِ وٱلمحمولِ

وللقضيةِ أقسامٌ غيرُ هذهِ منها (ٱلقضيةُ ٱلبسيطةُ) وهي ٱلتي حقيقتها أو معناها إمّا إيجابٌ فقط نحوُ : كلُّ إنسانٍ حيوانٌ بٱلضرورةِ .

وَامَّا سَلبٌ فقط نحوُ: لا شيءَ مِنَ ٱلإنسانِ بحجرٍ بِالضَّرورةِ. وَمِنها (ٱلقضيَّةُ ٱلمركَّبةُ) وهيَ ٱلَّتي حقيقتُها ملتئمةٌ مِنْ إيجابٍ وسلبٍ معاً نحوُ: كلُّ إنسانٍ ضاحِكٌ لا دائماً. وَمِنها (ٱلقضيَّةُ ٱلنظريَّةُ) وهيَ ٱلَّتي يُسأَلُ عنها ويُطلَبُ بِالدَّليلِ إثباتُها في ٱلعلمِ. فهيَ مِن حيثُ انَّها يُسأَلُ عنها تُسمَّى مسألةً. وَمِن حيثُ يُطلَبُ حصولُها مَطلَباً. وَمِن حيثُ تُستخرَجُ مِنَ ٱلبراهينِ نتيجةً. وَمِن حيثُ يُبتنَى عليها ٱلشيءُ اُصولاً. وَمِن حيثُ انَّها مُنطبِقةٌ على جزئيَّاتٍ موضوعةٍ تتعرَّفُ احكامُها مِنها قاعدةً. وَمِن حيثُ يتألَّفُ مِنها ٱلحجَّةُ مقدَّمةً وقضيَّةً. وَمِن حيثُ تحتمِلُ ٱلصِّدقَ وٱلكذبَ خبراً

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليَّات لابي البقا)

(راجع صفحة ۹۷ من علم الخطابة)

وَامَّا ٱلقياسُ فهوَ قولٌ مؤلَّفٌ مِن قضايا اذا وُضِعت لزمَ عنها بذاتِها لا بِالعرضِ قولٌ آخرُ اضطراراً كقولِنا: ٱلعالمُ متغيِّرٌ وكلُّ متغيِّرٍ حادثٌ فانَّهُ مؤلَّفٌ مِن قضيَّتينِ ولزمَ عنهما انَّ ٱلعالمَ حادثٌ وهوَ ٱلقياسُ ٱلعقليُّ وٱلمنطقيُّ. وٱلقولُ ٱلآخرُ يُسمَّى مطلوباً قبلَ إقامةِ ٱلدَّليلِ عليهِ. ونتيجةً بعدَ تركيبِ ٱلقياسِ لهُ وإقامةِ ٱلدَّليلِ

عَلَيْهِ وَيُسَمَّى بِالرِّدْفِ ايضاً. وَمَوْضُوعُ ٱلنَّتِيجَةِ هُوَ ٱلْحَدُّ ٱلْأَصْغَرُ وَٱلْمَحْكُومُ فِيهَا هُوَ ٱلْحَدُّ ٱلْأَكْبَرُ. وَما كُرِّرَ فِي ٱلْقَضِيَّتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا اوسَطَ. وَيَدْعُونَ ٱلْقَضِيَّةَ ٱلْمُشْتَمِلَةَ عَلَى ٱلْحَدِّ ٱلْأَكْبَرِ مُقَدِّمَةً كُبْرَى وَٱلْمُشْتَمِلَةَ عَلَى ٱلْحَدِّ ٱلْأَصْغَرِ مُقَدِّمَةً صُغْرَى. وَمَجْمُوعُ ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلصُّغْرَى بِٱلْكُبْرَى فِي ٱلْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِٱلضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ ٱلْحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ إِلَى ٱلْأَصْغَرِ وَٱلْأَكْبَرِ هُوَ ٱلشَّكْلُ. وَأَشْكَالُ ٱلْقِيَاسِ اربَعَةٌ لِأَنَّ ٱلْأَوْسَطَ إِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي ٱلصُّغْرَى مَوْضُوعًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي ٱلنَّارِ. وَشَرْطُ إِنْتَاجِ هٰذَا ٱلشَّكْلِ إِيجَابُ ٱلصُّغْرَى وَكُلِّيَّةُ ٱلْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِأَنَّهُ يُنْتِجُ ٱلْمُوجَبَةَ ٱلْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي ٱلْأَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ ٱلْمُوجَبَةَ ٱلْكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجَبَةً جُزْئِيَّةً اوْ سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ ٱلْحَدُّ ٱلْأَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي ٱلصُّغْرَى وَٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِإِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ ٱلْبَعْضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجْهُولُ ٱلصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيْعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ ٱلصِّفَةِ فَٱلنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيْعُهُ. وَشَرْطُ إِنْتَاجِهِ ٱخْتِلَافُ مُقَدِّمَتَيْهِ فِي ٱلْإِيجَابِ وَٱلسَّلْبِ وَكُلِّيَّةُ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا يُنْتِجُ إِلَّا سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ ٱلْأَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى وَٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلثَّالِثُ) نَحْوَ كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ إِنْتَاجِهِ أَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجَبَةً

وَانْ تَكُونَ اِحدَى مُقدِّمَتيهِ كُلِّيَةً ومِنْ خَوَاصهِ اَنَّ نَتيجَتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جزئِيَّةً. وَاِنْ كَانَ ٱلحدُّ ٱلاوسَطُ عكسَ ٱلاوَّلِ بِاَنْ يَكُونَ مَوضُوعًا فِي ٱلصُّغرَى مَحْمُولًا فِي ٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلرَّابعُ) كَقَولِكَ: كُلُّ اِنسانٍ حيوانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنسانٌ فَبَعضُ ٱلحيوَانِ نَاطِقٌ

وَٱلقِيَاسُ يُقسَمُ اِلَى كَامِلٍ وَغَيرِ كَامِلٍ فَٱلقِيَاسُ ٱلكَامِلُ هُوَ ٱلقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلزَمُ عَنهُ بَيِّنًا عِندَ وَضعِهِ فَلَا يَحتَاجُ اَن نُبَيِّنَ اَنَّ ذَلِكَ لَازِمٌ عَنهُ. وَٱلغَيرُ ٱلكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلزَمُ عَنهُ شَيْءٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ ٱلامرِ اَنَّ ذَلِكَ يَلزَمُ عَنهُ. بَلْ اِذَا اُرِيدَ اَنْ نُبَيِّنَ ذَلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لَكِنَّهُ غَيرُ خَارِجٍ مِن جُملَةِ مَا قِيلَ بَلْ اِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ اَو عَكسُهُ تَغيِيرُ شَيْءٍ مِنهُ وَٱفتِرَاضُهُ. وَٱلقِيَاسُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلزَمُهُ لَيسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلفِعلِ بِوَجهٍ بَلْ بِٱلقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱقتِرَانِيًّا كَقَولِكَ: كُلُّ جِسمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقتِرَانِ ٱلحُدُودِ فِيهِ. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلزَمُهُ هُوَ اَو نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلفِعلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱستِثنَائِيًّا كَقَولِكَ: اِنْ كَانَتِ ٱلنَّفسُ لَهَا فِعلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لَكِنْ لَهَا فِعلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وِلأَقسامِ ٱلقِياسِ مُلحقاتٌ أُخَرُ يُقسَمُ إِلَيها . (اوَّلها) ٱلقِياسُ ٱلمُرَكَّبُ وَهُوَ قِياسٌ رُكِّبَ مِن مُقَدَّماتٍ يُنتِجُ مُقَدَّمتانِ مِنها نَتيجةً وَهِيَ مَعَ ٱلمُقَدَّمَةِ ٱلأُخرَى نَتيجةٌ أُخرَى وَلا تَزالُ نَتائِجُ بَعضِها مُقَدَّماتٍ لِبَعضٍ إِلى أَن يَحصُلَ ٱلمَطلُوبُ . فَإِن صُرِّحَ بِنَتائِجِ تِلكَ ٱلأَقيِسَةِ سُمِّيَ مَوصُولَ ٱلنَّتائِجِ لِوَصلِ تِلكَ ٱلنَّتائِجِ بِٱلمُقَدَّماتِ كَقَولِكَ : كُلُّ كاتِبٍ إِنسانٌ وَكُلُّ إِنسانٍ حَيَوانٌ فَكُلُّ كاتِبٍ حَيَوانٌ . وَكُلُّ حَيَوانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسمٌ فَكُلُّ كاتِبٍ جِسمٌ . وَإِن لَم يُصَرَّحْ بِنَتائِجِ تِلكَ ٱلأَقيِسَةِ سُمِّيَ مَفصُولَ ٱلنَّتائِجِ وَمَطوِيَّها كَقَولِكَ : كُلُّ كاتِبٍ إِنسانٌ . وَكُلُّ إِنسانٍ حَيَوانٌ . وَكُلُّ حَيَوانٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نامٍ . وَكُلُّ نامٍ جِسمٌ فَكُلُّ كاتِبٍ جِسمٌ . (وَٱلثَّاني) قِياسُ ٱلخُلفِ . وَهُوَ قِياسٌ ٱستِثنائِيٌّ يُقصَدُ فِيهِ إِثباتُ ٱلمَطلُوبِ بِإِبطالِ نَقيضِهِ كَما إِذا قِيلَ كُلُّ نَباتٍ نامٍ وَلا شَيءَ مِنَ ٱلجَمادِ بِنامٍ فَلا شَيءَ مِنَ ٱلنَّباتِ بِجَمادٍ . فَيُقالُ لَو لَم يَكُنِ ٱلمَطلُوبُ حَقًّا اي لا شَيءَ مِنَ ٱلنَّباتِ بِجَمادٍ لَصَدَقَ نَقيضُهُ اي بَعضُ ٱلنَّباتِ جَمادٌ . لٰكِن لَو كانَ هٰذا

النَّقيض حقًّا لما صدق كون كلِّ نبات ناميا. وقد سُمّي هذا القياس خلفًا لأنَّ المتمسك به يثبت مطلوبه من خلفه اي من ورائه.

(والثالث) قياس الاستقراء وهو قول مؤلف من قضايا تشتمل على الحكم على الجزئيات لإثبات الحكم الكلّي. ويحدّ ايضا الحكم على كليّ لوجوده في اكثر جزئياته وقيل ايضا: هو تصفح الجزئيات لإثبات حكم كليّ ثم الاستقراء قسمان (تامّ) ويسمى قياسا مقسّما وهو ان يستدلّ بجميع الجزئيات ويحكم على الكلّ وهو قليل الاستعمال كما يقال: كلُّ جسم إمّا حيوانٌ او نباتٌ او جمادٌ وكلُّ واحد منها متحيّزٌ فينتج ان كل جسم متحيّزٌ وهو يفيد اليقين. (وناقص) وهو ان يستدلّ باكثر الجزئيات فقط ويحكم على الكلّ وهو قسيم القياس ولذا عدّوه من لواحق القياس وتوابعه وهو يفيد الظنّ كقولنا: كلُّ حيوان يحرّك فكّه الاسفل عند المضغ لأنَّ الانسان والفرس والحمار والبقر وغير ذلك ممّا تتبّعناه كذلك. فإنّه يفيد الظنَّ بجواز التخلّف كما في التمساح. (والرابع) قياس التمثيل وهو إثباتُ حكم في جزئيّ لثبوته في جزئيّ آخر لمعنًى مشتركٍ بينهما مؤثّرٍ في ذلك الحكم كقولك: العالَمُ مؤلَّفٌ فهو محدثٌ كالمدينة لأنَّ كليهما مركَّبٌ من اجزاء وهو ينقسم الى تمثيل قطعيّ يفيد اليقين والى غير قطعيّ يفيد الظنّ.

امّا انواع القياس فخمسةٌ. (احدها) القياس البرهانيّ وهو

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ. (وَالثَّانِي) الْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ نَحْوُ: الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ. (وَالثَّالِثُ) الْخِطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ: الصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ. وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ. (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ: الْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوَّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ النَّفْسَ. (وَالْخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ: هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ. وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخِطَابِيِّ أَيْ ذِي الْمُقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْاسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

استقراء والصنف الثاني القياس وما يظن به انه قياس كذلك الاقاويل المثبتة في الصناعة والمبطلة صنفان احدهما شبيه بالاستقراء وهو المثال والآخر شبيه بالقياس وهو الضمير. والضمير الذي يظن به انه ضمير وليس بضمير يشبه الذي يظن به هنالك انه قياس وليس بقياس. وكذلك المثال الذي يظن به انه مثال وليس بمثال يشبه الاستقراء الذي يظن به انه استقراء وليس باستقراء. فالضمير هو القياس الخطبي والمثال هو الاستقراء الخطبي. والخطباء اذا تؤمل امرهم ظهر انهم يفعلون جميع التصديقات التي تكون بالقول بهذين الصنفين اعني اما بالمثال واما بالضمير. وذلك انهم يؤمون بفعلهم هذا ان يتشبهوا بالاستقراء والقياس. والذي يفعلون من ذلك انما يفعلونه بما هو مثال في الحقيقة او بما يظن به انه كذلك وتبين في كتاب القياس ان كل تصديق فانه يكون بالقياس وان الاستقراء والمثال انما يفيدان التصديق بما فيهما من قوة القياس. فاما ما هو القياس وما الفصل بينه وبين البرهان فقد قيل في كتاب الجدل وقد تبين هنالك ايضا الفرق بين القياس والاستقراء. والاستقراء والمثال يشتركان في ان كليهما يثبتان ان هذا الشيء موجود كذا او غير موجود كذا من اجل وجود ذلك الشيء او لا وجوده في شبيهه. والضمير والقياس يشتركان في ان كليهما قول يوضع فيه شيء فيلزم عنه شيء آخر. واذا كان الامر هكذا فهو بين ان في كل واحد من

هذين الجنسين من القول نوعاً خطبياً ونوعاً جدلياً ونوعاً برهانياً ونوعاً سوفسطائياً. فانه كما يوجد الاستقراء والقياس في هذه الصنائع كذلك يوجد في الخطابة المثال والضمير وانما يختلف في هذه الصنائع بجهة الاستعمال اعني في صناعة البرهان وصناعة الجدل. والقياس في الجدل اوثق من الاستقراء والمثال في الخطابة اقنع من الضمير لان الضمير يتطرق اليه العناد اكثر من تطرقه الى المثال وسبب هذا سنخبر به فيما بعد وكذلك كيف نستعمل هذه الاشياء. فاما الآن فينبغي ان نحدد هذين الطريقين من الاقناع اعني الضمير والمثال فنقول:

ان القول المقنع اما ان يكون مقنعاً لواحد من الناس او لجماعة من الناس او لاكثر الناس. وايضاً منه ما يكون اقناعه في امر كلي ومنه ما يكون في امر جزئي. وكلا هذين منه ما يكون اقناعه بيناً بنفسه ومنه ما يكون اقناعه بغيره. والذي يكون اقناعه بغيره في الجزئيات ضربان (احدهما) ان يقول القائل: ان كذا انما هو كذا لموضع كذا. مثل قول القائل: ان شراب السكنجبين ينفع فلاناً لانه محموم. وهذا هو الذي يسمى الضمير. (والضرب الثاني) ان يقول: ان كذا انما كان كذا لانه مثل كذا. مثل ان يقول. ان فلاناً ينتفع بشراب السكنجبين لان فلاناً انتفع به. وهذا هو الذي يسمى المثال. والمقنعات التي هي مقنعة عند واحد من الناس فليس تستعملها

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتِّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدَّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرِّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدَّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ كَمَا

كانت تصنع في الأكثر في الأمور الممكنة وذلك بيّن في الأمور المشاورية فإنه ليس يشير أحد على أحد بأمر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في أمثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرحوا بها في المقاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يُظن بكذبها . وأيضاً فلما كانت المقاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة إنما هي أحد صنفين إما المقاييس التي تؤلف من المقدمات البيّنة إقناعها بنفسه وإما من مقدمات تتبيّن مقدماتها بمقدمات أُخر تخلط بها وإلّا لم يتبيّن حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني أن يعسر تأليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيباً صناعياً وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يحملون المتكلم بين أيديهم أن يكون كلامه بسيطاً غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فإنه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الأمرين اللذين يكون فيهما الإقناع أعني في أن الشيء موجود أو غير موجود وفي أنه إذا وجد محمود أو غير محمود . وكذلك إذا استعمل التصديق بطريق أخذ الأشباه واستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . وإذا كان هذا هكذا فإذن القياس الخطبي وهو الضمير والمثال إنما يكونان في الأشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء بإطلاق وتلك

الأشياء مأخوذةٌ بحالٍ غيرِ الحالِ التي أُخذتْ بها في القياسِ والاستقراء. فإذا استُعمِلت تلك الأشياء بالحالِ التي بُيِّنَ في كتابِ القياسِ عادَ المثالُ استقراءً والضميرُ قياساً. وإذا أُخذتْ بهذهِ الحالِ التي ذكرنا عادَ الاستقراءُ مثالاً والقياسُ ضميراً. وتلك الحالُ هي أخذُ القياسِ والاعتبارِ بمقدماتٍ قليلةٍ وجيزةٍ فإنَّ الإقناعَ إنما يكونُ أكثرَ ذلكَ بالمقدماتِ التي هي في غايةِ الظهورِ وحذفِ ما خفيَ منها وأيضاً فإنَّ المحمودَ في هذهِ الصناعةِ أن يُحذفَ اللازمُ عنهُ ويؤتى بالشيءِ الذي يلزمُ إذا أُخبِرَ باللازمِ والملزومِ فكأنهُ قد ذكرَ الشيءَ مرتينِ فيكونُ هذراً في بادي الرأي. وعلى هذا فلا يُصرَّحُ بالحدِّ الأوسطِ في القياسِ إلا مرةً واحدةً ولا في الاعتبارِ إلا بشبيهٍ واحدٍ فيكونُ القياسُ ضرورةً ضميراً اي محذوفاً إحدى مقدمتيهِ وبهذا سُمّيَ ضميراً إذ كانت إحداهما مضمرةً ويكونُ الاستقراءُ ضرورةً تمثيلاً

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قال) ومقدماتُ القياساتِ الخُطبيةِ قد تكونُ ضروريةً وذلكَ في الأقلِّ وتكونُ ممكنةً وذلكَ في الأكثرِ لأنَّ أكثرَ الفحصِ الجمهوريِّ إنما هو فيما يمكنُ أن يكونَ بحالٍ ويمكنُ ألّا يكونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ. وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّهَا كُلَّهَا
اُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْاِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ.
وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَاِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ
وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ
مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ. وَاَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ
ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ. مِثْلَ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَاَنْ يُسَاءَ
اِلَى ٱلْمُسِيءِ. وَاَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ
لِشَيْءٍ. وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ
وَٱلْمُمْكِنَةِ اَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ. وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ
عَلَى ٱلْاَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي. وَهِيَ ٱلَّتِي
نِسْبَتُهَا اِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْاَكْثَرِ
اِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّدْقَ
فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ اَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ اِذْ
كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ لَا
تُوجَدُ لِكُلِّهِ. وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي اِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ
عَلَى ٱلْاَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ اَعْنِي اَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ
تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى اَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى
ٱلتَّسَاوِي. وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَاْخُوذَةُ حَدًّا اَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ اَعَمُّ مِنَ
ٱلطَّرَفِ ٱلْاَصْغَرِ وَاَخَصُّ مِنَ ٱلْاَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ اَعَمُّ مِنَ
ٱلطَّرَفَيْنِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ اَخَصُّ مِنْهُمَا. اَمَّا ٱلَّذِي هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمَتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدِّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدِّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدلائل التي تكون في الشكل الثالث والثاني تخص باسم العلامة وما كان منها في الشكل الاول يخص باسم الدليل . والذي في الشكل الثاني هو اخص باسم العلامة من الثالث كما انه ما كان من ذلك في الممكنة الاكثرية يخص باسم الاشبه وان كان في الممكنة على التساوي خص باسم الضمير المشتبه . فقد تبين من هذا القول ما هي المحمودات والدلائل والعلامات وما الفرق بينهما . لكن الذي تبين من الاقاويل القياسية على الحقيقة انما هو في كتاب القياس فانه هنالك تبين ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسية وتبين في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . واما (المثال) فقد بينا فيما تقدم انه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بانه ليس يصار فيه لا من الجزئي الى بيان الامر الكلي كما يصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلي الى الجزئي كما قد يصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بينا بالكلي الذي اثبتناه بالاستقراء جزئيا آخر غير الجزئيات التي اثبتها الكلي باستقرائها ويوافقه في انه يصير من جزئي الى جزئي لاجتماعهما في امر كلي . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئي الى الكلي ثم من الكلي الى جزئي آخر فانا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي الى جزئي يتوسط الكلي كالحال في المثال فان المثال انما يصير فيه من جزئي الى جزئي

لأشتراكهما في أمر كلّي . إذا كان الحكم المنقول من أحدهما إلى الآخر موجودًا للجزئيّ الأعرف من أجل ذلك الكلّيّ أو يُظنّ به أنه يوجد له من جهته وإلّا لم تصحّ النقلة من جزئيّ إلى جزئيّ أعني إن لم يكن هنالك كلّي وكان وجود ذلك الحكم من أجله للجزئيّ الأعرف. ومثال ما يعرض من هذا في الاستقراء أعني إذا كانت النقلة من جزئيّ إلى جزئيّ بتوسّط النقلة إلى الكلّيّ قول من قال: أيها الملك إنّ فلانًا طلب أن يكون من جملة العسس وقد كان من جملة عدوّك فلا تُبح له ذلك فإنه يريد أن يفتك بالملك لأنّ فلانًا طلب ذلك من فلان الملك وفلانًا من فلان الملك لأقوام يعدّدهم ففتكوا بملوكهم. فإنّ قائل هذا القول قد جعل النقلة فيه من جزئيّ إلى جزئيّ بتوسّط الكلّيّ الذي هو: إنّ كلّ من طلب أن يدخل في الحرس ممّن كان في جملة عدوّ الملك فهو يريد أن يفتك به. إلّا إنّ هذا الكلّيّ الذي ارتسم في النفس بالقوّة وإن لم يصرّح به يستعمل النقلة من جزئيّ إلى جزئيّ إذا كانت النقلة إليه في الذهن من أكثر الجزئيّات كان استقراء وإن كان من واحد منها أو من الأقلّ كان تمثيلًا. (قال) فأمّا القول في هذه الأشياء التي يقال لها مثالات فقد يُكتفى ها هنا بهذا القدر المُعطى منها

وأمّا القول في فصول الضمائر من جهة الأشياء التي منها تُعمل فإنّ القول فيها غامض وخفيّ وهو عظيم الغناء فيما نقصده

هاهنا. وسبب عمومه ان الضمائر تكون في جميع المقولات العشر كما تكون القياسات الجدلية لكن من الضمائر ما يكون في المواد التي في الصنائع مثل الضمائر التي تستعمل في الامور الكلية والجزئية في صناعة الطب وغيرها من الصنائع. وهذه فينبغي ان تستعمل في هذه الصنائع على نحو استعمال البراهين في تلك الصناعة لا على ما يستعملها الخطيب في المادة التي تخص الخطابة مثل ان يأتي بها جزءا من خطبة. وسائر الاشياء التي تكون بها الاقاويل الخطبية اتم فعلا وانفذ مما يذكر بعد. ومن الضمائر ما يكون في الامور التي تخص هذه الصناعة بحسب ما تبين من منفعتها وهي الامور الارادية وهذه هي التي ينبغي ان تستعمل على جهة ما يستعمل الخطباء الاقاويل الخطبية. ومن هذه الاشياء ينبغي ان تعدد في هذه الصناعة الاشياء التي هي فصول الضمائر لا من تلك المواد التي تحتوي عليها صناعة صناعة

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِن حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ اَيْضًا فِي اصْطِلَاحِ اَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اَيْ تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَاِنْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْإِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ اِظْهَارَ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلْأَنظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلْآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

أَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْأَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْإِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلْجَدَلِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَنَاظِرِينَ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِٱحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَاباً وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَاباً وَأَحْكَاماً يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلًّا وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . إِلَّا انَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَينَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ أَوْ قَوْمٍ وَكَانَ إِرَادَتُكَ فِيهَا أَنْ تُظْهِرَ ٱلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ ٱلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ ٱلْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْ لَا تُفَرِّقَ بَيْنَ أَنْ يَنْكَشِفَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا أَنْ يَكُونَ ٱلْبَحْثُ فِي ٱلْخَلَاءِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَلَإِ وَٱسْمَعْ إِنِّي أَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ أَنَّ ٱلسُّؤَالَ عَنِ ٱلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ ٱلْقَلْبِ إِلَى ٱلطَّبِيبِ وَٱلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَٱلْعُلَمَاءُ ٱلْأَطِبَّاءُ . وَٱلْعَالِمَ ٱلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْعَالِمَ ٱلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلْمُعَالَجَةِ وَٱلصَّلَاحِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً أَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ ٱلطَّبِيبِ فِيهِ أَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِمُدَاوَاتِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِأَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ ٱلْعُمْرِ

اِعْلَمْ أَنَّ مَرَضَ ٱلْجَهْلِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ. أَحَدُهُمْ يَقْبَلُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ. وَأَمَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ

فهو أنْ يكونَ مسترشدًا عالِمًا عاقِلًا فهما لا يكونُ مغلوبَ الحسدِ والغضبِ ومحبِّ الجاهِ والمالِ والشهوةِ ويكونَ طالبَ الطريقِ المستقيمِ ولم يكنْ سؤالُهُ واعتراضُهُ عن حسدٍ وتعنتٍ وامتحانٍ وبحثٍ. وهذا يقبلُ العلاجَ فيجوزُ أنْ تشتغلَ بجوابِ سؤالِهِ بل يجبُ عليكَ إجابتُهُ. أما الذي لا يقبلُ العلاجَ أحدُهم من كانَ سؤالُهُ واعتراضُهُ عن حسدِهِ وبغضِهِ والحسدُ لا يقبلُ العلاجَ لأنَّهُ من العلةِ المزمنةِ فكلَّما تجيبُهُ بأحسنِ الجوابِ وأفصحِهِ وأوضحِهِ لا يزيدُ لهُ ذلكَ إلَّا غيظًا وحسدًا فالطريقُ أنْ لا تشتغلَ بجوابِهِ:

كلُّ العداوةِ قدْ ترجى إزالتُها ... إلَّا عداوةَ منْ عاداكَ عنْ حسدِ

فينبغي لكَ أنْ تعرضَ عنهُ وتتركَهُ مع مرضِهِ قالَ: فأعرضْ عنْ منْ تولَّى عنْ ذكرِنا ولمْ يردْ إلَّا الحياةَ الدنيا واتبعَ هواه فتردَّى والحسودُ بكلِّ ما يقولُ ويفعلُ يوقدُ النارَ في زرعِ عملِهِ كما جاءَ في الحديثِ: الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ. والثاني أنْ يكونَ علةً من الحماقةِ وهو أيضًا كالحسودِ لا يقبلُ العلاجَ كما قالَ عيسى عليهِ السلامُ: (١) إني ما عجزتُ عنْ إحياءِ الموتى وقدْ عجزتُ عنْ معالجةِ الأحمقِ وذاكَ رجلٌ يشتغلُ لطلبِ العلمِ زمانًا قليلًا ويتعلمُ شيئًا من العلمِ العقليِّ والشرعيِّ فيسألُ ويعترضُ منْ حماقتِهِ لا يعلمُ ولا يفهمُ على العالِمِ الكبيرِ

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد. ولا نعلم عمَّنْ رواهُ الغزالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلْاسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا ... أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ
إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ ... سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ • قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

المبحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجَّلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ • وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِتْنَانِهِ حَتَّى إِذَا ٱطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيُنْفِذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَّدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ اِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ اَنَّهُ عَالِمٌ لِيَظْهَرَ لَهُمْ عَجْزُهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِٱقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًا. قَالَ شَارِحُ اِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشْبِهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: اِنَّ اَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ اِلَى

أمرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييزِ بينَ الشيء وأشباهِهِ ثمَّ إنها تنقسمُ إلى ما يتعلّقُ بالألفاظِ وإلى ما يتعلّقُ بالمعاني. (والأوّلُ) ينقسمُ إلى ما يتعلّقُ بالألفاظِ لا من حيثُ تركُّبِها وإلى ما يتعلّقُ بها من حيثُ تركُّبِها. (والأوّلُ) لا يخلو إمّا أنْ يتعلّقَ بالألفاظِ أنفسِها وهو أنْ تكونَ مختلفةَ الدلالةِ فيقعَ الاشتباهُ بينَ ما هو المرادُ وبينَ غيرِهِ • ويدخلُ فيهِ الاشتراكُ والتشابُهُ والمجازُ والاستعارةُ وما يجري مجراها ويُسمّى جميعاً بالاشتراكِ اللفظيّ. وإمّا أنْ يتعلّقَ بأحوالِ الألفاظِ وهي إمّا أحوالٌ ذاتيّةٌ داخلةٌ في صِيَغِ الألفاظِ قبلَ تحصُّلِها كالاشتباهِ في اللفظِ المختارِ بسببِ التصريفِ إذا كانَ بمعنى الفاعلِ أو المفعولِ. وإمّا أحوالٌ عارضةٌ لها بعدَ تحصُّلِها كالاشتباهِ بسببِ الإعجامِ والإعرابِ. (والمتعلّقةُ بالتركيبِ) تنقسمُ إلى ما يتعلّقُ الاشتباهُ فيهِ بنفسِ التركيبِ كما يُقالُ: كلُّ ما يتصوّرُهُ العاقلُ فهو كما يتصوّرُهُ. فإنَّ لفظَ (هو) يعودُ تارةً إلى المعقولِ وتارةً أُخرى إلى العاقلِ وإلى ما يتعلّقُ بوجودِهِ وعدمِهِ أي بوجودِ التركيبِ وعدمِهِ • وهذا الآخِرُ ينقسمُ إلى ما لا يكونُ التركيبُ فيهِ موجوداً فيُظَنُّ معدوماً ويُسمّى تفصيلَ المركّبِ • وإلى عكسِهِ ويُسمّى تركيبَ المفصّلِ وأمّا (المتعلّقةُ بالمعاني) فلا بُدَّ أنْ تتعلّقَ بالتأليفِ بينَ المعاني إذِ الأفرادُ لا يُتصوَّرُ فيها غلطٌ لو لم يقعْ في تأليفِها بنحوٍ ما ولا يخلو من أنْ تتعلّقَ بتأليفٍ يقعُ بينَ القضايا أو بتأليفٍ يقعُ في قضيّةٍ واحدةٍ • والواقعةُ بينَ القضايا إمّا قياسيٌّ

اوْ غيرُ قياسيٍّ . وٱلمتعلِّقةُ بالتأليفِ ٱلقياسيِّ إمّا انْ تقعَ في ٱلقياسِ نفسِهِ لا بقياسِهِ الى نتيجتِهِ اوْ تقعَ فيهِ بقياسِهِ الى نتيجتِهِ . وٱلواقعةُ في نفسِ ٱلقياسِ إمّا انْ تتعلّقَ بمادَّتِهِ اوْ بصورتِهِ . امّا (ٱلمادّيّةُ) فكما تكونُ مثلًا بحيثُ اذا رُتِّبَتِ ٱلمعاني فيها على وجهٍ يكونُ صادقًا لمْ تكنْ قياسًا وإذا رُتِّبَتْ على وجهٍ يكونُ قياسًا لمْ يكنْ صادقًا كقولِنا : كلُّ إنسانٍ ناطقٌ منْ حيثُ هوَ ناطقٌ ولا شيءَ منَ ٱلناطقِ منْ حيثُ هوَ ناطقٌ بحيوانٍ إذْ معَ إثباتِ قيدِ (منْ حيثُ هوَ ناطقٌ) فيهما تكذبُ ٱلصغرى ومعَ حذفِهِ عنهما تكذبُ ٱلكبرى . وإنْ حُذِفَ منَ ٱلصغرى وأُثْبِتَ في ٱلكبرى تنقلبُ صورةُ ٱلقياسِ لعدمِ ٱشتراكِ ٱلأوسطِ . وامّا (ٱلصوريّةُ) فكما تكونُ منهُ على ضربٍ غيرِ منتجٍ تكونُ ايضًا على ضربٍ منتجٍ وهذا يُسمّى سوءَ ٱلتأليفِ باعتبارِ ٱلبرهانِ وسوءَ ٱلتركيبِ باعتبارِ غيرِهِ . وامّا (ٱلواقعةُ في ٱلقياسِ بالقياسِ الى ٱلنتيجةِ) فتنقسمُ الى ما لا يكونُ ٱلنتيجةُ مغايرةً لأحدِ اجزاءِ ٱلقياسِ فلا يحصلُ بالقياسِ علمٌ زائدٌ على ما في ٱلمقدّماتِ وتُسمّى مصادرةً على ٱلمطلوبِ . والى ما تكونُ مغايرةً لكنّها لا تكونُ ما هيَ ٱلمطلوبُ منْ ذلكَ ٱلقياسِ ويُسمّى وضعَ ما ليسَ بعلّةٍ علّةً كقولِنا : ٱلانسانُ وحدَهُ ضحّاكٌ وكلُّ ضحّاكٍ حيوانٌ . وامّا (ٱلواقعةُ في قضايا ليستْ بقياسٍ) فتُسمّى جمعَ ٱلمسائلِ في مسئلةٍ كما يُقالُ : زيدٌ وحدَهُ كاتبٌ . فإنّهُ قضيّتانِ لإفادتِهِ انّهُ ليسَ غيرُهُ كاتبًا . وامّا (ٱلمتعلّقةُ

بِالْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ الْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ وَيُسَمَّى إِيهَامَ الْعَكْسِ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوُ: هٰذَا لَوْنٌ وَاللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْمُطْلَقِ بِحُكْمِ الْمُقَيَّدِ بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَالرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلَ الْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذَ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ كَمَنْ رَأَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ التَّوَهُّمُ وَالتَّكْلِيفُ فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ الْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ الْكَاتِبُ إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ الشُّرُوطِ أَوِ الْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ الْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالْبَسَائِطِ هِيَ الْاشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ اللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ الذَّاتِيَّةِ وَفِي أَحْوَالِهِ الْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَهِيَ الَّتِي فِي نَفْسِ التَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ الْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ الْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْقَضَايَا الْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ التَّأْلِيفِ وَالْمُصَادَرَةُ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِاعْتِبَارِ الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيهَامُ الْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ الْأَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجْبِنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنَازِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ. وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَواضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مَخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِيعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ:

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ: أَتَاكُمْ وَٱللهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ: تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ: أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ: نَعَمْ فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ: صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ: رَفَعَهَا ٱللهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا تَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَّةً إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلعِبَادُ وَيُغْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلعَصَاهُ (ثُمَّ اَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هٰذَا اَوْجَدَهُ ٱللهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَاَنْشَاهُ اَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ اِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ اِلَى هٰذِهِ ٱلعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلعِبَادِ . قَالَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ : فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى بَدِيهٍ اَحْسَنَ مِنْهُ . وَلَمَّا اَقَامَ اَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شُبَّةَ وَاَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ اَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَاَيْتُ كَٱلْيَوْمِ اَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا اَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا اَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا اَبَلَّ رِيقًا وَلَا اَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا اَحْسَنَ طَرِيقًا اِلَّا اَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يَرُضْ مُحَمَّلَتَهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْاَحَبِّ وَاَيْمُ ٱللهِ اِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ اَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ . وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا اُعْجِبُ بِكِتَابِ اَحَدٍ كَاعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسَمِ بْنِ عِيسَى فَاِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ اِلَى ٱلْاِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي اَلْفَاظِهِ . وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : اِيَّاكُمْ اَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَاِنَّهُ اَشَدُّ وَاَعْجَبُ وَاَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ . وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ . وَكَانَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ اِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : اَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا اِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . وَكَانَ

ٱلحارثُ بنُ أبي شَمِر ٱلغسَّانيُّ يقولُ لكاتبهِ ٱلمُرقِش: إذا نزعَ بكَ ٱلكلامُ إلى ٱبتداء معنى غيرِ ما أنتَ فيهِ فصِل بينهُ وبينَ ما تتبعهِ من ٱلألفاظ فإنكَ إن مذقتَ ألفاظكَ بغيرِ ما يحسُنُ أن تمذقَ بهِ نفرت ٱلقلوبُ عن وعيها وملَّتهُ ٱلأسماعُ وٱستثقلتهُ ٱلرُّواة. وكانَ بزرجمهر يقولُ: إذا مدحتَ رجلًا وهجوتَ آخرَ فٱجعل بينَ ٱلقولينِ فصلًا حتى تعرفَ ٱلمدحَ من ٱلهجاءِ كما تفعلُ في كتبك إذا ٱستأنفتَ ٱلقولَ وأكملتَ ما سلفَ من ٱللفظ. وقالَ ٱلحسنُ بنُ سهلٍ لكاتبهِ ٱلحرَّانيّ: ما منزلةُ ٱلكاتبِ في قولهِ وفعلهِ. قالَ: أن يكونَ مطبوعًا محتنكًا بٱلتجربةِ سالمًا بحلالِ ٱلكتابِ وٱلسُّنةِ وحرامها بٱلدُّهورِ في تداولها وتصرُّفها وبٱلملوكِ في سِيَرِها وأيامها مع براعةِ ٱللفظِ وحُسنِ ٱلنسقِ وتأليفِ ٱلأوصالِ بمشاكلةِ ٱلٱستعارةِ وبشرحِ ٱلمعنى حتى يُنصب صورها. وبمقاطعِ ٱلكلامِ ومعرفةِ ٱلفصلِ من ٱلوصلِ وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ فهو كاتبٌ مجيدٌ. وقالَ ٱلمأمونُ: ما أتحفَّظُ من رجلٍ شيئًا كتحفُّظي عن ٱلفصلِ وٱلوصلِ في كتابهِ وٱلتخلُّصِ من ٱلمحلولِ إلى ٱلمعقودِ وإنَّ لكلِّ شيءٍ جمالًا وحليةُ ٱلكتابِ وجمالهُ إيقاعُ ٱلفصلِ وقعهُ وشحذُ ٱلفكرِ وإجالتها في لطفِ ٱلتخلُّصِ من ٱلمعقودِ إلى ٱلمحلولِ. (قلنا): ومعنى ٱلمعقودِ وٱلمحلولِ هاهنا هو أنكَ إذا ٱبتدأتَ مخاطبةً ثمَّ لم تنتهِ إلى موضعِ ٱلتخلُّصِ فما عقدتَ عليهِ كلامكَ سُمّي ٱلكلامُ معقودًا. وإذا شرحتَ ٱلستورَ وأبنتَ عن ٱلغرضِ ٱلمنزوعِ إليهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مُحَاوَلًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أُنْظُرْ سَدَّدَ ٱللّٰهُ رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدِرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدْتَ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَٱرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ أَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْحُلُولِ وَٱصْحَابِنَا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصِدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَبِئْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي أَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا أَنَّ أَخْيَرَ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوكَلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوكَلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ

الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاول

في خواص تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرُمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنُّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: اِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ

لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه. واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ومن اذاع معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقها ان تصونها عما يفسدها ويهجنها وعما تعود من اجله الى ان تكون اسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارها وترهن نفسك بملابستها وقضاء حقها. فكن في ثلاثة منازل فاول ذلك ان يكون لفظك رشيقا عذبا او فخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة اردت. والمعنى ليس يتضع ان يكون من معاني العامة. وانما مدار الامر على الشرف مع الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مداخلك وقدرك في نفسك على ان تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهاء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام. فقال له ابراهيم بن جبلة جعلت فداك انا احوج الى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذكرتُ لكَ اسعدكَ اللهُ إكثارَ النّاسِ قديمًا وحديثًا في وَصفِ البلاغةِ وتعريفهم القولَ في اقسامِها وانواعِها وانها الفاظٌ يُعبّرُ بها عن المعاني فمنها ما يكونُ في النّظمِ ومنها ما يكونُ في النّثرِ ويكونُ في المكاتبةِ والرّسائلِ والخُطبِ والتّشبيهاتِ والأوصافِ وفي السّؤالِ والجوابِ وغيرِ ذلكَ. فامّا بلاغةُ الشّعرِ فعذوبةُ الألفاظِ وتقريبُ المعاني واتّساقُ النّظمِ ورشاقةُ المعرضِ كقولِ النّابغةِ :

فإنّكَ كاللّيلِ الّذي هو مُدرِكي وإن خِلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

وقولِ امرئِ القيسِ في وصفِ فرسِهِ والتّشبيهِ (بقيدِ الأوابدِ). وقولِ الأعشى : (فهم ساكِنونَ والمنيّةُ تنطِقُ). ومنها ما يكونُ بإصابةِ المعنى وقرعِ الحجّةِ والأصلُ عندَهم فيها انها الفاظٌ يُعبّرُ بها عن المعاني فاحسنُها ما يزيدُ في كشفِ المعنى مع اختصارِهِ بأقلّ ما يُمكنُ من العبارةِ بأعذبِ الألفاظِ واحقّها على الأسماعِ واقربِها الى القلوبِ ثمّ ذكرتُ لكَ انّ البلاغةَ ليستْ مقصورةً على أُمّةٍ دونَ أُمّةٍ ولا على مَلِكٍ دونَ سُوقةٍ ولا على لسانٍ دونَ

لِسانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى اكثَرِ الأَلسِنَةِ فَهُم فِيها مُشتَرِكُونَ وَهِيَ مَوجُودَةٌ فِي كَلامِ اليُونانِيَّةِ وَكَلامِ العَجَمِ وَكَلامِ الهِندِ وَغَيرِهِمْ وَلٰكِنَّها فِي العَرَبِ اكثَرُ لِكَثرَةِ تَصَرُّفِها فِي النَّثرِ وَالنَّظمِ وَالخُطَبِ وَالكُتُبِ وَالسَّجعِ وَالمُزدَوجِ وَالرَّجزِ. وَهُم ايضًا مُتَفاوِتُونَ فِيها فَقَدْ يَكُونُ العَبدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ الأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُها. فَالبَلاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي اعرابِ البادِيَةِ دُونَ مُلُوكِها وَقَدْ يُحسِنُها الصَّبِيُّ وَالمَرأَةُ... قالَ الشَّيخُ ابو احمدَ: وَمِن عَجِيبِ ما فِيهِ وَبُعدِ تَنافِيهِ ان يَأتِيَ بَدَوِيٌّ أُمِّيٌّ جِلفٌ جافٍ فَيَبتَدِعَ بِفِكرِهِ وَقَرِيحَتِهِ المَعنَى البَدِيعَ وَالتَّشبِيهَ المُصِيبَ وَالسُّؤالَ اللَّطِيفَ وَالمَدحَ الشَّرِيفَ وَالغَزَلَ الرَّقِيقَ وَالهِجاءَ المُوجِعَ وَالذَّمَّ المُقلِقَ بِنَظمٍ عَجِيبٍ وَقَوافٍ مُنتَظِمَةٍ وَاوزانٍ تامَّةٍ وَاقسامٍ مُعدَّلَةٍ وَالفاظٍ فَصِيحَةٍ عَذبَةٍ يَشتَهِي سامِعُها ان يَحفَظَها ثُمَّ يَشتَهِي ان يُحاضِرَ اهلَ المُرُوّاتِ بِها مُمَثِّلًا او شاكِرًا او عاتِبًا او مُهَنِّئًا او مُعَزِّيًا فَلا يَزدادُ عَلَى الدَّهرِ الَّا نَضارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونَ مَن خَلا مِنها ناقِصَ الأَدَبِ وَالمَعرِفَةِ كَقَولِ امرِئِ القَيسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطبًا وَيابِسًا ... لَدَى وَكرِها العُنّابُ وَالحَشَفُ البالِي

وَكَقَولِ النّابِغَةِ: فَإِنَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدرِكِي. وَكَقَولِ الحُطَيئَةِ: لَا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللهِ وَالنّاسِ. ثُمَّ يَجتَهِدُ العارِفُ المُصِيبُ وَالعالِمُ الأَدِيبُ وَالرَّيِّضُ الحاذِقُ ان يُدرِكَ شَأوَهُ فَلا يُشَقُّ غُبارُهُ. قالَ: سُئِلَ بَعضُ العُلَماءِ عَن حَدِّ البَلاغَةِ فَقالَ:

التقرب من معنى البغية والتباعد من حشو الكلام والدلالة بقليل على كثير. قال الشيخ: واكثر ما عليه الناس في البلاغة انها الاختصار وتقريب المعاني بالالفاظ القصار والاقتصار على الاشارة الى معانيها والدلالة بالقليل على الكثير. وقد سئل بعضهم عن ذلك فقال: لمحة دالة. والى هذا ذهب اكثرهم في الحذف والاختصار وكذلك جعل امرؤ القيس احضار فرسه وسرعة لحاقه للصيد وان الاوابد لا تطمع في التخلص منه فجمع هذا في قوله: (قيد الاوابد). وكذلك قول زهير: (ان الجواد على علاته هرم). ففي قوله (على علاته) ما ينوب عن كل مانع كذلك قول الاعشى: فهم ساكنون والمنية تنطق وهذا يكثر وفي ما اوردناه بلاغ.... ولهذا وقع جعفر بن يحيى الى كتابه ليكن كلامكم في كتبكم مثل التوقيع يحض بذلك على غاية الحذف والاختصار. ومن هذا ان المأمون امر عمرو بن مسعدة الكاتب ان يكتب لرجل له به عناية الى بعض العمال بقضاء حقه وان يختصر كتابه ما امكنه حتى تكون كتابته في سطر واحد بلا زيادة فكتب عمرو: كتابي اليك كتاب واثق بمن كتب اليه معني بمن كتب له ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله. ومن هذا ما كتب الوليد بن عبد الملك بن مروان الى الحجاج وقد تلكأ عن بيعته: اما بعد فاني اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى فاذا اتاك كتابي فاعتمد على ايهما شئت والسلام. وساذكر في هذا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ اَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَاِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى اَنْفُسِهَا فِي ٱلْاِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِاَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَاَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ . فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ اَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللّٰهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ : اِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ اَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ اِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ اَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ اَمْرَهَا . وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ اِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ اَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا اَقْوَاتًا مِنَ ٱلْاَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَاَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي اَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللّٰهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى اَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا اَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ اِلَى ٱللّٰهِ وَيَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ اَنْشَاَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْاُمُورَ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ اَكْثَرَ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ ٱلْاِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ الْانْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ الْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ الَى الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَّلِبُ الرَّازِيُّ لِلْاسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرِ الْآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ الْالْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي اَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ اِلَى صَدَاقَتِهِ وَاَنَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَاَنَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِاَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ اِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ اَفْصَحَ وَاَحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ اَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي اَمْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ اَكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى اَنَّ بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا اَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ اِلَى شَابٍّ اَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ ارِسْطَاطَالِيسُ: اَلْحَاجَةُ اِلَى الْعَقْلِ اَقْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ اِلَى الْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: اَللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ اِلَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: اَلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسنُّ عَقلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلعَجَمِ وَلَاسِيَّا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى أَنَّ أَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلخَرَاجِ: ٱلخَرَاجُ عَمُودُ ٱلمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلعَدْلِ. وَوَقَّعَ أَيْضاً فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ أَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَأَخَّرَهُ: أَنْتَ مَاشٍ وَٱلأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلعَمَلُ بَاعٌ وَٱلعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَآيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ أَمْثَالَ ٱلعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ ٱلأُمَمِ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلعَرَبِ ٱلشِّعْرُ أَيْضاً عَلَى قَدِيمِ ٱلوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ أَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارٌ دُونَ ٱلفُرْسِ. وَكَانَ أَفْلَاطُونُ بُغِضَ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: إِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلمُزَوِّقَ مُصَوِّرٌ لِلبَصَرِ. فَأَمَّا ٱلفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ أَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلأَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلبَاهِلِيِّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلأُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلأَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلعَجَمِ تَوْقِيعُ أَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَحَطُوا فَرَفَعُوا إِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صاحبِ بيتِ المالِ: اِذا قحط المطر جادت سحائب الملكِ. ففرّق فيهم ما قاتَهم ومانَهم. وشُكي مثلُ ذلك الى قباذَ بن كسرى فوقّع ليكن بنا البرُّ للرعيّة والاحسانُ اليهم فانّي واياهم في نفعِ ذلك مستوون. ومدح رجلٌ من الخاصّةِ كسرى بن قباذَ بمدحٍ اطنب فيه واسهب وذهب كلَّ مذهبٍ وكان المدحُ في رقعةٍ. فوقّع فيها كسرى انّي للمدحِ مستصغرٌ لعلمي بأشياء قد مُدحت وكانت بأن تذمّ محقوقةً. ووقّع انوشروان في رقعةِ متنصّحٍ: ثمراتُ النصائحِ شكرُ الجوارحِ وخرج التوقيعُ الى وزيرٍ له امر له بجائزةٍ واثنى عليه وقال: قد جمعنا الى شكرِ اللسانِ شكرَ اليدِ وهو البذلُ. ووقّع كسرى في رقعةِ رجلٍ سأله فيها النقلةَ عن صناعتهِ الى صناعةٍ غيرها وكانت صناعتهُ خسيسةً فاختار صناعةً رفيعةً فوقّع في رقعتهِ. انا حاملٌ للرعيّةِ على لزومِ منازلهم وصنائعِهم ولنفسي على ما يُحملُ على اللزومِ لها

ومن حدِّ البلاغةِ جمعُ المعاني الكثيرةِ في الالفاظِ اليسيرةِ فقد سُئل خلفٌ الاحمرُ فقيل له: ما لنا نرى في الكلامِ القليلِ عدّةَ معانٍ. فقال: انَّ كلامَ العربِ اوعيةٌ والمعاني امتعةٌ فربّما جُعلت ضروبٌ من الامتعةِ في وعاءٍ واحدٍ... وحُكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريعَ دهرهِ بلاغةً في المكاتبةِ وجودةَ لسانٍ في المخاطبةِ انّه قال: اذا كان الايجازُ كافيًا كان التطويلُ عيًّا وان كان التطويلُ واجبًا كان التقصيرُ عجزًا. وحكى المفضّلُ قال: قلتُ

لِأَعرابِي: مَا ٱلبَلاغَةُ. فَقَالَ: ٱلإِيجَازُ مِن غَيرِ عَجزٍ وَٱلإِطنَابُ فِي غَيرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلجَاحِظُ يَحيَى بنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَستَدعِي مَعنًى مِن بُعدٍ. قَالُوا: وَٱلبَلِيغُ ٱلكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلأَلفَاظُ عِندَهُ عَزِيزَةً وَٱلمَعَانِي فِي نَفسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحصُورُ ٱلبَلَاغَةِ اَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحتَاجُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلمَعَانِي مِن اَجلِهَا. وَحَالًا يَحتَاجُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلأَلفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلأَلفَاظِ وَٱلمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَختَصُّ بِٱسمِهَا. وَلِلبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقصَدُ فِي ٱستِعمَالِهَا. اَحَدُهَا ٱلمُسَاوَاةُ وَهِيَ اَن يَكُونَ ٱللَّفظُ كَالقَالِبِ لِلمَعنَى لَا يَفضُلُ عَنهُ وَلَا يَنقُصُ مِنهُ. وَٱلثَّانِي ٱلإِشَارَةُ وَهُوَ اَن يَكُونَ ٱللَّفظُ مُشَارًا بِهِ اِلَى ٱلمَعنَى بِٱللَّمحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبدِيلُ وَهُوَ اِعَادَةُ ٱلأَلفَاظِ ٱلمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلمَعنَى ٱلوَاحِدِ بِعَينِهِ حَتَّى يَظهَرَ لِمَن لَم يَفهَمهُ وَيَتَوَكَّدَ عِندَ مَن فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِن هٰذِهِ ٱلمَذَاهِبِ مَوطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقتٌ لَا يَصلُحُ فِيهِ غَيرُهُ وَسَاَذكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلفُصُولِ ٱلقِصَارِ مِن كَلَامِ ٱلعَرَبِ وَغَيرِهِم مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلفِقَرَ ٱلمُختَارَةَ وَٱلمَعَانِيَ ٱلمَجمُوعَةَ بِٱللَّفظِ فَمِن ذٰلِكَ قَولُهُم: قِيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ مَا يُحسِنُهُ. وَكَقَولِ اَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ عَلِيِّ بنِ اَبِي طَالِبٍ سِتُّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ اِلَيهَا اَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنهَا بِأَلفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنهُ كَثِيرٌ مِن اَصحَابِهِ وَمِنَ ٱلأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلأُولَى قَولُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ مَا يُحسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ اَعدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقتَضِيكَ مَا عَوَّدتَهُ.

ٱلرَّابِعَةُ : رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ. ٱلْخَامِسَةُ: لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ. ٱلسَّادِسَةُ : ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ. وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ: ٱلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ. وَقَوْلُهُمْ: إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ. رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ. رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ. ٱلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ. ٱلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ. مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ. وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا. وَقَالَ آخَرُ: يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ. عُوجُ ٱللَّبَانِ طَوْعُ ٱلْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُوجُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ. وَقَوْلُهُمْ :ٱلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكِدْيَةَ. فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي. وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ. دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ. ٱلْبَادِئُ أَظْلَمُ. حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ. مَنْ عَزَّ بَزَّ. سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ. سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ: سَلَامَتِي. ٱلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ. ٱلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ. اِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ. مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ. عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ. مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ. سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. عِنْدَ صَفْوِ

ٱلعَيْشِ يُكَدِّرُ. ٱلمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلفُصُولِ ٱلكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَجِيُّ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: أَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلفَعَالِ عَلَى ٱلمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلمَقَالِ عَلَى ٱلفَعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلعَبَّاسِ بْنِ ٱلحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِانْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ أَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ إِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدَرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ : ٱلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَإِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصُّولِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اجناسُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنظُرُ فِيهَا ٱلْخِطَابَةُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطَبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ إِمَّا مُنَاظِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا ٱلْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ إِمَّا انْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْانسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

الرَّئِيسُ وَالحَاكِمُ فِي الأُمُورِ الكَائِنَةِ هُوَ الَّذِي يَنصِبُهُ الرَّئِيسُ (مِثْلُ القَاضِي فِي مُدُنِنَا هذهِ وهِيَ مُدُنُ الإسلَامِ) . وَامَّا المُنَاظِرُ فَإنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ المَلَكَةِ الخُطبِيَّةِ فَإنَّ اجنَاسَ القَولِ الخُطبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجِرِيٌّ وَتَثبِيتِيٌّ

فَامَّا الضَّمِيرُ المَشُورِيُّ فَمِنهُ اِذنٌ وَمِنهُ مَنعٌ وَذَلِكَ انَّ كُلَّ مَن يُشِيرُ اِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِن اَهلِ المَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ اَو عَلَى جَمِيعِ اَهلِ المَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُم فَإنَّمَا يُشِيرُ ابَدًا بِقَولٍ هُوَ اِذنٌ اَو مَنعٌ . وَامَّا القَولُ المُشَاجِرِيُّ فَهُوَ ايضًا صِنفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ الشِّكَايَةِ . وَامَّا القَولُ التَّثبِيتِيُّ فَهُوَ ايضًا صِنفَانِ اِمَّا مَدحٌ وَاِمَّا ذَمٌّ وَالزَّمَانُ الخَاصُّ بِالأَشيَاءِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ المُستَقبِلُ لِأَنَّهُ اِنَّمَا يُشِيرُ اِنسَانٌ عَلَى اِنسَانٍ بِاشيَاءَ مَعدُومَةٍ . وَالزَّمَانُ الخَاصُّ بِالأَشيَاءِ المُشَاجِرِيَّةِ هُوَ الزَّمَانُ المَاضِي لِأَنَّهُ اِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ الأَشيَاءِ الَّتِي قَد وَقَعَت وَاِن تُشُكِّيَ مِن اُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ المُشتَكَى بِهِ فَإنَّمَا تِلكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ الإشَارَةِ بِالنَّافِعِ فِي ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ قَد يَعرِضُ اَن تَكُونَ المَشُورَةُ فِي الأَشيَاءِ الَّتِي قَد كَانَت لَكِن مِن جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنهَا فَمَتَى كَانَتِ الشَّكوَى فِي شَيءٍ وَاحِدٍ لَا مِن اَجلِ غَيرِهِ فَإنَّمَا تَكُونُ ابَدًا فِي الشَّيءِ الَّذِي قَد وَقَعَ . وَامَّا الأَشيَاءُ التَّثبِيتِيَّةُ فَإنَّ اَولَى الأَزمِنَةِ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ الحَاضِرُ اعنِي القَرِيبَ مِنَ الآنِ فَإنَّ النَّاسَ اِنَّمَا يُمدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِالأَشيَاءِ المَوجُودَةِ فِي حِينِ المَدحِ وَحِينِ الذَّمِّ فِي المَمدُوحِ وَالمَذمُومِ وَرُبَّمَا

مُدح بَعضُهم عَلى طَرِيقِ ٱلحِيلَةِ فِي ٱستِكثارِ فضائِلِ ٱلمَمدُوحِ وَمَذامِهِ بِٱلأَشياءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُها مِنهُ أَو يُرجَى حُدُوثُها مِنهُ فَيَخلِطُونَ مَعَ ٱلمَدحِ ٱلإِشارَةَ عَلى ٱلمَمدُوحِ بِفِعلِ تِلكَ ٱلأَشياءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسهِ)

وَأَمّا ٱلغاياتُ مِن هٰذِهِ ٱلأَقاوِيلِ فَهِيَ ثَلاثُ غاياتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلاثَةِ ٱلأَقاوِيلِ أَمّا ٱلقَولُ ٱلمُشِيرُ فَغايَتُهُ ٱلنّافِعُ وَٱلضّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّما يَأذَنُ فِي ٱلنّافِعِ أَو فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنفَعُ وَيَمنَعُ مِنَ ٱلضّارِّ أَو مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمّا ٱلقَولُ ٱلمُشاجِرِيُّ فَغايَتُهُ ٱلعَدلُ وَٱلجَورُ. وَأَمّا ٱلقَولُ ٱلمُثبِتُ فَغايَتُهُ ٱلفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱستَعمَلَ واحِدٌ مِن هٰذِهِ غايَةَ صاحِبِهِ فَلَيسَ عَلى ٱلقَصدِ ٱلأَوَّلِ بَل مِن أَجلِ ٱلغايَةِ ٱلخاصَّةِ بِهِ. مِثالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلمُشِيرَ قَد يُقنِعُ أَنَّ هٰذا عَدلٌ أَو جَورٌ لِيُشِيرَ بِٱلإِذنِ فِيما يَكُونُ عَنِ ٱلعَدلِ مِنَ ٱلمَنفَعَةِ وَبِٱلمَنعِ عَن ما يَكُونُ عَلى طَرِيقِ ٱلجَورِ لا فِي ٱلجَورِ مِنَ ٱلمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَد تُستَعمَلُ ٱلفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعنِي مِن جِهَةِ ما يَلحَقُها مِنَ ٱلنّافِعِ وَٱلضّارِّ. وَإِذا كانَت هٰذِهِ ٱلغاياتُ ٱلثَّلاثُ تَخُصُّ كُلَّ واحِدَةٍ مِنها واحِدًا مِن هٰذِهِ ٱلأَقاوِيلِ أَعنِي مِن جِهَةِ ما هِيَ غاياتٌ عَلى ٱلقَصدِ ٱلأَوَّلِ فَٱلحُدُودُ ٱلمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ واحِدٍ مِن هٰذِهِ ٱلأَقاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ ٱلْجَوْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي ٱلشَّرِيعَةِ . وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَمْتَعِضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ . فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لَكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَارِكُ فِيهَا وَتُشَارِكُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدَّمَاتٌ وَمُقَدَّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ نُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجَرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدَّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذَلِكَ إِمَّا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اعْنِي انَّهُ اعْظَمُ وَاشْرَفُ اوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ انَّهُ يَنْبَغِي انْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا انَّ ٱلْخَيْرَ اوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ اوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهَذِهِ هِيَ جَمِيعُ انْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَيَنْبَغِي انْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاوَّلُ مَا يَجِبُ انْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ امْرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لَكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ انْ تَكُونَ اوْ انْ لَا تَكُونَ فَامَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا ايْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَإِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي إِلَيْنَا انْ تَكُونَ اوْ انْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْأَشْيَاءُ

أَلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِنْ قِبَلِ ٱلْاخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ . وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ أَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَأَفْعَالِنَا عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلِاتِّفَاقِ وَأَقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ أَوَّلًا هَلِ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرَوِّي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي أَيِّ ٱلْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْأُمُورُ ٱلِاضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وُجُودُهَا وَإِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ أَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا أَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا أَصْدَقُ وَأَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ . وَذٰلِكَ أَنَّا هٰهُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْأَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي أَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَعْنِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ

المنطق ومن علم السياسة الخلقية وان فيها اشياء جدلية او شبيهة بالاشياء الجدلية وايضا سوفسطائية او شبيهة بالسوفسطائية . والاشياء التي في صنائع كثيرة انما تكون اجزاء لصناعة واحدة متى اخذ جميعها بالجهة والحال التي بها تكون تلك الاشياء الكثيرة متعاونة ونافعة في غرض تلك الصناعة الواحدة وطرح منها الاحوال التي بها تختلف اعني الاشياء التي ليست تكون بها معنية في غرض تلك الصناعة الواحدة . واذا كان ذلك كذلك فالاشياء الخلقية انما صارت جزءا من هذه الصناعة من حيث هي معدة نحو الكلام والمخاطبة وهي من صناعة السياسة من حيث هي احد الموجودات التي نقصد معرفتها وعلمها . والاشياء الجدلية والسوفسطائية انما صارت جزءا من هذه الصناعة من حيث انه الذي تستعمل منها هذه الصناعة هو سابق المعرفة الاولى للانسان لا ما هو بعيد عن معرفة الجمهور مثل انها انما تستعمل من القياس القياس المعروف عند الجمهور وهو التمثيل والضمير وكذلك الحال في الامور السوفسطائية انما تستعمل منها ما جرت العادة باستعماله عند الجمهور مثل مواضع الاطلاق والتقييد وغير ذلك مما يستعمله بطباعهم الجمهور فهي انما تخالف هذه بمقدار النظر وقد تخالف ايضا بمقدار النظر هذه الصناعة في الامور الارادية النظر الذي للعلم السياسي فيها اعني انها انما تنظر في الامور الارادية النظر الذي هو في سابق المعرفة للانسان وتدع تقصي النظر في ذلك

لِلعِلمِ ٱلسِّياسِيِّ مِنها. وَٱلأُمورُ ٱلَّتي يُشيرُ بِها ٱلخَطيبُ مِنها ما يُشيرُ بِهِ عَلى أَهلِ مَدينَةٍ بِأَسرِهِم وَمِنها ما يُشيرُ بِهِ عَلى واحِدٍ مِن أَهلِ تِلكَ ٱلمَدينَةِ أَو جَماعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) : فَأَمّا ٱلأَشياءُ ٱلَّتي تَكونُ فيها ٱلمَشورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظامِ مِن أُمورِ ٱلمُدُنِ فَهِيَ قَريبَةٌ مِن أَن تَكونَ خَمسَةً . أَحَدُها ٱلإِشارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَموالِ لِلمَدينَةِ . وَٱلثّاني ٱلإِشارَةُ بِٱلحَربِ أَوِ ٱلسِّلمِ . وَٱلثّالِثُ ٱلإِشارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمّا يَرِدُ عَلَيهِ مِن خارِجٍ . وَٱلرّابِعُ ٱلإِشارَةُ بِما يَدخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ عَنهُ . وَٱلخامِسُ ٱلإِشارَةُ بِٱلتِزامِ ٱلسُّنَنِ . فَٱلَّذي يُشيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتاجُ أَن يَعرِفَ ثَلاثَةَ أُمورٍ أَحَدُها أَن يَعرِفَ غَلّاتِ ٱلمَدينَةِ ما هِيَ أَعني هَل هِيَ نَباتٌ أَو حَيَوانٌ أَو مَعدِنٌ أَو جَميعُ هٰذِهِ أَوِ ٱثنانِ مِنها كَيما إِن نَقَصَ مِنَ ٱلفاضِلِ مِنها لِلعُدَّةِ شَيءٌ أَشارَ بِٱلزِّيادَةِ فيها. وَٱلثّاني أَن يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقاتِ أَهلِ ٱلمَدينَةِ كُلِّها. وَٱلثّالِثُ أَن يَعرِفَ أَصنافَ ٱلنّاسِ ٱلَّذينَ فِي ٱلمَدينَةِ فَإِن كانَ فيها إِنسانٌ بَطّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ اَشَارَ بِاَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يَنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالَ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثُغُرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ اَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَاْخُذُ مِنْ هَا هُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْاِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِزَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حَالَ ٱلْاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ ٱلْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفْضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفْضَتْ اِلَى ٱلظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفْظُ ٱلْبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ اِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفُ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ ٱلْحِفْظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

أعني ٱلَّتِي ٱلْمَنْفَعَةُ بِحِفْظِهَا أَكْثَرُ . فَمَنْ عَرَفَ هٰذَا فَقَدْ يُمْكِنُهُ أَنْ يُشِيرَ بِٱلْحِفْظِ وَأَنْ يَكُونَ خَبِيرًا بِٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا. وَأَمَّا ٱلْإِشَارَةُ بِٱلْقُوتِ وَسَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلضَّرُورِيَّةِ ٱلَّتِي تَحْتَاجُهَا ٱلْمَدِينَةُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ فِيهِ أَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي ٱلْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمِ ٱلْحَاضِرُ ٱلْمَوْجُودُ فِي ٱلْمَدِينَةِ مِنْ ذٰلِكَ وَهَلْ أُدْخِلَ ٱلْكَافِي مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَأُحْرِزَ أَمْ لَمْ يُدْخَلْ. وَمَا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَخْرُجَ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ ٱلْفَاضِلُ عَنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ. وَمَا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصُرَ عَنِ ٱلضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ مَشُورَتُهُ وَمَا يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ ٱلْمَرْءُ أَنْ يَحْفَظَ أَهْلَ مَدِينَتِهِ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي ٱلْمَالِ ٱلَّذِينَ مِنْ أَجْلِ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ. وَٱلْحَافِظُ لِلْمُدُنِ يَحْتَاجُ بِٱلْجُمْلَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهِ لَهَا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَٱلْإِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَسِيرٍ فِي أَمْرِ ٱلْمُدُنِ فَإِنَّ ٱلْمُدُنَ إِنَّمَا تَسْلَمُ وَيَلْتَئِمُ وُجُودُهَا بِٱلسُّنَنِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِوَاضِعِ ٱلسُّنَنِ أَنْ يَعْرِفَ كَمْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَأَيُّ سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَأَيُّ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَأَيُّ نَاسٍ تَصْلُحُ بِهِمْ سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَأَيُّ نَاسٍ لَا تَصْلُحُ بِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي يَخَافُ أَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا ٱلْفَسَادُ عَلَى ٱلْمَدِينَةِ. وَذٰلِكَ إِمَّا مِنَ ٱلْأَضْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَإِمَّا مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ فَإِنَّ سَائِرَ ٱلْمُدُنِ مَا عَدَا ٱلْمَدِينَةَ ٱلْفَاضِلَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قِبَلِ ٱلسُّنَنِ

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلأَوْجهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلأَعْدَاءِ وَٱلأَوْجهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلأَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَإِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلأُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلآنَ فِي ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلإِخْبَارِ عَنِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طبيعته بل انما عند كل واحد منهم وجوده فقط. واذا سئل واحد واحد منهم عما يدل عليه اسمه اجاب فيه بجواب غير الجواب الذي يجيب فيه الآخر. وانما يؤثره الجميع لمكان هذا الانفعال الموجود له بالطبع عند الجميع وهذا الخير في الجملة هو صلاح الحال واجزاء صلاح الحال. ولذلك فقد ينبغي ان نفصل اولا ما هو صلاح الحال بقول عام ثم نفصل اجزاءه ونخبر عن اضدادها وعن الاشياء التي يكون فيها الاذن والمنع وهي النافعة في صلاح الحال او الانفع فيه او الضارة فيه او الاضر فيه فان بهذا يتم لنا القول في الاشياء التي منها تلتئم الاقاويل المشورية المستعملة مع جميع الناس

(قال) والذين تكلموا في هذه الصناعة فلم يتكلموا من هذه الاشياء الا فيما يجري مجرى الامور الكلية مثل انهم قالوا: ينبغي للخطيب ان يعظم الشيء الصغير اذا اراد تفخيمه ويصغر الشيء الكبير اذا اراد تهوينه. وينبغي له ان لا يأذن في الاشياء التي تفسد صلاح الحال وفي الاشياء التي تعوق عن صلاح الحال او تتجاوز صلاح الحال الى ضده. ولم يقولوا ما هي الاشياء التي بها يعظم الشيء او يصغر ولا ما هي الاشياء التي توجب اختلال صلاح الحال او تعوقه او تتجاوزه الى ضده

(قال) فاما صلاح الحال فهو حسن الفعل مع فضيلة وطول من العمر وحياة لذيذة مع السلامة والسعة في المال وحسن الحال

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْإِخْوَانِ
وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ
مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلنَّجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ
وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ
وَٱلْبِرِّ فَإِنَّهُ هٰكَذَا أَحْرَى أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مُكْتَفِيًا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ
ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ
وَٱلْإِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ
ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً
فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَأَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْأُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يكونوا حكاماً ولا رؤساء. فاما النظر في الحسب هل هو من الرجال فقط او من النساء فالظاهر من ذلك والمتفق عليه عند الجميع انه يكون اتم اذا كان من كليهما. وينبغي ان يستعمل الخطيب من ذلك المشهور في امة امة. ومن شروط الحسب ان يكون الرؤساء والاحرار من اولئك القوم الذين شهروا بالفضيلة واليسار وغير ذلك من المكرمات لم ينقطع وجودهم في القوم الذين هو منهم الى وجوده هو بل يوجد في ذلك الجنس ابداً اشياخ بهذه الصفة يخلفهم غلمان في تلك الخصال. فانه ان انقطع الشرف في ذلك الجنس الذي هو منهم لم يكن حسيباً وان لم ينقطع منهم فهو حسيب وان انقطع فيمن ولد منهم. واما حسن الحال بالاولاد وكثرتهم فهو مما لا خفاء به وحسن الحال بالاولاد المشترك للجميع هو كثرة الفتيان وصلاحهم في فضائل الجسد وفضائل النفس. اما في فضائل الجسد فاربع احداها الجزالة وهي ان تكون خلقهم خلقاً طبيعية يفوقون فيها كثيراً من الناس. والثانية الجمال. والثالثة الشدة. والرابعة البطش فبهذه الاربع يكون الغلمان صالحين في فضائل اجسامهم. واما في فضائل النفوس فيكونون باثنتين بالعفاف والشجاعة. واما ما قد يكون به صلاح حال بعض الناس فكثرة الاولاد من الذكور والاناث. وصلاح الحال بالاناث ايضاً يكون بفضيلتين في الجسد والنفس. اما في الجسد فاثنتان العبالة وهو عظم الاعضاء العظم الطبيعي

وكثرة اللحم الطبيعي لا اللون والجمال . واما في النفس فثلاث العفاف وحب الالفة وحب الكد فان بهذه الفضائل يكمل المنزل وهذه الفضائل التي قلنا سبيلها ان توجد في النساء كلهن اللاتي من نسب ذلك الرجل على العموم وفي الرجال كلهم على العموم وفي اولاده الذكور خاصة اذ كان الولد به الصق . وقد ينبغي للخطيب ان ينظر هل الفضائل التي هو منها هي هذه الفضائل عندهم اعني في اولادهم ام ليس هي هذه فان كثيرا من الامم يربون اولادهم الذكور والاناث بالزينة والسمن وهؤلاء يقول فيهم ارسطو انه قد فاتهم النصف من صلاح الحال بالابناء . فاما اجزاء اليسار فبكثرة الدنانير والارضين والعقار والاثاث والامتعة والمواشي وجميع الاشياء المختلفة في النوع والجنس . وكل ذلك اذا كانت هذه الاشياء في حفظ ومع حرية وان يكون فيها متمتعا اي ملتذا لا حافظا لها فقط او منميا

(قال) ومن الامور النافعة في اليسار والفاعلة له الاشجار المثمرة والغلات من كل شيء . واللذيذ من هذه هو ما يجنى بغير تعب ولا نفقة وحد الحفظ والاحراز للمال هو ان يكون في الموضع الذي لا يتعذر منه عليه وان يكون بالحال التي يمكن ان ينتفع بها مثل ان اذا كانت ارضا الا تكون سبخة وان كان فرسا الا يكون جموحا . وحد الحرية في المال ان يكون اليه التصرف في المال بالاعطاء والبيع والشراء واما التنعم بالمال

فهو استعماله على طريق التلذذ به . وانما اشترط في الغنى هذا الشرط لانه ان يكون الغنى في استعمال المال احرى منه ان يكون في اقتنائه لان الاقتناء هو فاعل الغنى واما الاستعمال فهو الغنى بعينه واما حسن الفعل على الرأي الصواب فهو الذي يظنه الكل فاضلا وهو الذي يقتني الشيء الذي يتشوقه الاكثر لا محالة او الاخيار من الناس وذوو الكيس والفطنة

(قال) واما الكرامة فانها في زماننا هذا للمعتني بحسن الفعل واكرام الناس الذين لهم العناية الحسنة بهم هي مكافاة على طريق العدل والحق اذ كانت هذه الافعال ليس تكافئها الدنانير والدراهم. وليس يكرم الذين لهم العناية الحسنة بالناس فقط بل والذين يستطيعون ان تكون لهم العناية الحسنة اعني الذين لهم قوة على ذلك وان لم يفعلوا ذلك في حال الاكرام والعناية بالناس التي تستوجب الكرامة هي العناية تخلصهم من الشرور التي ليس التخليص منها بهين او افادتهم الخيرات التي ليس افادتها بالسهل. وهذه الافعال الجميلة هي تكون عن الغنى او السلطان او ما اشبه ذلك مما يكون للانسان به القدرة على امثال هذه الافعال وقد يكرم كثير من الناس على خيرات يسيرة لكنها تكون كثيرة بالاضافة الى ذلك الزمان والى تلك الحال . فكان الكرامة على الاشياء اليسيرة هي بالعرض اي من جهة ما عرض لتلك الاشياء ان تكون كثيرة بالاضافة

إلى ذلك الوقت او الحال. وأما الاشياء التي تكون بها الكرامة فمنها مشتركة لجميع الامم ومنها خاصة. فالخاصة مثل الذبائح والقرابين التي كانت قد جرت عادة اليونانيين ان يكرموا بها الاموات. ومنها عامة وهي المراتب في المجالس والمسارعة الى اقواله وترك مخالفته والهدايا التي توجب المحبة والقرب. فان الهدية جمعت امرين بذل المال والكرامة ولذلك كانت مستحبة لجميع الناس وكل انسان يجد فيها ما يتشوقه وذلك ان الناس ثلاثة اصناف اما صنف يحب الكرامة واما صنف يحب المال واما صنف يجمع الامرين. والهدية قد جمعت متشوق هذه الاصناف الثلاثة

(قال) واما فضيلة الجسد فالصحة وذلك ان يكونوا عريين من الاسقام البتة وان يستعملوا ابدانهم لان من لا يستعمل صحته فليس تغبط نفسه بالصحة اي ليس هو حسن الحال بها وهو بعيد من جميع الافعال الانسانية او من اكثرها

(قال) واما الحسن فانه مختلف باختلاف اصناف الاسنان فحسن الغلمان وجمالهم هو ان تكون ابدانهم وخلقهم بهيئة يعسر بها قبولهم الآلام والانفعال اي لا يكونون غير محتملين للاذى وان يكونوا بحيث يستلذ ان ينظر اليهم عند الجري والغلبة

(قال) ولذلك ما يرى الناس الغلمان الذين هم مهيأون نحو الخمس

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِرَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجَوْدَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمْكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذْقِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا ٱلْخَمْسِ ٱللُّعَبِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمْهِلَ إِلَى مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمْرِ مَعَ ٱلْأَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اعمارهم مع انهم مسقامون . وتصحيح هذا هو للعلم الطبيعي وليس في تصحيحه في هذا العلم منفعة والخطيب انما يكتفي من ذلك بالشيء الظاهر

(قال) واما كثرة الخلة وصلاح حال الانسان بالاخوان فذلك ايضا غير خفي اذا حد ما هو الخليل والصاحب . وهو ان يكون كل واحد منهما يفعل الخير الذي يظن انه ينفع به الآخر لا الخير الذي ينتفع به في نفسه فقط . واذا كانت الخلة والصحبة هي هذه فبين ان المرء يكون صالح الحال بالاخوان الكثيرة

(قال) واما صلاح الجد فهو ان يكون الاتفاق لانسان ما علة لوجود الخير له . وذلك اما من الخيرات الموجودة في ذاته واما من الخيرات الموجودة له من خارج . وعلة الاتفاق قد تكون الصناعة وقد تكون الطبيعة وهو الاكثر . فمثال ما يكون عن الاتفاق الطبيعي ان يولد الانسان ذا قوة وهيئة يعسر بها قبوله الأمور الواردة عليه من خارج . فاما ان يكون الانسان صحيحا فقد يكون سببه الاتفاق الطبيعي مثل ان يولد صحيحا . وقد يكون الاتفاق الصناعي مثل ان يسقى سما فيبرأ من مرض كان به . واما الجمال والصحابة فعلتها الاتفاق الصناعي والطبيعي وجملة الأمر ان الخيرات التي سببها الجد الذي هو حسن الاتفاق هي الخيرات التي يكون المرء مغبوطا بها محسودا عليها . وقد يكون

ٱلْجِدُّ عِلَّةُ لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِٱلْاضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَةِ إِلَى ٱلْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ خَيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ انْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقْفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ احَدَهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ انْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجِدِّ. وَامَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَاوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ انْ يَكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاهِ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ

البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بِعَونَةِ اللهِ تَعالَى فِي هٰذِهِ ٱلمَقالَةِ بِذِكرِ ٱلفَرقِ بَينَ ٱلخَيرِ وَٱلسَّعادَةِ بَعدَ انْ نَذكُرَ الفاظَ ارِسْطاطاليسَ اقتِداءً بِهِ وَتَوفِيقَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلخَيرَ عَلَى ما حَدَّهُ وَٱستَحسَنَهُ مِن آراءِ ٱلمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلمَقصُودُ مِنَ ٱلكُلِّ وَهِيَ ٱلغايَةُ ٱلأَخِيرَةُ وَقَد يُسمَّى ٱلشَّيءُ ٱلنّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلغايَةِ خَيرًا فَأَمّا ٱلسَّعادَةُ فَهِيَ ٱلخَيرُ بِالإِضافَةِ إِلَى صاحِبِها وَهِيَ كَمالٌ لَهُ فَالسَّعادَةُ إِذًا خَيرٌ ما. وَقَد تَكُونُ سَعادَةُ ٱلإِنسانِ غَيرَ سَعادَةِ ٱلفَرَسِ وَسَعادَةُ كُلِّ شَيءٍ فِي تَمامِهِ وَكَمالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَأَمّا ٱلخَيرُ ٱلَّذِي يَقصِدُهُ ٱلكُلُّ بِالشَّوقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقصَدُ وَلَها ذاتٌ وَهُوَ ٱلخَيرُ ٱلعامُّ لِلنّاسِ مِن حَيثُ هُم ناسٌ فَهُم بِأَجمَعِهِم مُشتَرِكُونَ فِيها. فَأَمّا ٱلسَّعادَةُ فَهِيَ خَيرٌ ما لِواحِدٍ واحِدٍ مِنَ ٱلنّاسِ فَهِيَ إِذًا بِالإِضافَةِ لَيسَ لَها ذاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَختَلِفُ بِالإِضافَةِ إِلَى قاصِدِيها. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلخَيرُ ٱلمُطلَقُ غَيرَ مُختَلِفٍ فِيهِ وَقَد يُظَنُّ بِالسَّعادَةِ أَنَّها تَكُونُ لِغَيرِ ٱلنّاطِقِينَ فَإِنْ كانَ ذٰلِكَ فَإِنَّما هِيَ ٱستِعداداتٌ فِيها لِقَبُولِ تَماماتِها وَكَمالاتِها مِن غَيرِ قَصدٍ وَلا رَوِيَّةٍ وَلا إِرادَةٍ وَتِلكَ ٱلاستِعداداتُ هِيَ ٱلشَّوقُ أَو ما يَجرِي مَجرَى ٱلشَّوقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلإِرَادَةِ. فَامَّا مَا يَاتِي لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي انْ يُسَمَّى بَخْتًا اوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ ايضًا. وَٱنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِانَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطْلِقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا اوَّلٌ فِي ٱلْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ انَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلإِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا. وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ. وَلٰكِنْ يَجِبُ انْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْاخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ افْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ ايضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى اعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

ٱلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ ارِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

ممدوحة ومنها ما هي بالقوة كذلك وما هي نافعة فيها . فالشريفة منها هي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفاً وهي الحكمة والعقل . والممدوحة منها مثل الفضائل والافعال الجميلة الارادية . والتي هي بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الاشياء التي تقدمت . والنافعة هي جميع الاشياء التي تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هي غايات ومنها ما هي ليست بغايات . والغايات منها ما هي تامة ومنها ما هي غير تامة . فالتي هي تامة كالسعادة وذلك انا اذا وصلنا اليها لم نحتج ان نستزيد اليها شيئاً آخر . والتي هي غير تامة فكالصحة واليسار من قبل انا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نستزيد فنقتني اشياء اخر . واما التي ليست بغاية البتة فكالعلاج والتعلم والرياضة . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو مؤثر لاجل ذاته ومنها ما هو مؤثر لاجل غيره ومنها ما هو مؤثر للامرين جميعاً ومنها ما هو خارج عنهما . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو خير على الاطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات التي تتفق لبعض الناس وفي وقت دون وقت وايضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الاوقات ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولا من جميع الوجوه . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في الكيفية وفي سائر المقولات فمنها كالقوى والملكات ومنها

كالأحوالِ ومنها كالأفعالِ ومنها كالغاياتِ ومنها كالموادِ ومنها كالآلاتِ . ووجودُ الخيراتِ في المقولاتِ كلها يكونُ على هذا المثالِ اما في الجوهرِ اعني ما ليسَ بعرضٍ فاللهُ تباركَ وتعالى هو الخيرُ الاولُ فانَّ جميعَ الاشياءِ تتحركُ نحوهُ بالشوقِ اليهِ ولانَّ مآلَ الخيراتِ الالهيةِ من البقاءِ والسرمديةِ والتمامِ منهُ . واما في الكميةِ فالعددُ المعتدلُ والمقدارُ المعتدلُ واما في الكيفيةِ فكاللذاتِ . واما في الاضافةِ فكالصدقاتِ والرئاساتِ . واما في الاينِ والمتى فكالمكانِ المعتدلِ والزمانِ الانيقِ البهجِ . واما في الوضعِ فكالقعودِ والاضطجاعِ والاتكاءِ الموافقِ . واما في الملكِ فكالاموالِ والمنافعِ . واما في الانفعالِ فكالسماعِ الطيبِ وسائرِ المحسوساتِ المؤثرةِ . واما في الفعلِ فمثلُ نفاذِ الامرِ ورواجِ الفعلِ . (وعلى جهةٍ اخرى) الخيراتُ منها معقولاتٌ ومنها محسوساتٌ

(واما السعادةُ) فقد قلنا انها خيرٌ ما وهي تمامُ الخيراتِ وغاياتها والتمامُ هو الذي اذا بلغنا اليهِ لم نحتج معهُ الى شيءٍ آخرَ فلذلكَ نقولُ انَّ السعادةَ هي افضلُ الخيراتِ ولكنا نحتاجُ في هذا التمامِ الذي هو الغايةُ القصوى الى سعاداتٍ اُخرَ وهي التي في البدنِ والتي خارجَ البدنِ . (وارسطاطاليسُ) يقولُ انهُ يعسرُ على الانسانِ ان يفعلَ الافعالَ الشريفةَ بلا مادةٍ مثلِ اتساعِ اليدِ وكثرةِ الاصدقاءِ وجودةِ البختِ

(واما اقسامُ) السعادةِ على مذهبِ هذا الحكيمِ فهي خمسةٌ

اقسام : (احدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج اعني ان يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . (والثاني) في الثروة والاعوان واشباهها حتى يتسع لان يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسي منه اهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه . (والثالث) ان تحسن احدوثته في الناس وينشر ذكره بين اهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف . (والرابع) ان يكون منجحا في الامور وذلك اذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه . (والخامس) ان يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه بريئا من الخطإ والزلل جيد المشورة في الآراء . فمن اجتمعت له هذه الاقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك . (واما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وافلاطون واشباههم فانهم اجمعوا على ان الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في اول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) . واجمعوا على ان هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيماً نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ . وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءاً مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَٰلِكَ ٱضْطُرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ ٱلْبَدَنِ أَيْضاً أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ . وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يُحَقِّرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِأَنَّهُمْ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَحْصُلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيباً

وَلِهَذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذَٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذَٰلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنجاساتِ ٱلبدنِ وَضروراتهِ وحاجاتِ ٱلإنسانِ بهِ وَٱفتقاراتهِ إلى ٱلأشياء ٱلكثيرةِ فليستْ سعيدةً على ٱلإطلاقِ. وأيضاً لمّا رأوها لا تكملُ لوجودِ ٱلأشياء ٱلعقليةِ لأنها لا تستترُ عنها بظلمةِ ٱلهيولى أعني قصورها ونقصانها ظنّوا أنها إذا فارقتْ هذهِ ٱلكدورةَ فارقتِ ٱلجهالاتِ وصفتْ وخلصتْ وقبلتِ ٱلإضاءةَ وٱلنورَ ٱلإلهيَّ أعني ٱلعقلَ ٱلتامَّ. ويجبُ على رأيِ هؤلاء أنَّ ٱلإنسانَ لا يسعدُ ٱلسعادةَ ٱلتامةَ إلا في ٱلآخرةِ بعدَ موتهِ. وأمّا ٱلفرقةُ ٱلأُخرى فإنها قالتْ إنّهُ من ٱلقبيحِ ٱلشنيعِ أنْ يُظنَّ أنَّ ٱلإنسانَ ما دامَ حيّاً يعملُ ٱلأعمالَ ٱلصالحةَ ويعتقدُ ٱلآراءَ ٱلصحيحةَ ويسعى في تحصيلِ ٱلفضائلِ كلِّها لنفسهِ أوّلاً ثمَّ لأبناء جنسهِ ثانياً ويخلفُ ربَّ ٱلعزّةِ تقدّسَ ذكرُهُ في خلقهِ بهذهِ ٱلأفعالِ ٱلمرضيّةِ فهو شقيٌّ ناقصٌ حتّى إذا ماتَ وعدمَ هذهِ ٱلأشياء صارَ سعيداً تامَّ ٱلسعادةِ وأرسطاطاليسُ يحقّقُ بهذا ٱلرأيِ. وذلكَ أنّهُ تكلّمَ في ٱلسعادةِ ٱلإنسانيّةِ وٱلإنسانُ هوَ ٱلمركّبُ عندهُ من بدنٍ ونفسٍ ولذلكَ حدَّ ٱلإنسانَ بٱلناطقِ ٱلمائتِ وبٱلناطقِ ٱلماشي برجلينِ وما أشبهَ ذلكَ. وهذهِ ٱلفرقةُ وهيَ ٱلتي رئيسُها أرسطاطاليسُ رأتْ أنَّ ٱلسعادةَ ٱلإنسانيّةَ تحصلُ للإنسانِ إذا سعى لها وتعبَ بها حتّى يصيرَ إلى أقصاها. ولمّا رأى ٱلحكيمُ ذلكَ وأنَّ ٱلناسَ مختلفونَ في هذهِ ٱلسعادةِ ٱلإنسانيّةِ وأنها قد أشكلتْ عليهم إشكالاً شديداً أحتاجَ أنْ يتعبَ في ٱلإبانةِ عنها وإطالةِ ٱلكلامِ فيها. وذلكَ أنَّ ٱلفقيرَ يرى أنَّ ٱلسعادةَ ٱلعظمى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكُّنِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اَعلى وَإن كانَ معقولًا فِي ٱلْمَكانِ ٱلأَسفَل . وَيَنبغي أن يُعلَمَ أنّهُ لَيس يُحتاجُ فِي صِحَّةِ ٱلأَرواحِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱلْمُستغنِيَـةِ عن ٱلأَبدانِ إلى شَيءٍ مِنَ ٱلسَّعاداتِ ٱلبدنيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرْناها سِوى سَعادةِ ٱلنَّفسِ فقط أعني ٱلمعقولاتِ ٱلأبديَّـةَ ٱلَّتِي هِيَ ٱلحِكمَةُ فقط . فإذا ما دامَ ٱلإنسانُ إنسانًا فلَيسَ تتمُّ لهُ ٱلسَّعادةُ إلّا بتحصيـلِ ٱلحالَينِ جميعًا وليس يحصُلانِ على ٱلتَّمامِ إلّا بِٱلأشياءِ ٱلنَّافعَـةِ فِي ٱلوُصولِ إلى ٱلحِكمةِ ٱلأبديَّةِ . فالسَّعيـدُ إذًا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ فِي إحدى مرتبَتينِ إمّا فِي مرتبةِ ٱلأشياءِ ٱلجِسمانيَّـةِ مُتعلِّقًا بأحوالِها ٱلسُّفلى سَعيدًا بِها وَهُوَ مَعَ ذلكَ يُطالِعُ ٱلأُمورَ ٱلشَّريفةَ باحِثًا عنها مُشتاقًا إليها مُتحرِّكًا نَحوَها مُغتبِطًا بِها . وإمّا أن يَكُونَ فِي رُتبـةِ ٱلأشياءِ ٱلرُّوحانيَّةِ مُتعلِّقًا بأحوالِها ٱلعُليا سَعيـدًا بِها وَهُوَ مَعَ ذلكَ يُطالِعُ ٱلأُمورَ ٱلبدنيَّةَ مُعتبِرًا بِها ناظِرًا فِي عَلاماتِ ٱلقُدرةِ ٱلإلهيَّـةِ وَدَلائلِ ٱلحِكمَةِ ٱلبالِغةِ مُقتدِيًا بِها ناظِمًا لَها مُفيضًا لِلخَيراتِ عليها سائِقًا لَها نَحوَ ٱلأفضلِ فالأفضلِ بِحسَبِ قبولِها وعلى نَحوِ ٱستطاعتِها . وَأيُّ ٱمرِئٍ لَم يَحصُلْ فِي إحدى هاتَينِ ٱلمنزلتَينِ فهُوَ فِي رُتبـةِ ٱلأنعامِ . بَل هُوَ أضلُّ وإنَّما صارَ أضلَّ لأنَّ تلكَ غيرُ مُعرَّضةٍ لِهذهِ ٱلخَيراتِ وَلا أُعطيَت ٱستطاعةً تتحرَّكُ بِها نَحوَ هٰذهِ ٱلمراتبِ ٱلعاليةِ وَإنَّما تتحرَّكُ بِقُواها نَحوَ كَمالاتِها ٱلخاصَّةِ بِها وَٱلإنسانُ مُعرَّضٌ لَها مَندوبٌ إليها مُزاحُ ٱلعِلَّةِ فِيها وَهُوَ مَعَ ذلكَ غيرُ مُحصِّلٍ لَها وَلا ساعٍ نَحوَها وَهُوَ مَعَ ذلكَ مُؤثِرٌ لِضدِّها يَستعمِلُ قُواهُ ٱلشَّريفَـةَ فِي

ٱلأُمورِ ٱلدَّنِيئَةِ وَتِلْكَ مُحَصِّلَةٌ لِكَمالاتِها ٱلَّتي تَخُصُّها. فَإِذًا ٱلأَنْعامُ إِذا مُنِعَتِ ٱلخَيْراتِ ٱلإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوارَ ٱلأَرْواحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخولَ ٱلجَنَّةِ ٱلَّتي وُعِدَ بِها ٱلمُتَّقونَ فَهِيَ مَعْذورَةٌ وَٱلإِنْسانُ غَيْرُ مَعْذورٍ. وَمَثَلُ ٱلأَوَّلِ مَثَلُ ٱلأَعْمى إِذا جارَ عَنِ ٱلطَّريقِ فَتَرَدّى في بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحومٌ غَيْرُ مَلومٍ. وَمَثَلُ ٱلثّاني مَثَلُ بَصيرٍ يَجورُ عَلى بَصيرَةٍ حَتّى يَتَرَدّى في ٱلبِئْرِ فَهُوَ مَمْقوتٌ مَلومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعيدَ لا مَحالَةَ في إِحْدى ٱلمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْناهُما فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُما ناقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلآخَرِ وَأَنَّ ٱلأَنْقَصَ مِنْهُما لَيْسَ يَخْلو وَلا يَتَعَرّى مِنَ ٱلآلامِ وَٱلحَسَراتِ لِأَجْلِ خَدائِعِ ٱلطَّبيعَةِ وَٱلزَّخارِفِ ٱلحِسِّيَّةِ ٱلَّتي تَعْتَرِضُهُ فيما يُلابِسُهُ وَتَعوقُهُ عَمّا يُلاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقّي فيها عَلى ما يَنْبَغي وَتَشْغَلُهُ بِما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلأُمورِ ٱلجُسْمانِيَّةِ فَصاحِبُ هٰذِهِ ٱلمَرْتَبَةِ غَيْرُ كامِلٍ عَلى ٱلإِطْلاقِ وَلا سَعيدٍ تامٍّ. وَأَنَّ صاحِبَ ٱلمَرْتَبَةِ ٱلأُخْرى هُوَ ٱلسَّعيدُ ٱلتّامُّ وَهُوَ ٱلَّذي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلحِكْمَةِ فَهُوَ مُقيمٌ بِروحانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلمَلَإِ ٱلأَعْلى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطائِفَ ٱلحِكْمَةِ وَيَسْتَنيرُ بِٱلنّورِ ٱلإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزيدُ مِنْ فَضائِلِهِ بِحَسَبِ عِنايَتِهِ بِها وَقِلَّةِ عَوائِقِهِ عَنْها وَلِذٰلِكَ يَكونُ أَبَدًا خالِيًا مِنَ ٱلآلامِ وَٱلحَسَراتِ ٱلَّتي لا يَخْلو صاحِبُ ٱلمَرْتَبَةِ ٱلأُولى مِنْها. وَيَكونُ مَسْرورًا أَبَدًا بِذاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحالِهِ وَبِما يَحْصُلُ لَهُ دائِمًا مِنْ فَيْضِ نورِ ٱلأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلّا بِتِلْكَ ٱلأَحْوالِ وَلا يَغْتَبِطُ إِلّا بِتِلْكَ ٱلمَحاسِنِ وَلا يَهَشُّ إِلّا لِإِظْهارِ تِلْكَ ٱلحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِها وَلا يَرْتاحُ إِلّا لِمَنْ ناسَبَهُ أَوْ قارَبَهُ

وَاحَبَّ ٱلِاقْتِبَاسَ مِنْهُ · وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ إِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْأَحْبَابِ مِنْ اهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلنِّعَمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ إِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلِانْحِلَالَ عَنْهُ إِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَى صُحْبَةِ اشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا ارَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا قَرَّبَ إِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ · إِلَّا أَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْأَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اعْنِي انَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ إِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْأَخِيرَةَ مِنْهُمَا · ·

(وَاذْ قَدْ لَخَّصْنَا امْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا انَّ إِحْدَاهُمَا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَيْنَا اولَى وَٱلْأُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ انْ نَسْلُكَ إِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ انْ نَمُرَّ بِٱلْأُولَى · · ثُمَّ اعْلَمْ انَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اوْ تَعَمَّدَ لِإِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ · · ·

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِالشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعتَقِدُ فِيهِ ٱلإِنسَانُ هٰذَا ٱلِاعتِقَادَ مَوجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَم يَبقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ اَصلًا. وَٱلأَشيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلخَيرِ هِيَ بِٱلجُملَةِ اَربَعَةُ اَجنَاسِ ٱلأَشيَاءِ ٱلفَاعِلَةُ وَٱلأَشيَاءُ ٱلحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلزَمُ ٱلفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ اَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ. وَكَذٰلِكَ اَيضًا لَازِمُ ٱلمُفسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلمُفسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلفَاعِلِ فِي ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي يَنهِي عَنهَا وَلُزُومُ ٱلغَايَةِ لِلفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثلَ مَا يَلزَمُ ٱلمَدحَ اَقتِنَاءُ ٱلأَشيَاءِ ٱلمَمدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَاَخِّرًا مِثلَ ٱلعِلمِ ٱلَّذِي يَتبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلأَشيَاءُ ٱلفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ اَصنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ اَثنَانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثلُ فِعلِ ٱلغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلعَرَضِ مِثلُ فِعلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا اَن تَكُونَ اَصنَافُ ٱلأَشيَاءِ ٱلفَاعِلَةِ لِلخَيرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلأَصنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضطِرَارٍ اَن تَكُونَ ٱلأُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلخَيرِ بَعضُهَا خَيرٌ فِي ذَاتِهَا مِثلُ نَفعِ ٱلغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيرٌ مَا بِحَسَبِ نَفعِهَا فِي ٱلخَيرِ مِثلُ شُربِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنفَعُ فِي ٱلخَيرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجهَينِ اَحَدُهُمَا اَن يُستَفَادَ بِهَا خَيرٌ هُوَ اَعظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱستِعمَالِهَا مِثلُ ٱستِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَن شُربِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثلُ ٱلمَشَقَّةِ ٱليَسِيرَةِ فِي ٱستِفَادَةِ ٱلمَالِ ٱلكَثِيرِ. وَمِنهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِن شَرٍّ هُوَ اَعظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنهَا مِثلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلبَحرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا ٱمتِعَتَهُم فَإِنَّ

طَرحَ اَمتِعَتِهِم شَرٌّ لكِن تُستَفَادُ مِنهُ السَّلامَةُ مِن شَرٍّ هُوَ اَعظَمُ
وَهُوَ العَطَب. وَالخَيرَاتُ الَّتِي تُستَفَادُ مِنَ الخَيرَاتِ يُسمِّيهَا اَرِسطُو
فَوَائِدَ بِإطلاقٍ وَاَمَّا تِلكَ فَيُسمِّيهَا انتِقالاً وَيَعنِي بِذٰلِكَ اَنَّهَا انتِقالٌ
مِن شَرٍّ اِلَى مَا هُوَ اَخَفُّ شَرًّا مِنهُ اَوِ انتِقالٌ مِن شَرٍّ اِلَى مَا هُوَ
خَيرٌ

(قَالَ) وَالفَضَائِلُ وَاِن كَانَت غَايَاتٍ فَهِيَ اَيضًا خَيرَاتٌ فِي
اَنفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي الخَيرِ فَاِنَّ المُقتَنِينَ لَهَا هُم بِهَا حَسَنُو الاَحوَالِ
وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلخَيرِ وَمُستَعمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَد يَنبَغِي اَن نُخبِرَ عَن كُلِّ وَاحِدٍ مِن هٰذِهِ وَكَيفَ
هِيَ خَيرٌ فِي نَفسِهَا وَكَيفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلخَيرِ وَنُفَصِّلَ الاَمرَ فِي ذٰلِكَ.
وَاللَّذَّاتُ اَيضًا هِيَ خَيرٌ بِنَفسِهَا لِاَنَّ جَمِيعَ الحَيَوَانِ يَشتَاقُ اِلَيهَا.
وَالاُمُورُ اللَّذِيذَةُ اِنَّمَا تَكُونُ خَيرًا اِذَا كَانَ بِهَا المُلتَذُّ حَسَنَ الحَالِ
وَقَد يَستَبِينُ مِنَ التَّصَفُّحِ اَنَّهَا خَيرٌ وَاَنَّهَا قَد تَكُونُ نَافِعَةً فِي الخَيرِ
وَاَجزَاءِ صَلاحِ الحَالِ. وَبِالجُملَةِ مِنهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَط. وَمِنهَا مَا قَد
تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ اَيضًا فِي الغَايَاتِ. وَذٰلِكَ اَنَّ لِبَعضِهَا تَرتِيبًا
عِندَ بَعضٍ اَعنِي اَنَّ بَعضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيهِ. وَمِثَالُ
ذٰلِكَ اَنَّ الشَّجَاعَةَ وَالحِكمَةَ وَالعَفَافَ وَكِبَرَ النَّفسِ وَالنُّبلَ وَمَا
اَشبَهَهَا مِن فَضَائِلِ النَّفسِ قَد تُختَارُ اَشيَاءُ كَثِيرَةٌ مِن اَجزَاءِ صَلاحِ
الحَالِ مِن اَجلِهَا. وَكَذٰلِكَ الصِّحَّةُ وَالجَمَالُ مِن فَضَائِلِ الجَسَدِ قَد تُختَارُ
اَشيَاءُ مِن اَجلِهَا هِيَ مِن صَلاحِ الحَالِ وَهِيَ فَاعِلاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُختَارُ

فاعلات اشياء اخر من صلاح الحال مثل فاعلات اللذة وفاعلات السيرة الحسنة. ولذلك ما يظن باليسار انه خير اذ كان سببا لهذين الامرين الشريفين احدهما اللذة والآخر حسن السيرة وصلاح الحال بكثرة الاخوان قد يوجد فاعلا لاشياء كثيرة من الخيرات وذلك اذا كانت الصداقة التي بينهما من اجل المحبة نفسها لا ان تكون المحبة بينهما من اجل شيء آخر فان الاخوان الذين بهذه الصفة هم يفعلون الكرامة والتمجيد وغير ذلك مما يجري مجراهما من الخيرات وذلك يكون منهم بالقول والفعل فان الاقوال والافعال التي تفعل بها الكرامة والتمجيد وغير ذلك مما يجري مجراهما هي خير ونافع

(قال) ومن النافعات بذاتها الملكات الطبيعية التي يكون الانسان بها مستعدا لاشياء حسنة مثل الذكاء والحفظ والتعلم وخفة الحركات. وكذلك الكمالات مثل العلوم والصنائع وكذلك السير المحمودة وهذه كلها مع انها نافعة في غيرها هي خير في نفسها وان لم يتصل بها خير آخر فهي خيرات منفردة بانفسها مختارة لذاتها والجزء ايضا خير نافع

(قال) فهذه هي الخيرات التي يعترف بها ويجتمع انها خيرات ونافعات ومتى بين في شيء منها انها خير فذلك بيان لا على طريق المراء والمغالطة المستعملة في هذه الصناعة. واما اذا بين في شيء من اضداد هذه انها خير وفيها انها شر فذلك يكون في هذه

الصناعة على طريق الرأي أعني ببيانٍ سوفسطائيٍ. وذلك أن الشر إنما ينفع بالعرض مثل أن يبين خطيب لأهل مدينة ما أن الجبن لهم خيرٌ لأنهم إن شجعوا خرجوا عن المدينة فنال منهم العدوّ ولكن الجبن ليس هو خيرًا على الإطلاق وإنما كان خيرًا بالإضافة إلى أهل المدينة الذين عرض لهم هذا. وأما النافع في الأكثر وبالذات للإنسان فهو الخير كما أن الشر المضاد للخير هو نافعٌ للأعداء وذلك أن الجبن لما كان شرًا لأهل المدينة بالعرض كان نافعًا للأعداء. والشجاعة لما كانت بالذات خيرًا لهم كانت ضارةً بالأعداء إلا أنه قد يلحق ما هو شرٌ ما للإنسان أن يكون ضارًا لعدوه وما هو خيرٌ ما له أن يكون نافعًا لعدوه مثل الجبن لأهل المدينة الذين إذا خرجوا عن المدينة لم تكن لهم قوةٌ يقاومون بها عدوهم. فينبغي للخطيب أن يتحرى في كل وقت النافع من هذه الأشياء وهذه القضية أيضًا ليست كلية أعني القائلة أن كل ما يضر العدو ويكرهه نافعٌ وكل ما ينفع العدو ويسره ضارٌ فإن كثيرًا ما يكون الأمر الواحد ضارًا للإنسان وعدوه ونافعًا للإنسان وعدوه. فمثال ما هو نافعٌ لكليهما ويسر به كل واحدٍ منهما مفارقة العدو عدوه إذا كانت بعد مقاتلة شديدة بينهما ومقاومةٍ أشفى كلُّ واحدٍ منهما على العطب منها من غير أن يظفر أحدهما بصاحبه فإنهما إذا افترقا في إثر هذه الحال سر كل واحدٍ منهما بالافتراق ولذلك قد يكون النافع

نافعاً للأعداء أيضاً. وأمّا ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيراً ما يوجب صداقةَ العدوّ. وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشرّ الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه. وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إنّ الشرّ قد يجمع الناس فهذا أيضاً أحد ما يكون به الشرّ نافعاً أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلاً بعدوّه. فإنّ ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذٍ يهوى العدوّ الوارد ضدّ ما يهواه كلّ واحد من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوّ من خارج. وذلك أنّ كلّ واحد من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارج. والعدوّ الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكّدها. وأرسطو يقول: ولذلك كثيراً ما تُنفق النفقات العظيمة وتُفعل الأفعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يُدفع به الشرّ العظيم وإنّما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتّى كأنّها إذا وُجدت هذه الأشياء وُجدت الغاية. وقد يكون الشرّ المفرط النازل بالعدوّ أيضاً سبباً للاعتراف بالخير اليسير الذي ناله من عدوّه ولولاه لم يعترف به العدوّ. مثل ما حكى أرسطو أنّه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء لليونانيين أنّه اشتدّت محاربتهم له وحصرهم إيّاه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثّته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذلك فشكرهم على ذلك واظهر شكرهم عند جميع قومه واهل مدينته. فلولا ما نزل به من الشر العظيم لما شكرهم على هذا الشيء اليسير الذي سمحوا له به كما قال ذلك اوميروش الشاعر

(قال) ومن الاصطناعات النافعة والافعال التي يعظم قدرها عند المصطنع اليهم فيصير به المصطنع الى خير عظيم من المصطنع اليهم ان يختار الانسان انسانا عظيم القدر من جنس ما من الناس له ايضا عدو عظيم القدر في جنس آخر من الناس فيفعل بعدو ذلك الانسان الشر وباصدقائه الخير. مثل ما عرض لاوميروش مع اليونانيين واعدائهم فانه قصد الى عظيم من عظماء اليونانيين في القديم وخصه بالمدح واصدقاءه من اليونانيين. وخص عدوا له عظيما بالهجو هو وقومه المعادين لليونانيين في حروب وقعت بينهما فكان رب النعمة العظيمة بذلك عند اليونانيين وعظموه كل التعظيم حتى اعتقدوا فيه انه كان رجلا الهيا وانه كان المعلم الاول لجميع اليونانيين. وبالجملة ففعل الشر بالاعداء والخير بالاصدقاء من الامور النافعة. ومن شرط هذا الفعل الذي يعظم موقعه ان يكون ما فعل منه يرى انه لم يمكن الفاعل ولا تيسر له غيره وسواء كان الفعل كثيرا في نفسه او يسيرا وان يظن ان فعله لم يكن لمكان خوف ولا شيء يرجوه بل لان شوقه وهواه قاده الى ذلك فان بهذا يكون الفعل مداوما عليه من الفاعل وهو السهل عليه لان

الأفعال التي تكون من اجل خوف انما تكون غير شاقة زمانًا يسيرًا واذا طال بها الزمان كانت شاقة فانقطعت واذا انقطعت كان من ذلك عداوة من المصطنع اليه للمصطنع. فلذلك يشترط في هذا الفعل ان يكون سهلًا على الفاعل فهذه هي شروط الابتداء بالصنائع التي يعظم موقعها ويوجد نفعها. واما المكافاة التي لا يعظم موقعها فهي المكافاة التي لا تكون بحسب ما يهوى المكافئ بالطبع من اكثر الناس وهو ان تكون ناقصة عن الصنيعة التي اسديت اليه اما في الكمية واما في المنفعة واما لانها قد فضلت عند المكافئ وليس يحتاج اليها وهي المكافاة التي يغالط فيها وانما كان المكافئ بالطبع الذي يشتهي ان تكون مكافاته باحد هذه الثلاثة الاحوال لان المكافئ كانه مقصور على الاعطاء فهو انما يشتهي اما الا يلحقه نقص من الخير الذي وصل اليه واما ان يكون النقص اقل من الخير الذي وصل اليه. فاذا لم تكن المكافاة بهذه الصفة بل كانت مقارنة للصنيعة اما في الجنس مثل ان تكون المكافاة على الدنانير بدراهم واما في القوة مثل ان تكون المكافاة على المال بكرامة يقتنى بها مثل ذلك المال فهي المكافاة العادلة لكنها سوقية. فاذا لم تكن المكافاة لا سوقية ولا فيها غبن بل كان المكافئ يعتقد فيه انه ليس اختياره في المكافاة لما هو انقص اكثر من اختياره لما هو

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَاتَهُ بِٱلْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذَلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذَلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءَ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِىءِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذَلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمٌ مَوْقِعُهُ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذَلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ وَٱلْمُكَافِىءِ أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تَنْقُصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلِٱصْطِنَاعُ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ

البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قال) فمن هذه الوجوه يأخذ الخطيب المقدمات التي منها يقنع ان الشيء نافع او غير نافع. ومن اجل ان الخطيب قد يعترف احيانا بان الامر نافع ولكن يدعي ان هاهنا شيئا هو انفع فقد يحتاج ان تكون عنده مواضع يقدر ان يبين بها ان الامر انفع وافضل. فمنها ان ما كان نافعا في كل الاشياء فهو انفع مما هو نافع في بعض الاشياء. والذي هو ادوم نفعا هو انفع من الذي هو اقصر نفعا. والذي هو اكبر هو انفع من الاصغر. والذي هو اكثر هو انفع من الاقل. والذي جمع من صفات الخير اكثر او جمع صفاته كلها فهو انفع. وصفات الخير التام هو ان يكون الشيء مختارا من اجل نفسه لا من اجل غيره وان يكون متشوقا عند الكل وان يكون ذوو الفضل واللب يختارونه والذي جمع هذه الصفات كلها او اكثرها فهو الخير والنافع الذي في الغاية وهو الغاية لسائر الاشياء التي توصف بالخير. والاشياء المتصفة بالخير المتعلقة بهذا الخير الذي

جمعَ هٰذهِ ٱلصِفاتِ انَّما يُقالُ فيها انَّها انفعُ اذا وُجِدَ في واحدٍ منها صِفةٌ واحدةٌ مِن هٰذهِ ٱلصِفاتِ او اكثرُ مِن صِفةٍ واحدةٍ . وكلُّ ما كانَ مِن هٰذهِ ٱلاشياء تُوجدُ فيهِ صِفاتٌ اكثرُ مِن صِفاتِ ٱلخيرِ فهُوَ انفعُ ما لم تكنِ ٱلصِفةُ ٱلواحِدةُ انفعَ مِن ٱثنتَينِ او مِن ثلاثٍ . وايضًا فما كانَ ٱلعظيمُ فيهِ افضلَ مِنَ ٱلعظيمِ في جنسٍ آخرَ فٱلجنسُ ٱلذي فيهِ ٱلعظيمُ ٱلافضلُ هُوَ افضلُ مِنَ ٱلجنسِ ٱلآخرِ وما كانَ ٱلجنسُ منهُ افضلَ مِنَ ٱلجنسِ ٱلافضلِ فٱلعظيمُ مِنَ ٱلجنسِ ٱلافضلِ افضلُ مِنَ ٱلعظيمِ مِنَ ٱلجنسِ ٱلآخرِ وهُوَ عكسُ ٱلاوَّلِ . ومِثالُ ذٰلكَ انَّهُ إن كانَ ٱلذُكرانُ افضلَ مِنَ ٱلاناثِ فٱلرَّجلُ افضلُ مِنَ ٱلمرأةِ وإن كانَ ٱلرَّجلُ افضلَ مِنَ ٱلمرأةِ فٱلذُكرانُ افضلُ مِنَ ٱلاناثِ . وانَّما كانَ ذٰلكَ كذٰلكَ لأنَّ نِسبةَ ٱلعظيمِ الى جنسِهِ هي كنِسبةِ ٱلعظيمِ ٱلآخرِ الى جنسِهِ فتكونُ نِسبةُ ٱلجنسِ الى ٱلجنسِ هي نِسبةُ ٱلعظيمِ الى ٱلعظيمِ . ثمَّ اذا كانَ ٱلشيءُ لازمًا لشيءٍ ما وٱلآخرُ غيرَ لازمٍ لهُ فإنَّ ٱلذي يلزمُ عنهُ ٱلشيءُ آثرُ مِنَ ٱلذي لا يلزمُ عنهُ ٱلشيءُ . مِثالُ ذٰلكَ ٱلسُلطانُ وٱلثَّروةُ فإنَّ ٱلثَّروةَ تلزمُ ٱلسُلطانَ وليسَ يلزمُ ٱلسُلطانُ ٱلثَّروةَ . فلذٰلكَ ٱلسُلطانُ افضلُ مِنَ ٱلثَّروةِ وكذٰلكَ ٱلحالُ في ٱلمضارِّ فإنَّ ٱلفقرَ يلزمُ عنهُ ٱلبُخلُ وليسَ يلزمُ عنِ ٱلبُخلِ ٱلفقرُ . فٱلفقرُ اكثرُ شرًّا مِنَ ٱلبُخلِ وٱللازمُ يُوجدُ على ثلاثةِ اقسامٍ : إمَّا ان يُوجدا معًا اعني ٱللازمَ وٱلملزومَ مِثلُ وُجودِ ٱلابيضِ وٱلبياضِ

معًا ومثل لزوم الانسان والحيوان . واما ان يوجد اللازم تابعًا بآخرة مثل لزوم العلم عن التعلم . واما ان يكون تلازمهما في القوة اي يكون احدهما يفعل فعل الآخر ولا ينعكس اعني الا يفعل الآخر فعل الاول . مثال ذلك الفقر والبخل فان الفقر يلزم عنه ان يفعل الانسان فعل البخل وليس يلزم عن البخل فعل الفقر فان الفقر يعوق عن اشياء اكثر من عدم استعمال المال الذي هو البخل وايضًا الذي يفعل الخير الانفع هو انفع من النافع . مثال ذلك الجلد والجمال فان كليهما نافع وخير والجلد يفعل به خير اعظم مما يفعل بالجمال فهو اعظم نفعًا . وكذلك الصحة ايضًا اعظم نفعًا من اللذة لان الصحة يفعل بها خيرات اكثر مما يفعل باللذات . وايضًا فان الذي يختار مفردًا افضل نفعًا من الذي لا يختار الا مع ذلك المختار مفردًا . ومثال ذلك ان الجمال لا يختار الا مع الصحة والصحة تختار دون الجمال فالصحة افضل نفعًا من الجمال . وايضًا اذا كان شيئان احدهما كمال والآخر طريق الى الكمال فالذي هو كمال افضل . مثل الصحة واللذة فان الصحة كمال واللذة كون والكون طريق الى الكمال . واذا كان شيئان احدهما يختار لذاته والآخر يختار من اجل غيره فالذي يختار من اجل نفسه افضل من الذي يختار من اجل غيره . مثال ذلك الحكمة واليسار فان الحكمة تختار لذاتها واليسار يختار لغيره . وايضًا فان الذي يجعل المرء اذا اقتناه اقل

حاجةً إلى أصدقائهِ أو إلى الإنسانِ فهوَ أفضلُ مِنَ ٱلّذي يجعلهُ أكثرَ حاجةً. فإنَّ من هوَ أكثرُ كفايةً وٱستغناءً عنِ ٱلنّاسِ هوَ ٱلّذي يحتاجُ إلى أشياءَ قليلةِ ٱلعددِ سهلٍ وجودها. وأيضاً إذا كانَ شيئانِ أحدهما يحوجُ ٱقتناؤهُ إلى ٱلثّاني وٱلثّاني لا يحوجُ ٱقتناؤهُ إلى ٱلآخرِ فإنَّ ٱلّذي لا يحوجُ ٱقتناؤهُ إلى ٱلآخرِ هوَ آثرُ. مثالُ ذلكَ ٱليسارُ وٱلبنونَ فإنَّ ٱلبنينَ يحوجونَ إلى ٱقتناءِ ٱلمالِ وٱليسارُ ليسَ يحوجُ إلى ٱقتناءِ ٱلبنينَ فٱليسارُ أفضلُ نفعاً

(قالَ) ويتبيّنُ أنَّ ٱلشّيءَ ٱلّذي هوَ مبدأٌ ليسَ يلزمُ أنْ يكونَ أعظمَ مِنَ ٱلشّيءِ ٱلّذي هوَ لهُ مبدأٌ. وذلكَ أنَّ ٱلإرادةَ مبدأُ ٱلخيرِ وفعلُ ٱلخيرِ أعظمُ مِنْ إرادةِ ٱلخيرِ. وكذلكَ ٱلتّعلّمُ وٱلعلمُ وإنْ كانَ ليسَ يُمكنُ أنْ يكونَ ٱلشّيءُ ٱلنّافعُ دونَ مبدإٍ. وإذا كانَ شيئانِ مبدأينِ لشيئينِ واحدُ ٱلمبدأينِ أعظمُ مِنَ ٱلثّاني فإنَّ ٱلّذي يكونُ عنِ ٱلمبدإِ ٱلأعظمِ أعظمُ. وعكسُ هذا أيضاً وهوَ إذا كانَ شيئانِ مبدأينِ لشيئينِ على أنّهما فاعلٌ وأحدهما أعظمُ مِنَ ٱلثّاني فإنَّ ٱلّذي هوَ مبدأٌ للأعظمِ أعظمُ. وكذلكَ إذا كانَ مبدآنِ على أنّهما غايةٌ وإذا قيسَ ٱلمبدأُ ٱلفاعلُ إلى ٱلغايةِ أمكنَ أنْ يتوهّمَ أنَّ ٱلفاعلَ أعظمُ مِنَ ٱلغايةِ. وذلكَ أنَّ ٱلفاعلَ هوَ ٱلّذي يفعلُ ٱلغايةَ ولولا هوَ لم توجدِ ٱلغايةُ وأمكنَ أنْ يتوهّمَ أيضاً أنَّ ٱلغايةَ أعظمُ مِنَ ٱلمبدإِ. وذلكَ أنّهُ لولا ٱلغايةُ لكانَ ٱلفاعلُ فضلاً. فمثالُ ما تجعلُ ٱلغايةَ فيهِ أعظمَ مِنَ ٱلفاعلِ قولُ من يقولُ في ٱلذّمِّ: إنَّ

فلانًا اولى بان ينسب الى الجور في فعله كذا من فلان الذي اشار عليه بذلك لأنه لو لم يكن منه ذلك الفعل اذ لو لم يفعل هو ذلك الفعل لم يقع ذلك الضرر. ومثال ما يجعل الفاعل فيه اعظم من الغاية قول القائل: فلان احق بالشكر على هذا الفعل من فلان لان فلانًا هو الذي اشار عليه بذلك الفعل ولولا اشارته لم يكن ليفعل ذلك الفعل المحمود وفي كلا الموضوعين ما قبل الغاية انما يفعل لمكان الغاية. وايضا فان الذي وجوده اقل فهو افضل مثل الذهب والحديد غير انه ان كان الذهب اقل وجودًا من الحديد فليس هو انفع. وايضا مقابل هذا وهو ان ما كثر وجوده فهو افضل مما قل وجوده لكثرة منافعه ومن هنا يقال ان الماء خير لكثرة وجوده وعموم منافعه. وايضا فان ما هو اعسر وجودًا فهو افضل لان ما عسر وجوده قل وجوده وما قل وجوده فهو غريب ويتنافس فيه. ومقابل هذا وهو ان ما سهل وجوده فهو افضل لانه يوجد في كل حين يتشوق اليه. وايضا الشيء الذي ضده اعظم فهو افضل. وايضا الذي عدمه اشد ضررًا فهو انفع. وليس ينبغي ان يفهم ها هنا من الاعظم والاقل عظم المقايسة في الخير فقط بل وفي الشر وفيما هو لا خير ولا شر. وايضا فان الغايات والاشياء التي من اجلها تفعل الافعال اذا كانت الغايات بعضها ازيد خيرًا من بعض او ازيد شرًا من بعض فان الامور المتقدمة لتلك الغايات الازيد هي

ازيد. وايضاً فإنّ ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فإنّ افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لأنّ نسبة الأفعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فإنّه ان كان البصر آثر من الشم فإنّ الابصار آثر من الشم وهكذا يوجد الأمر في جميع الأفعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتية فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فإنّ العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض له عظيماً وفي الأعراض الموجودة في الشيء اعني ان الشيء الأعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضاً ان يحب الإنسان صاحب المال افضل من ان يحب المال لأنّ حب الإنسان افضل من حب المال. وايضاً فإنّ الفضائل افضل من ذوي الفضائل والأشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك ان شهوة العلوم فاضلة وشهوة الأكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الأكل والشرب. وايضاً عكس هذا وهو ان ما هو افضل فشهوته افضل مثل ان الحكمة افضل من الصحة فشهوتها افضل من شهوة الصحة. وايضاً فإنّ العلوم التي هي احسن وافضل فأفعالها خير وافضل. مثال ذلك انه لما كانت العلوم العلمية افضل من العملية كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو ان التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك ان الوقوف على الحق لما كان افضل من العمل كانت

الصنائع العلمية افضل من العمليـة وانما كانا هذان الموضعان متلازمين لان نسبة الصناعة الى الصناعة هي نسبة فعلها الى فعلها

(قال) والذي يحكم به الكل من الجمهور او الاكثر او ذوو الالباب والاخيار الصالحون انه خير وافضل فهو افضل باطلاق وفي نفسه اذا كان حكمهم في الاشياء بحسب فطرهم وكانوا ذوي لب لا بحسب ما استفادوه من الآراء من خارج. فان ذوي الالباب من الناس قد يقولون بفطرهم في الفضائل والخيرات ما هي وكم هي وعند اي شيء هي وان كان ما يقفون عليـه بفطرهم دون ما يوقف عليه من ذلك في العلوم. وما قيل في حد الخير من انه الذي يتشوقه الكل انما يراد بذلك الخـير الذي يتشوقه الكل بحسب فطرهم الطبيعية اعني اللبية فان ما تتشوقه الفطر اللبية بما هي فطر لبية هو خير مطلق او خير افضـل من خير مثل علمهم ان الشجاعة والادب والجلد خيرات وتشوقهم اياها. واما الذي هو خير بالاضافة الى انسان ما مثل من يرى من الناس الفاضلين انه ان يجار عليه افضل من ان يجور هو فان هذا الخير لا يدركه الناس بحسب طباعهم وانمـا يرى هذا الرأي الذي هو من الناس في غاية العدل والفضل. وايضا ما كان من الخيرات معـه اكثر لذة فهو آثر. وانما كان ذلك كذلك لان الكل من الجمهور يبتـدرون الى اللذة ويطلبونها وطلبهم اللذة هو من اجل اللذة نفسها لا من اجل شيء آخر غـيرها. وما

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اعني مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ . فقد قِيلَ انَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اذَنْ خَيْرٌ وَٱلْأَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ ابْرَأُ مِنَ ٱلْأَذَى وَٱلْحُزْنِ وَادوَمُ بقاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ أَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِأَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ إِمَّا لِنَفْسِهِ وَإِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ أَفْضَلَ فَهُوَ أَلَذُّ مِمَّا هُوَ أَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا أَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ أَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا أَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ أَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ أَلَذُّ مِمَّا هُوَ أَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ أَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا أَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ أَوِ ٱلْأَكْثَرُ لَذَّةً إِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ أَحَدُ أَمْرَيْنِ إِمَّا طُولُ ٱعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْأَشْيَاءُ إِذَنْ إِنَّمَا تَصِيرُ أَكْثَرَ لَذَّةً إِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةٌ أَكْثَرَ فَإِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا إِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْأَنْفَعِ وَٱلْأَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنْ

ٱلْجمهور وما ٱختاره ايضا كثير من ٱلنَّاس آثر ممَّا يختاره ٱلقليل من ٱلنَّاس فإنَّ ٱلخير كما قيل هو ٱلَّذي يشتاق إليه ٱلكلُّ . وما اختاره ايضا ٱلحكَّام ٱلأُول اعني ٱلذين لا يأخذون ٱلاحكام من غيرهم وهم ٱلشُّرَّاع افضل ممَّا لم يختاروه . وما ٱختاره ايضا ٱلذين يتلقَّون ٱلاحكام من هؤلاء افضل ممَّا ليس يختاره هؤلاء . وٱلذين يتلقَّون ٱلاحكام من ٱلحكَّام ٱلأُول وهم ٱلذين تؤخذ عنهم أُصول ٱلاحكام صنفان إمَّا سامعٌ فقط مبلّغ وإمَّا سامعٌ عالم اي قادر على ان يستنبط من تلك ٱلأُصول احكاما ما لم يُصرِّح بها ٱلحكَّام ٱلأُول . وهؤلاء صنفان إمَّا مسلَّطون من قبل ٱلحكَّام ٱلأُول وهم ٱلقضاة وما اشبههم وإمَّا غير مسلَّطين وهم ٱلفقهاء . ومن هذه ٱلأشياء ما لجميع اصناف ٱلمتلقِّين من ٱلحكَّام ٱلأُول ان يقولوا فيها . وهو ما سمعوه او ما شاهدوه من ٱلحاكم ٱلأَوَّل ومنها ما يختصُّ بذوي ٱلعلم منهم وهو ٱلقول في ٱلأشياء ٱلتي تُستنبط عن ٱلاحكام ٱلأُول ٱلتي صرَّح بها ٱلحاكم ٱلأَوَّل وليس للسَّامعين دون علم ان يقولوا في هذه ٱلأشياء . وأمَّا ٱلذي يخصُّ ٱلحكَّام ٱلأُول ٱلقول فيه فهي ٱلأُصول ٱلتي تتنزَّل منزلة ٱلمبادئ لسائر ما يحكم به ٱلسَّامعون ذوو ٱلعلم اعني ٱلمسلَّطين وٱلفقهاء وهي ٱلتي يسمِّيها ارسطو ٱلأُمور ٱلعظمى . وٱلفضلاء ٱلأبرار ٱلذين جرت ٱلعادة ان يأخذ عنهم ٱلجميع او ٱلأكثر فحكمهم افضل فإنَّ عدم ٱلأخذ قد يخيل هوانًا ونقصًا في ٱلمرء ٱلفاضل ٱلبرّ

وقلة قبول لقوله وقد يحيل الامر بعكس هذا . وذلك انه ربما كان هؤلاء الابرار الفاضلون مقبولي القول مع انه لم يأخذ احد من الجمهور عنهم اصلا شيئا او انما اخذ عنهم قليل . وذلك ان اقاويل هؤلاء قد يظن بها انها مقبولة بجهة اخرى وذلك انه قد يكون المرضي عند الجمهور من ليس مرضيا في نفسه والاقل من الجمهور وهم ذوو التمييز . وايضا فان الفاضلين الذين كتموا فضائلهم عن الجمهور هم ممدوحون اكثر وهم اقل وجودا واعز لانهم انما كتموا فضائلهم عن الجمهور لما خافوا ان يلحقهم من الكرامات والرئاسات التي يخاف اذا لحقت المرء ان تكون سببا لان تكون هذه الاشياء اللاحقة للفضائل هي المقصودة عنده بالفضائل . فمن ها هنا صارت اقوال هذا الصنف مقبولة كما صارت اقوال الصنف الاول المضاد لهذا مقبولة وهم الذين اخذ عنهم الجمهور

(قال) ومن الصنف المقبول القول من الناس جدا جدا الصنف الذين كراماتهم اعظم لان الكرامة لما كانت مكافاة الفضيلة كان المرء كلما عظمت كرامته ظن به انه قد عظمت فضيلته . والصنف من الناس الذين نالتهم المضرة العظيمة والشقاء الكبير لمكان الفضائل هم ايضا مقبولو الاقوال جدا جدا بمنزلة سقراط وغيره والصنف من الناس الذين يرى فيه هذان الصنفان من الناس اعني الذين كراماتهم اعظم والذين نالهم الضرر

ٱلـكبيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلفضائلِ انّهم فاضلونَ ويعترفونَ لهم بالفضلِ هم ايضًا افضلُ واعظمُ • فهؤلاء هم اصنافُ ٱلنّاسِ ٱلذينَ اذا اختاروا شيئًا واختارَ غيرُهم سِواهُ كانَ ما يختارهُ هؤلاء افضلَ وآثر

(قالَ) وقسمةُ ٱلشيءِ الى جزئياتهِ يخيّلُ في ٱلشيءِ انّهُ اعظمُ ولذلكَ لمّا ارادَ اوميروشُ ٱلشاعرُ انْ يُعظِمَ ٱلشرَّ ٱلّذي لحقَ ٱلمدينةَ اخذَ بدلهُ جزئياتهِ فذكرَ قتلَ ٱلاولادِ وٱلنوحَ عليهم وحرقَ ٱلمدينةِ بٱلنارِ وغيرَ ذلكَ مِنْ اصنافِ ٱلشرورِ ٱللاحقةِ لها

(قالَ) وكذلكَ ٱلتركيبُ قد يخيّلُ في ٱلشيءِ انّهُ اعظمُ وهوَ عكسُ . هذا اعني انْ يؤخذَ بدلَ ٱلجزئياتِ ٱلكليّ ٱلذي يعمّها وٱلسببُ في ٱلاقناعِ في هذينِ ٱلصنفينِ هوَ ٱلتغييرُ وٱلابدالُ

(قالَ) ولمّا كانتِ ٱلاشياءُ ٱلاعسرُ وجودًا في نفسِها وٱلاقلُّ وجودًا يُظَنُّ بها انّها افضلُ كانتِ ٱلاشياءُ ٱلكثيرةُ ٱلوجودِ في نفسِها وٱلسهلةُ ٱلوجودِ قد ترى عظيمةً اذا وُجِدَتْ في ٱلمواضعِ ٱلّتي يقلُّ فيها وجودُها او في ٱلازمنةِ ٱلّتي يقلُّ وجودُها فيها ايضًا او في ٱلاسنانِ مِنَ ٱلنّاسِ ٱلّتي يقلُّ وجودُها فيها مثلُ وجودِ ٱلانسانِ خطيبًا في سِنِّ ٱلصِبا او في ٱلمُدَدِ ٱلّتي ليسَ مِنْ شأنِها انْ توجدَ فيهِ • مثلُ مَنْ يفعلُ ما شأنهُ انْ يفعلَ في زمانٍ طويلٍ في زمانٍ قصيرٍ او تكونَ صادرةً عنِ ٱلقوى ٱلّتي يقلُّ صدورُها عنها مثلُ انْ يفعلَ ٱلضعيفُ فعلَ ٱلقويّ وٱلمريضُ فعلَ

ٱلصَّحِيحِ. وَكُلُّ هٰذِهِ وَاشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا. وَايْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ اعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ اوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ. وَايْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ اشَدُّ هُوَ اعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ اكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا. فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضَ فِيهَا اضَرُّ. وَايْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ اقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ افْضَلُ. وَايْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ افْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا انْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ اعْمَارِهِمْ هِيَ افْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ. وَايْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ او قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا اعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَامَّهَا. وَارِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ اعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ انَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ اوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ اصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ اوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ. وَامَّا حُسْنُ ٱلِٱنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حصل فقد استفاد الخير منه القابل له . وايضا ما اوثر فعله لنفسه
وان لم يعلم به احد آثر مما لا يختار الا من جهة ما يعلم كالحال
في الصحة والجمال . فان الصحة مؤثرة بذاتها والجمال مؤثر للغير .
وايضا فان النافعة في اشياء كثيرة فهي انفع كالنافعة في طول
العمر وفي حسن العيش اعني العيش الرغد وفي اللذات وفي
اصطناع الخيرات . ولذلك ما يظن بالصحة واليسار انهما عظيمان لانهما
يجمعان الخلو من الحزن والفعل بلذة اعني ان الصحة هي سبب
الفعل بلذة واليسار سبب الخلو من الاحزان . وكل واحد من
هذين على الانفراد فاضل ومختار بنفسه اعني الخلو من الاحزان
والافعال اللذيذة فاذا اجتمعا لامرئ جعلاه اعظم من كل
شيء سواء علم ذلك من علمه او جهله من جهله لان هذه
خيرات مستفادة بالحقيقة لا من الخيرات التي يتعمد بها المدح .
ولكون اليسار سببا لدفع الاحزان ظن به انه السعادة قوم
وآخرون رأوا ان السعادة هي ان يقترن به شيء آخر وذلك
واجب من قبل انه احرى ان تكون السعادة ثابتة ومأمونة
الزوال . فانه ليس الضرر اللاحق لمن له عينان ففقد احداهما كمن له
عين واحدة ففقدها لان الذي له عين واحدة سلب احب مما سلب
من له عينان . وكذلك ان كانت السعادة في المال وفي شيء آخر
لم يكن الضرر اللاحق عن سلب المال كالضرر اللاحق عن سلبه
ان كان هو السعادة وحده

(قَالَ) وَالْكَلَامُ فِي هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ التَّصْحِيحِ. وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيهَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ ابَدًا مَتَى اتَى بِالنَّتَائِجِ مِنْ امْثَالِ هٰذِهِ الْمُقَدَّمَاتِ انْ يُرْفِدَهَا بِالْمِثَالَاتِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَعَلُوا تِلْكَ الْأَفَاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ النَّفْعُ اوِ الضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ انْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُثْبَتُ بِهَا انَّ الشَّيْءَ انْفَعُ او اضَرُّ. وَامَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ اهَمُّ وَاعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى جُودَةِ الْإِقْنَاعِ فِي السُّنَنِ وَالْإِشَارَةِ بِالسُّنَنِ الَّتِي لَا يُوجَدُ انْفَعَ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ انْ نَسْتَقْصِيَ الْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: انَّ الْإِشَارَةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعَةِ وَالْإِقْنَاعَ التَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ اصْنَافِ السِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ انَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ السُّنَنُ الَّتِي بِهَا

يكون خلاص تلك المدينة وقوامها. والسنن النفيسة الخطيرة هي السنن العادلة اعني الموضوعة في العدل التي رسمها الرئيس الاول في تلك المدينة او المسلط عليها من قبل الرئيس الاول. وهذه السنن النفيسة اعني السنن العادلة تختلف في السياسات بحسب اختلاف غاياتها. وعددها على عدد السياسات. مثال ذلك ان العدل في سياسة التغلب انه لا شيء على الرئيس اذا لطم المرؤوس. وفي سياسة الحرية العدل في ذلك ان يلطم الرئيس مثل اللطمة التي لطمها. والسياسات بالجملة اربع السياسة الجماعية وسياسة الخسة وسياسة جودة التسلط وسياسة الوحدانية وهي الكرامية. وهذه السياسات كلها المقصود بالسنن الموضوعة فيها انما هو المدينة والكل لا الشخص. فاما المدينة الجماعية فهي التي تكون الرئاسة فيها بالاتفاق والبخت لا عن استئهال اذ كان ليس في هذه المدينة لاحد على احد فضل. واما خسة الرئاسة فهي التي يتسلط فيها المتسلطون على المدنيين باداء الاتاوة والتغريم لا على جهة ان تكون نفقة للحماة والحفظة ولا عدة للمدينة على ما عليه الامر في السياسات الاخر بل على جهة ان تحصل الثروة للرئيس الاول. فان جعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة الثروة. وان لم يجعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة التغلب وكانوا بمنزلة العبيد للرئيس الاول. وكانت محاماته عنهم بمنزلة محاماة الانسان عن عبيده. واما جودة التسلط فهو التسلط الذي

يكونُ على طريقِ الأدبِ والاقتداء بما توجبهُ السُنّةُ فانّ الذين يُشيرون بما توجبهُ السُنّةُ هم مُتسلّطون بجودةِ التسلّطِ. وهذا هو التسلّطُ الذي يحصلُ بهِ صلاحُ حالِ اهلِ المدينةِ والسعادةُ الانسانيّةُ. ولذلك كانَ هؤلاء اهلَ فضائلَ واقتدارٍ على الافعالِ التي تُصلِحُ المدينةَ واهلَ حزمٍ وتحرّزٍ مما شأنهُ ان يُفسِدَ المدينةَ من خارجٍ او من داخلٍ. ولذلك سُمّيت هذهِ المدينةُ بهذا الاسمِ. وهذا التسلّطُ الذي ذكرهُ صنفانِ رئاسةُ الملكِ وهي المدينةُ التي تكونُ آراؤها وافعالها بحسبِ ما توجبهُ العلومُ النظريّةُ. والثانيةُ رئاسةُ الاخيارِ وهي التي تكونُ افعالها فاضلةً فقط. وهذهِ تُعرفُ بالامامية ويقالُ انها كانت موجودةً في الفرسِ الاولِ فيما حكاهُ ابو نصرٍ

(قال) واما وحدانيّةُ التسلّطِ فهي الرئاسةُ التي يحبُّ الملكُ ان يتوحّدَ فيها بالكرامةِ الرئاسيّةِ والّا ينقصهُ منها شيءٌ بان يُشاركهُ فيها غيرهُ وذلك بضدِّ مدينةِ الاخيارِ. وهذهِ المدنُ ربّما كانتِ السُنَنُ الموضوعةُ فيها محدودةً غيرَ متبدّلةٍ واحدةً في الدهورِ على ما عليهِ الامرُ في سُنّتنا الاسلاميّةِ. وربّما كانت غيرَ ذاتِ سُنَنٍ محدودةٍ بل يُفوَّضُ الامرُ فيها الى المتسلّطينَ عليها بحسبِ الانفعِ في وقتٍ وقتٍ على ما عليهِ الامرُ في كثيرٍ من سُنَنِ الرومِ اليومَ

(قال) وليسَ ينبغي ان يخفى علينا من هذا الذي رسمنا بهِ هذهِ

السياسات غايةَ كلّ واحدة منها لأنّا اذا عرفنا الغاية علمنا الأشياء المختارة من اجل الغاية فغاية السياسة الجماعية الحرّية. وغاية خسّة الرئاسة الثروة وغاية جودة التسلط الفضيلة والتمسك بالسنّة . وغاية الوحدانية الكرامة والسياسات التي ليس يوضع فيها سنن غير متبدلة فغاية واضعها هو التحفظ والاحتراس من الخلل الواقع في السنن بتبدل الأزمنة والأمكنة. وينبغي ان تعلم ان هذه السياسات التي ذكرها ارسطو ليس تلفى بسيطة وانما تلفى اكثر ذلك مركبة كالحال في السياسة الموجودة الآن فانها اذا تؤملت توجد مركبة من فضيلة وكرامة وحرية وتغلب

(قال) واذا كانت اصناف السياسات معلومة عندنا فهو بيّن انا نستطيع ان نعرف الأخلاق والسنن التي تؤدي الى غاية كلّ واحدة من هذه السياسات اعني النافعة فيها وان نعتمد في انفسنا التخلق بتلك الأخلاق والتمسك بالصنف من السنن التي نروم الاقناع فيها. فانه انما تكون الأقاويل التي يحث بها على السنن مقنعة اذا كان المشيرون بها ذوي صلاح وحسن فعل حتى تكون هذه الأشياء المذكورة ها هنا معلومة لنا وموجودة فينا. فانه اذا وجد فينا الخلق الذي نحث عليه كان قولنا في الحث عليه اشد اقناعا ولذلك ينبغي الا نشير الا بما هو موجود لنا او نحن عازمون على ان يوجد لنا. ومعلوم ان الوقوف على السنن

اَلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ لِنَّهَا إِنَّمَا تُستَنبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَامَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَامَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسَهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وهي الامور الراجعة الى الاختيار

(قال) ومن اجل انه يعرض كثيرًا ان يمدح الناس والروحانيون بالفضيلة وباشياء غير الفضيلة وليس يعرض هذا في مدح هؤلاء فقط بل وفي مدح الاشياء المتنفسة وغير المتنفسة. اعني انها تمدح باشياء خارجة عن الفضيلة. فقد ينبغي ان نقول ها هنا في الاشياء التي تؤخذ منها المقدمات في المدح بالفضائل وبغير الفضائل ليكون القول في ذلك عامًا فنقول: ان الجميل هو الذي يختار من اجل نفسه وهو ممدوح وخير ولذيذ من جهة انه خير. واذا كان الجميل هو هذا فبين ان الفضيلة جميلة لا محالة لانها خير وهي ممدوحة. والفضيلة هي ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير او يظن به انه خير اعني الحافظة لهذا التقدير والفاعلة له. ولذلك كانت موجدة لكل فعل يقصد به نحو غاية ما جليل القدر عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه. فاما اجزاء الفضيلة فالبر اي العدل العام والشجاعة والمروءة والعفة وكبر الهمة والحلم والسخاء واللب والحكمة. وهذه الفضائل منها ما هي فضائل في ذات الفاضل فقط ومنها ما هي فضائل من جهة انها تفعل في اناس آخرين وهذه التي تفعل في اناس آخرين تكون اعظم عند قوم منها عند آخرين وفي حال دون حال. مثال ذلك ان فضيلة الشجاعة آثر في وقت الحرب منها في وقت السلم. واما فضيلة العدل فمؤثرة في السلم والحرب

جميعاً. وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويج آثر منها عند غير المحاويج. وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر لأن فعل كلتيهما هو في المال لكن المروءة هي فعل أكثر من فعل السخاء. فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطي الفاضل بها لكل امرئ من الناس ما يستحق وذلك بقدر ما تأمر به السنة. والجور هو الخلق الذي يأخذ به المرء الأشياء الغريبة التي ليس له أن يأخذها في السنة. وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالاً للأفعال الصالحة النافعة في الجهاد على حسب ما تأمر به السنة حتى يكون بفعله ذلك خادماً للسنة. وأما الجبن فضد هذا. وأما العفة ففضيلة يكون بها المرء في شهوات البدن على مقدار ما تأمر به السنة. والفجور ضد هذا. وأما السخاء ففضيلة تفعل الجميل المشهور في المال. والدناءة ضد هذا. وأما كبر الهمة ففضيلة يكون بها حسن الأفعال العظيمة وصغر النفس. والنذالة ضدها. وأما اللب ففضيلة العقل الذي يكون به حسن المشورة والروية مع وجود الفضائل الخلقية له التي هي من صلاح الحال. فهذا هو القول في الفضيلة وأجزائها بقدر ما يحتاج إليه في هذه الصناعة. وأما سائر الأشياء التي يمدح بها مما عدا الفضيلة فليس يعسر الوقوف عليها. وذلك أنه معلوم أن فاعلات الفضائل مثل التأدب والارتياض بالأشياء التي بها تحصل الفضائل هي أمور حسان وممدوح بها. وأما الأشياء التي توجد في الفضائل أنفسها أعني الأعراض التي توجد فيها. والأشياء التي توجد تابعة

لِلفَضَائِلِ فَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا ٱلآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ ٱلفَضَائِلِ وَٱعْرَاضُهَا ٱللَّاحِقَةُ لَهَا. وَٱفْعَالُهَا إِنَّمَا يُمدَحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً مَحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفْعَالِ ٱلفَضَائِلِ قَدْ لَا يُمدَحُ بِهَا وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلأَعْرَاضِ. فَمِثَالُ ٱلأَفْعَالِ وَٱلأَعْرَاضِ ٱلَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ أَفْعَالُ ٱلشُّجْعَانِ فِي ٱلحَرْبِ أَوْ مَنْ فَعَلَ فِي ٱلحَرْبِ فِعْلَهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذَلِكَ ٱلأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ ٱلشُّجْعَانَ مِمَّا يُمدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ ٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي لَا يُمدَحُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَذْلُ ٱلمَالِ فَإِنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ ٱلسَّخَاءِ لَكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ ٱلفِعْلُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبْذِيرِ. وَمِثَالُ ٱلأَعْرَاضِ ٱلَّتِي لَا يُمدَحُ بِهَا ٱنْفِعَالُ ٱلمَرْءِ عَنِ ٱلعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ ٱلعَدْلِ مَمْدُوحٌ وَأَمَّا ٱلِٱنْفِعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَمْدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَيْمٌ. وَبِٱلجُمْلَةِ فَأَفْعَالُ ٱلفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ ٱلعَدْلِ وَمِمَّا يُمدَحُ بِهَا ٱلأَفْعَالُ ٱلعَظِيمَةُ ٱلشَّاقَّةُ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلكَرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ ٱلأَفْعَالَ ٱلَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا ٱلكَرَامَةَ خَيْرٌ مِنَ ٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلمَالُ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى عَلَيْهِ بِٱلأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَفَعَلَهُ فَاعِلٌ مِنْ أَجْلِ ٱلكَرَامَةِ فَقَطْ مُدِحَ بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ ٱلمَرْءُ مِنَ ٱلفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ مُدِحَ بِهِ. وَفِعْلُ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقٍ كَذَلِكَ مِمَّا يُمدَحُ بِهِ. وَٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَّةً لِلفَاعِلِ يُمدَحُ بِهَا أَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ ٱلعَدْلِ فَإِنَّ ٱلعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

وَالْأَفعَالُ ٱلَّتِي تَختَصُّ بِإِكرَامِ ٱلْأَموَاتِ مَمدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلأَحيَاءِ إِنَّمَا يَقصِدُ مِنهَا ٱلْمَرْءُ أَكثَرَ ذٰلِكَ مَنفَعَةَ نَفسِهِ. وَبِالْجُملَةِ فَكُلُّ فِعلٍ كَانَ ٱلْمَقصُودُ بِهِ ٱلْغَيرَ وَلَم يَكُنْ يَنتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ أَو كَانَ يَلحَقُهُ مِنهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمدُوحٌ بِهِ. وَٱلْفِعلُ ٱلَّذِي يَكُونُ إِلَى ٱلْمُحسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمدُوحٌ بِهِ أَيضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدلٌ إِذ كَانَ لَيسَ يَنتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَن لَا يَفعَلَ ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي يَفتَضِحُ بِهَا أَهلُ ٱلْفَوَاحِشِ وَأَن يُؤَدِّبَهُم بِٱلْقَولِ وَٱلْفِعلِ. وَكَذٰلِكَ نُصرَةُ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَمَحمَدَتُهُم مِمَّا يُمدَحُ بِهِ. وَٱلْخَجَلُ عِندَ ذِكرِ ٱلْقَبَائِحِ مِمَّا قَد يَدُلُّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلْحَيَاءَ يَمنَعُهُ عَن إِتيَانِ تِلكَ ٱلرَّذِيلَةِ. وَقَد يَكُونُ أَيضًا عَدَمُ ٱلْحَيَاءِ عِندَ ذِكرِ ٱلْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَد يُظَنُّ أَنَّ ٱلْإِنسَانَ إِنَّمَا يَستَحِي عِندَ ذِكرِ ٱلْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَد فَعَلَهَا أَو نَالَهَا أَو هُوَ مُزمِعٌ أَن يَفعَلَهَا. مِثلُ مَا حَكَى أَرِسطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِامرَأَةٍ مَشهُورَةٍ بِٱلْحِكمَةِ عِندَهُم وَذٰلِكَ أَنَّ إِنسَانًا مَشهُورًا عَرَضَ لَهَا بِٱلْقَبِيحِ بِأَن قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَن أَقُولَ قَولًا يَمنَعُنِي عَنهُ ٱلْحَيَاءُ فَحَلُمَت عَنهُ وَلَم تُجِبهُ بِقَولٍ قَبِيحٍ وَلَم يُدرِكهَا مِن ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَت تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَولٍ كُلِّيٍّ (وَهُمَا صِنفَا ٱلتَّعرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلكَ ٱلْحَالِ جَعَلَت تَمَسُّ ٱلْفَضَائِلَ وَتَمدَحُ أَهلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُم وَتُحَامِي عَنهُم. وَكَانَ أَيضًا مَن مَعَهَا لَم يَأنَفُوا

ايضاً لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم ان مثلها لا يتّهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للاشياء التي تكتسب التمجد والمحاماة عنها قد تجعل المتعصب لها والمحامي عنها من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك اذا صارت له ملكة بترداد فعلها والتعصب لها والمحاماة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك ان امثال هذه الافعال قد يصير بها الانسان من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة

(قال) والانعام على الغير اذا لم يستفد المنعم منه شيئاً هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الانسان من جهة انهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام ايضاً من الاعداء والا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فان الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة ايضاً ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لانهما علامتان تدلان على ايثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. اما محبة الغلبة فتدل على ايثار الشجاعة. واما محبة الكرامة فعلى ايثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الاثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها الى اكتساب مال. لان ذلك يدل على شرف

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ إِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعْرِهِ لِأَنَّ ٱلْمَوْفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ ٱلشَّعْرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِأَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِأَنْ يُوهِمَ أَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالَ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذَٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وُجِدَ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ أَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذَٰلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذَٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذَٰلِكَ

ٱلْمَتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يُظَنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمْدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَا هُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمْدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا   يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمْدَحُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱتِّفَاقٍ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذَلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَخْجَلَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمْدَحُ ٱلْخَجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهَذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على انها حدثت عن الرويّة . والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الرويّة . فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل . واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح : ان الخيار يولد في الخيار . وفي الذم : ان الحية تلد الحية . والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل . واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما نمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطاً بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة . وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعاً في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين . وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان . ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكراً مطلقاً امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح . وذلك مثل ما يقول القائل

إنه ليس ينبغي أن يوجب العظم والفضل للأشياء التي تكون للإنسان بالعرض بل للأشياء التي تكون عن رويته واختياره . فاذا زيد الى هذا . فلذلك ليس ينبغي أن يمدح الذين سعادتهم بالبخت وانما ينبغي أن يمدح الذين سعادتهم عن روية واختيار كفلان كان داخلا في باب المدح . واذا زيد الى هذا فلذلك لا ينبغي أن تطلب الأشياء التي تكون عن الاتفاق بل الأشياء التي تكون عن الروية دخل في المشورة . والأشياء الاتفاقية قد يمكن أن تستعمل في المديح تارة وفي الذم أخرى . فان ظنون الناس فيها مختلفة فان قوما يرون أن الخيرات التي تكون بالاتفاق ليس ينبغي أن يمدح بها اذ كانت شيئا غير محصل ولا مكتسب للإنسان . وقوم يرون انه يجب أن يمدح بها وانها تدل على عناية إلهية بالذي تعرض له وأما الأشياء التي عن الاختيار فالممدوح منها يمدح به ابدا والمذموم منها يذم به ابدا

(قال) وينبغي أن يستعمل في المدح الأشياء التي يكون بها تعظيم الشيء وتشبيته وهو أن يخيل في الشيء أنه بالقوة أشياء كثيرة . وذلك اذا قيل إنه أول من فعل هذا كما قيل في قصة هابيل وقابيل . او إنه وحده فعل هذا . او إنه فعل في زمان يسير ما شأنه أن يفعل في زمان كثير . او إنه فعل فعلا كبيرا . فان هذه كلها انما تفيد عظم الفعل . وكذلك اذا قيل انه فعل في زمان يعسر فعله . وذلك اذا كان بحسب ما يشاكل إنسانا

إنساناً. ثم انه إن كان الفاعل ممن يقتدى به في افعاله واقواله مراراً كثيرة فإن فعله عظيم كما قيل: إنكم أيها الرهط ائمة يقتدى بكم. والافعال التي يقتدى بها ليست هي الافعال التي تكون بالاتفاق بل الافعال التي تكون عن المشيئة والروية. وهذه الاشياء قد يمكن ان تدخل في المشورة اعني الاشياء التي تعظم الشيء مثل ان يشار على المرء ان يتشبه بالممدوح الاول في ذلك الجنس او يتشبه به في المدح او يشار عليه ان يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع احد في حمدهم. مثل الذين يمدحون في الاسواق او يتشبه بهم في المدح. ومما يعظم الممدوحين ان يقاسوا بالذين يفعلون اضداد افعالهم وذلك عند ذكر افعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم ان يتشبهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا انفسهم معهم دائماً فقد ينبغي ان يشبهوا بأولائك وان يجروا مجراهم في المدح وان لم يكونوا وصلوا مراتبهم. فإن فضائلهم في نمو دائم. ومقايسة الانسان نفسه مع غيره لا تصح الا من الرجل الفاضل لموضع حب الانسان لنفسه فهو يرى نقائصه اقل من نقائص غيره وان كانت اعظم. ويرى فضائله اكثر وان كانت اصغر ولذلك ليس كل احد يستطيع المقايسة وانما يستطيعها الفضلاء من الناس مثل ما حكى ارسطو عن سقراط انه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الاحكام

عَلَى اَخْلَاقِ نَفْسِهِ. بِمَعْنَى اَنَّهُ كَانَ يَنظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَاِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً اَثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَاِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَٱلْمُقَايَسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ اَنْ يَتَزَيَّدَ فِي ٱلْفَضَائِلِ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ بِٱلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ اَمْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ اَعْنِي ٱلَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ. اَنَّ ٱلَّذِينَ اَجْهَدُوا اَنْفُسَهُمْ فِي اَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ ٱلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ تَعْظِيمَ ٱلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي ٱلْمَدْحِ. فَاِنَّ ٱلتَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَٱلتَّشْرِيفُ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي اِذَا اُرِيدَ ٱلتَّعْظِيمُ بِٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ فَاِنَّ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِاَجْنَاسِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلثَّلَاثَةِ اَنَّ ٱلتَّعْظِيمَ وَاِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِاَجْنَاسِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ ٱلثَّلَاثَةِ فَهُوَ اَخَصُّ بِٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ. لِاَنَّهُ اِنَّمَا يُمْدَحُ ٱلْاِنْسَانُ اَوْ يُذَمُّ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ ٱلشَّيْءِ اَخَصُّ بِٱلْمَوْجُودِ مِنْهُ بِٱلْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ اَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَاَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَلَامَاتِ وَٱلْمِثَالَاتِ فَهُوَ اَخَصُّ بِٱلْمَشُورَةِ لِاَنَّ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نُحْدَسُ عَلَى ٱلَّتِي سَتَكُونُ وَاِعْطَاءُ ٱلسَّبَبِ وَٱلْعِلَّةِ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ اَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِانْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَاَمَّا مَعْرِفَةُ ٱلْعَدْلِ وَٱلْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِٱلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ ٱلْمَدْحِ

وَالذَمّ اِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْمَحْمُودِينَ وَالْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَالذَّامّ اَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ الْمَدْحُ اَوِ الذَّمُّ اَعْنِي اَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ الْاَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ الْاَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَعْلَمَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا الْمَدْحَ وَالذَّمَّ وَهِيَ الَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ الْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَاَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ اَضْدَادِهَا اِذْ كَانَ الضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانى

(من كتاب صناعة الترسل)

اِنَّ التَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا اِلَّا بَسْطُ الْكَلَامِ وَالْاِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ اللهِ وَالتَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ اِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا اُعْطِيَ مِنَ النَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ الثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ الْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَاِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ الْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسَنَ وَصْفُهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ التَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسهِ)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِاسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصِدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَالثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْزُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِي بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِي فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْأَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ إِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ

البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ إِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِانْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجِلٌ إِذَا كَانَ سَبِطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَبِضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ أَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهِنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ أَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَإِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي أَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَأَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلرَّامِقِ وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا أَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إليهم ولا يجوز عنهم العدول بالشهادة على استطاعته وان ذلك المنظوم ابن ساعته. والبديهة ان يترل على هذه الطبقة قليلا ويفكر مقصرا لا مطيلا فان اطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية وخرجت من حد البديهة الى حد الروية وعند ذلك تقصر نهضة الاقتدار عن بلوغ ذلك المضار اذ المرتجل والباده يقنع منهما بالردي اليسير ولا يقنع من المروي الا بالجيد الكثير وكفاك في ذكرهما قول ابن المعتز :

وَالفِكرُ قَبلَ القَولِ يُؤمِنُ زَيغَهُ ... شَتّانَ بَينَ رَوِيَّةٍ وَبَديهِ

وقول ابن جريج :

نارُ الرَوِيَّةِ نارٌ تُلقَى مُنضِجَةٌ ... وَلِلبَديهَةِ نارٌ ذاتُ تَلويحِ

وَقَد يُفَضِّلُها قَومٌ لِعاجِلِها ... لَكِنَّها عاجِلٌ يَمضي مَعَ الريحِ

وحسبك بهرب امام الشعراء وفاتكهم من البديهة فما ظنك بالارتجال واذا كان عبد الله بن وهب الراسي رئيس الخوارج في يوم النهروان يقول وهو البدوي الفصيح والعربي الصريح اياكم والرأي الفطير والكلام القضيب يقول هذا في مطلق الكلام وهو غير مقيد بوزن ولا قافية فكيف الظن بالمقيد بهما لعمري انه لمقام يجبن فيه الشجاع ويكذب فيه رائد الفكر في طلب الانتجاع.

قال محمد كاتب ابراهيم وكان شاعرا راويا وطالبا للنحو علامة قال : سمعت ابا داود وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام.

فقالَ: تلخيصُ المعاني رفقٌ والاستعانةُ بالغريبِ عجزٌ والتشادقُ في غيرِ اهلِ البادِيةِ نقصٌ والنظرُ في عيوبِ الناسِ عِيٌّ ومسُّ اللحيةِ هلكٌ والخروجُ مما بُني عليهِ الكلامُ اسهابٌ (فقالَ) وسمعتهُ يقولُ رأسُ الخطابةِ الطبعُ وعمودُها الدُربةُ وحليها الاعرابُ وبهاؤها تخيرُ اللفظِ والمحبةُ مقرونةٌ بقلةِ الاستكراهِ وانشدني بيتاً في خطبةِ ايادٍ

يومونَ باللفظِ الخفيِّ وتارةً   رَمْيَ الملاحظِ خيفةَ الرقباءِ

(وقالَ) ابنُ الاعرابي قلتُ للفضلِ ما الايجازُ عندكَ قالَ حذفُ الفضولِ وتقريبُ البعيدِ (وتكلمَ) ابنُ السماكِ يوماً وجاريةٌ لهُ تسمعُ فلما دخلَ قالَ لها كيفَ سمعتِ كلامي قالتْ الى انْ تفهمهُ مَنْ لم يفهمهُ ملَّهُ مَنْ فهمهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظ

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرُّف)

قالَ ابنُ الجوزيِّ في المنتخبِ. لما كانتِ المواعظُ مندوباً اليها بقولهِ. فذكِّرْ فانَّ الذكرى تنفعُ المؤمنينَ وقولهِ لعمالهِ تعاهدوا الناسَ بالتذكرةِ. ولانَّ ادواءَ القلوبِ تفتقرُ الى ادويةٍ كما تحتاجُ امراضُ البدنِ الى معالجةٍ الفتُ في هذا

الفن كتبا تشتمل على اصوله وفروعه وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ الحسين بن علي وغيره مما اشرت اليه. وكذلك كانت الفقهاء في قديم الزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من الالفاظ والاسامي لا يخرج عن مرضاة الاوائل ولذلك ما اخذت من العلماء المذكورين من تحسين لفظ او تسجيع وعظ ولا يخرج من قانون الجواد وما ذاك الا بمثابة جمع القرآن الذي ابتدأ به ابو بكر وثنى به عثمان في شهر رمضان واذن لتميم الداري ان يقص ومثل هذه لا تذم لكونها ابتدعت اذ ليست تخارج عن الاصل المشروع وقال الحسن القصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض القدماء ان الوعظ حبل الله الممدود وعهده المعهود وظله العميم وصراطه المستقيم وحجته الكبرى ومحجته الوسطى وهو الواضح سبيله الراشد دليله الذي من استضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضل وهوى حجة الله وعهده ووعيده ووعده به يعلم الجاهل ويعمل العالم العامل ويتنبه الساهي ويتذكر اللاهي بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء الامور من فضائله انه يقرأ دائما ويكتب ويملى ولا يمل ما اهون الدنيا على من جعل الدين امامه وتصور الموت امامه قال بعض الحكماء الحكمة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

الحَيرةِ ومُحيية لها من موتِ الجهالةِ ومُستخرجة لها من ضيقِ الضلالةِ والعلمُ دواءٌ للقلوبِ العليلةِ ومُشحذٌ للأذهانِ الكليلةِ ونورٌ في الظلمةِ وأنسٌ في الوحشةِ وصاحبٌ في الوحدةِ وسميرٌ في الخلوةِ ووصلةٌ في المجلسِ ومادّةٌ للعقلِ وتلقيحٌ للفهمِ ونافٍ للعيِّ المُزري بأهلِ الأحسابِ المُقصِّرِ بذوي الألبابِ انطقَ اللهُ سبحانهُ اهلهُ بالبيانِ الذي جعلهُ صفةً لكلامهِ في تنزيلهِ وأيّدَ رسُلهُ ايضاحاً للمشكلاتِ وفصلاً بينَ الشبهاتِ شرُفَ بهِ الوضيعُ واعزَّ بهِ الذليلَ وسوّدَ بهِ المسوّدَ من تحلّى بغيرهِ فهو معطَّلٌ ومن تعطّلَ منهُ فهو مغفّلٌ لا تبليهِ الايامُ ولا تخترمهُ الدهورُ يتجدّدُ على الابتذالِ ويذكو على الانفاقِ للهِ على من بهِ من عبادهِ الحمدُ والشكرُ. قيلَ لعمرو بن عُبيدٍ ما البلاغةُ قالَ ما بلّغكَ الجنّةَ وعدلَ بكَ عن النارِ وبصّركَ مواقعَ رشدكَ وعواقبَ عملكَ. قالَ السائلُ ليسَ هذا اريدُ قالَ من لم يحسنْ ان يسكتَ لم يحسنْ ان يستمعَ ومن لم يحسنِ الاستماعَ لم يحسنِ القولَ قالَ ليسَ هذا اريدُ قالَ: قالَ النبيُّ انّا معشرَ الانبياءِ فينا بُكْءٌ اي قلّةُ الكلامِ وكانوا يكرهونَ ان يزيدَ منطقُ الرجلِ على عقلهِ. قالَ السائلُ ليسَ هذا اريدُ. قالَ: كانوا يخافونَ من فتنةِ القولِ ومن سقطاتِ الكلامِ ما لا يخافونَ من فتنةِ السكوتِ وسقطاتِ الصمتِ. قالَ: ليسَ هذا اريدُ. قالَ عمرو: يا هذا فكأنّكَ تريدُ تخيّرَ اللفظِ في حسنِ الافهامِ. قالَ: نعم. قالَ: انّكَ ان اردتَ تقريرَ حجّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في عقولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤُونَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَتْبُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُتَحَرِّجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِأَعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: اِقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : اَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَاَعْمَالٌ تُخَالِفُ . وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ اُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ ٱلْمَوْعِظَةِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَجُنُوحَ ٱلنَّفْسِ اِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى ٱلْاِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَٱلشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَٱلْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ اِلَّا اَنْ تَلَقَّاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ ٱلْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ ٱلْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيَفْتَحُ لَكَ بَابَ ٱلتَّوْبَةِ وَيُوضِحُ لَكَ سَبِيلَ ٱلْاِنَابَةِ (قَالَ ٱلنَّبِيُّ) حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ ٱلنَّارُ بِٱلشَّهَوَاتِ يُرِيدُ اَنَّ ٱلطَّرِيقَ اِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱحْتِمَالُ ٱلْمَكْرُوهِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلطَّرِيقَ اِلَى ٱلنَّارِ رُكُوبُ ٱلشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ ٱلْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ اِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) ٱلْكَلِمَةُ اِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱلْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي ٱلْقَلْبِ وَاِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ ٱلْآذَانَ . وَقَالُوا مَا اَحْسَنَ ٱلتَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ ٱلْمَلِكِ اَحْسَنُ . وَمَا اَحْسَنَ ٱلدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ ٱلْفَتَاةِ اَحْسَنُ وَمَا اَحْسَنَ ٱلْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ ٱلْفَاضِلِ ٱلتَّقِيِّ اَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) اَيُّهَا ٱلنَّاسُ لَا يَمْنَعُكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا اَنْ تَنْتَفِعُوا بِاَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَاِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرَكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِعُقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبَهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

حقرْ لها ماء يريها بداءة   وأضمن لها حوضاً وان لم تحفر
وأدبأ بنفسك عن تسامح بائع   واغنم اذا سامتك شهوة مشتري

قالوا الوعظ يضرب وجه النفس عن التبسط في بساط اللذات وينقل خطراتها عن الخطو في ملعب الخطيئات ويمثل لها الصبر عياناً ويبين العواقب المحجبة بياناً وينشي سحاب الحزن في اجواف اجزائها ويذكرها بآلها وآتيها ويعرض عن مصارع فنائها وخراب بنائها وفراق حبائبها وابنائها عند نزول هادم اللذات بفنائها فترجع الى الله تعالى بحكم الاضطرار افكارها وتخشع من خيفة الله تعالى وجلاله ابصارها والوعظ يكون بلسانين ويوجد فنين لسان حال ولسان مقال وربما كان لسان الحال ابلغ وهو يسمع من القبور الموحشة والقصور الخالية والعظام البالية وفيه حكايات واخبار . ولسان مقال كقوله سبحانه وتعالى وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين وضمن فصولها الكتاب المبين والسوط الذي يخيل على الاوبة ويسوق دود المتطهرين الى غدير التوبة ونحن نجعله هينمة بين يدي الفراسة لتذكية النفوس ان صدق حكم الفراسة من ذاك فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ

البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلإِنسانُ مَوضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسيانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهولِ وَٱلغَفلَةِ لِمَا يَعتَورُهُ وَيَكتَنِفُهُ مِنَ ٱلأَهواءِ وَٱلشَّهَواتِ ٱلَّتي بِٱتِّباعِها وَٱلٱنقِيادِ مَعَها يَدخُلُ ٱلٱختِلالُ عَلَى ٱلنِّظامِ ٱلكُلِّيِّ وَٱلمَصلَحَةِ ٱلعامَّةِ ثُمَّ يَسْري بِغايَةِ ٱلسُّرعَةِ إِلَى ٱلنِّظاماتِ ٱلجُزئِيَّةِ وَٱلمَصالِحِ ٱلخاصَّةِ فَيُصبِحُ ٱلغَنِيُّ فَقيرًا وَٱلقادِرُ عاجِزًا وَٱلشُّجاعُ جَبانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلفَطِنُ بَليدًا وَيَصيرُ ٱسمُ ٱلبَهائِمِ أَولَى بِهِم مِنِ ٱسمِ ٱلأَناسِيِّ بَل كانَتِ ٱلبَهائِمُ أَحسَنَ حالًا مِنهُم كَما سَلَفَ وَكانُوا مَوضِعَ قَولِهِ: إِن هُم إِلَّا كَٱلأَنعامِ بَل هُم أَضَلُّ سَبيلًا. تَعَيَّنَ أَن يَصحَبَهُ مُذَكِّرٌ دائِمٌ وَواعِظٌ مُستَمِرٌّ يَهديهِ إِلَى قَصدِ ٱلسَّبيلِ وَجادَّةِ ٱلمَحَجَّةِ كُلَّما جارَت بِهِ ٱلخَيالاتُ ٱلفاسِدَةُ وَٱلوَساوِسُ ٱلرَّديئَةُ. وَلِتَحصيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلأَمرُ في قَولِهِ وَلتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدعونَ إِلَى ٱلخَيرِ. فَقَد أَبانَ أَن لا صَلاحَ لِلكافَّةِ إِلَّا بِوُجودِ أُمَّةٍ تَكونُ وَظيفَتُها دُعاءَ ٱلنّاسِ لِلخَيرِ وَصَرفَهُم عَن ناحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمرَهُم بِٱلمَعروفِ وَنَهيَهُم عَنِ ٱلمُنكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقدارِ هٰذِهِ ٱلأُمَّةِ إِذا وُجِدَت وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِها وَفَضلِ مَكانِها حَيثُ جَعَلَها مُختَصَّةً بِٱلفَلاحِ

وَالْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ الصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ التَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ الْوَظِيفَةِ وَالْقِيَامُ بِهَا حَقَّ الْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ الْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ الشَّرِّ فَرُبَّمَا اشْتَبَهَ الْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ الْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ الْخَيْرِ مِنَ الشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ الْأَسَاسُ الضَّرَرَ وَالنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي الْحَالِ نَافِعٌ فِي الْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي الْحَالِ ضَارٌّ فِي الْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا اجْتَمَعَتِ الْمَضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ وَاسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ الِاحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِاشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ النَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِالْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِالنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ الدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ الطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ اسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى السَّارِقِ وَالْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بغيرِهِ ما لا يستجيزُ ان يفعلهُ بهِ غيرهُ . فمتى سُرق مالهُ او اغتصب منهُ وجد بذلك في قلبهِ حرارةً وفي نفسهِ ضيقاً وتشوَّش فكرهُ واختلَّت حالهُ وبطل نظام سيرهِ . وهو لا يريد ذلك . بل يريد ان يدوم منشرح الصدرِ طيب النفس مستقيم الاحوالِ . فهو يحكم بقبح ذلك وحسن هذا . وان كان لا يعبّر عن ذلك لقصورهِ عن معرفة الالفاظ بالحلّ والحرمة . والى ذلك المعنى الاشارة بقولهِ الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ وبينهما امورٌ مشتبهاتٌ . وعلى هذهِ الامة ان تعرف المتجددات الزمانيَّة لتكون اعمالها مطابقةً للاحوال الحاضرة . فربَّ امرٍ يكون خيراً في عصرٍ فيضحي شرّاً في غيرهِ . وهل هذهِ الامة كائنةٌ او كانت . لا اثبت ذلك ولا انفيهِ حتى افاوضك الحديث فيهِ . ان قلت هذهِ الامة متحققةٌ في خطباء المنابرِ . قلت لك : أتريد بهم هؤلاء الذين تراهم وتسمعهم وهم انما تميَّزوا عن آخر طبقةٍ من طبقات العامة لتمكّنهم من قراءة نوعٍ من انواع الخط . فغايةُ امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خطبٍ صنَّفهُ بعض اسلافهِ كما تخيَّل مناسباً للشهور والمواسم فيتحفَّظ ما تعطيهِ تلك النقوش من موادّ الالفاظ . او ينسخ صورة خطبةٍ ليخف حملها عليهِ اذا قام بها خطيباً . يسرد الفاظاً حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها . كما اذا لم يكن الديوان مشكولاً ولم يقرإ الخطبة على ذي درايةٍ سمعت منهُ المعجب والمطرب من اللحن الفاحش والتصحيف القبيح . فانَّ منهم

مَنْ يَخافُ عَلى نَفسِهِ ٱنتِقادَ ٱلسّامِعينَ فَيَقرَأُ ٱلخُطبَةَ مِرارًا عَلى بَعضِ اهلِ ٱلمَعرِفَةِ حَتّى يَقِفَ عَلى صِحَّةِ ٱلنُّطقِ بِها. وَمِنهُم مَنْ يَقتَصِرُ عَلى تَصحيحِ ٱلحَديثِ احتِرامًا لِكَلامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّما قَرَأَهُ عَلى رَجُلٍ يُقيمُهُ لَهُ بِصِناعَةِ ٱلنَّحوِ فَيَضِلّانِ جَميعًا. اِذ لا عَمَلَ لِصِناعَةِ ٱلنَّحوِ اِلّا بَعدَ فَهمِ ٱلمَعنى. وَمِنهُم مَن لا يُبالي بِتَصحيحِ آيَةٍ وَلا حَديثٍ. ما اَظُنُّ اَنَّكَ تَستَجيزُ اَن تَقولَ اَرَدتُ هٰؤُلاءِ. فَاِن قُلتَ اِنَّما اَرَدتُ خُطَباءَ ٱلاَسلافِ قُلتُ لَكَ: تَجاوَزْ عَصرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصرَ اَصحابِهِ ثُمَّ ٱقرَأْ خُطَبَ ٱلخُلَفاءِ وَنُوّابِهِم في ٱلنَّواحي ثُمَّ ٱمضِ في ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعدَ طَبَقَةٍ وَعَصرًا خَلفَ عَصرٍ حَتّى تَنتَهِيَ اِلى وَقتِكَ هٰذا تَجِدْ اَنَّ جَميعَ ٱلخُطَبِ يَدورُ اَمرُها عَلى مَعانٍ واحِدَةٍ وَاَلفاظٍ مُعَيَّنَةٍ لا تُجاوِزُها. وَهِيَ ٱلتَّزهيدُ في ٱلدُّنيا وَٱلتَّرغيبُ في ٱلآخِرَةِ وَتَبشيرُ ٱلمُطيعِ وَاِنذارُ ٱلعاصي. يُكَرِّرونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمعَةٍ وَكُلَّ مَوسِمٍ حَتّى لَم يَبقَ لَهُ تَأثيرٌ وَٱلتَحَقَ بِالاُمورِ ٱلمُعتادَةِ. اِنَّما يَسمَعُ ٱلنّاسُ اَصواتًا ذاتَ كَيفِيّاتٍ مُختَلِفَةٍ اِقامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسمِ حَسبَما يَصِلُ اِلَيهِ فَهمُ ٱلعامَّةِ مِن اَنَّ تِلكَ ٱلصّورَةَ هِيَ اِقامَةُ ٱلدّينِ. وَفي صِفَةِ خُطَباءِ ٱلعَصرِ ٱلثّاني بَعدَ عَصرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصحابِهِ يَقولُ شاعِرُهُ:

وَذَمّوا لَنا ٱلدُّنيا وَهُم يَرضَعونَها … اَفاوِيقَ حَتّى ما يَدِرُّ لَنا ثُعَلُ

وَٱلثُّعَلُ بِفَتحِ اَوَّلِهِ اَو ضَمِّهِ وَسُكونِ ثانيهِ زِيادَةٌ في اَطباءِ ٱلنّاقَةِ وَغَيرِها تُشبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّديِ لا يَخرُجُ مِنها في ٱلعادَةِ لَبَنٌ. وَلا تَظُنَّ اَنّي اَنتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَباءَ ٱلعُصورِ ٱلاُولى فَاِنَّهُم كانوا يَرَونَ

كفاية ذلك لكثرة أهل المعرفة حين ذاك. وبالجملة فكيفما كان الحال في الخطابة فهي غير كافية في تحقق الدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلا تكون الأمة متحققة بخطباء المنابر. وإن قلت: إنما العلماء قلت: هذا قريب ولكن ننظر. أما علماء الصدر الأول جزاهم الله عن الدين والأمة خيرا فكان اشتغالهم بجمع الأصول وتنقيتها من الدخيل الذي بادر بإدخاله أهل النفاق والزندقة لأغراض شتى. منها التشكيك في الدين. ومنها التماس ما عند الملوك ومنها ابتناء منزلة في قلوب العامة إلى غير ذلك مما يحيط به من قرأ التواريخ وتأملها. واجتهادهم وبذل هممهم في تفريع الفروع وتقرير أحكام الحوادث ما كان منها وما لم يكن يفرض ويقدر حتى إذا وقعت الحادثة وجدت لها حكما حاضرا وأمرا كافيا في إنقاذ أعمالهم مانعا لهم عن راحة أبدانهم فكان الواحد منهم يقول لا ينال العلم براحة الجسم. وأما من خلفهم فكان إقبالهم على دواوين مشيختهم يهذبونها ويجيدون ترتيبها ويوضحون ما يحتاج للتوضيح منها ويستدركون عليهم ما فاتهم تخريجا على أصولهم التي قرروها إلى غير ذلك من الأعمال ناظما لهم في سلك سلفهم. فكان حكمهم واحدا لا يفرغ لهم وقت يشتغلونه في تعهد الناس ودعائهم إلى الخير كما هو وظيفة تلك الأمة. ثم جاء من بعد هؤلاء خلف اتخذوا الجدل شرعة والمنازعة سبيلا. وخرج بهم ذلك

إلى سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوماً ورجع بهم الى القدح في السلف وصار الاختلاف بين اهل المذاهب منشأ لعداوة إن لم تكن فوق العداوة بين اهل الاديان فليست دونها. فكثيراً ما كانت سبباً لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضاً حتى دخل بينهم الحكام لإصلاحهم وكانوا هم الاولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي ان يمكنوا منه غيرهم وصاروا احزاباً ينحاز كل حزب الى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل اهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل امر العلماء الى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم ارصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعاً لتعدي بعضهم على بعض وحسماً لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم اهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين امضوا صدور اعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من اسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب الى العلم واهله فصنفوا كتباً ملأوها احاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة واكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فأي مفسدة اكبر من ذلك وليس له سبب الا افتراق العلماء واهمالهم امر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

ٱلعداوةِ مُنتشِرًا يُخفيهِ ٱلضَّعفُ وتُظهِرُهُ ٱلقُوَّةُ كما ترى. فهل يسوغُ لكَ بعدَ معرفةِ هذا انْ تقولَ إنها ٱلعلماء. وإنْ قلتَ إنها ٱلوُعّاظُ قلتُ هذا اقربُ فإنَّ ٱلوعاظةَ كانتْ حِرفةً شائعةً وصناعةً فاشيةً كانَ اهلُها يتنافسونَها وكثيرٌ منهم اخذَ عليها ٱلرَّواتبَ مِنْ بُيوتِ ٱلأموالِ واكثرُهم كانَ يلمُّ بها ٱلقطعَ مِنَ ٱلعامَّةِ ٱلذينَ يحضُرونَ مجالسَهم. فكانَ ٱلواعظُ إذا فرغَ مِنْ كلامِهِ ٱلذي اعدَّهُ لذلكَ ٱلمجلسِ بسطَ منديلَهُ وطرحَ فيهِ كلٌّ ما سمحتْ بهِ نفسُهُ

وصُنِّفتْ لأجلِ ٱلوعاظةِ كتبٌ لقَّبوها بٱلمجالسِ تشتمِلُ على تفسيرِ آياتٍ مِن آياتِ ٱلتَّرغيبِ وٱلتَّرهيبِ وبعضِ احاديثَ صحيحةٍ وبعضِ اشعارٍ وحكاياتٍ مِنْ ذلكَ ٱلوادي. ونموذجُ ذلكَ ما تراهُ في ٱلمسجدِ ٱلحُسينيِّ بعدَ ٱلعصرِ في رمضانَ. وبٱلجملةِ فمحصولُ تلكَ ٱلكتبِ هوَ محصولُ خُطَبِ ٱلمنابرِ. وإنْ كانَ بعضُ اهلِ تلكَ ٱلصناعةِ وهمْ قليلٌ كانوا مِنَ ٱلفِطنةِ وٱلذكاءِ وبراعةِ ٱلمنطقِ وبلاغةِ ٱلعبارةِ بمكانٍ رفيعٍ. فإنَّ اكثرَهمُ ٱلقُصّاصُ ٱلجهلةُ ٱلذينَ غايةُ امرِ ٱلواحدِ منهم انْ يُلفِّقَ احاديثَ يضعُها او وضعَها غيرُهُ يُفرِحُ بها نفوسَ ٱلعامَّةِ بما يذكُرُ مِنْ كثرةِ ٱلثَّوابِ معَ قلَّةِ ٱلعملِ وما يهوِّنُ مِنْ امرِ ٱلمعصيةِ حتى يكونَ ذلكَ بمنزلةِ ٱلتَّحريضِ على ٱرتكابِ ٱلشَّهواتِ وٱلاسترسالِ معَ ٱلأهواءِ وطرحِ ٱلمبالاةِ ٱعتمادًا على ما ركزوهُ في نفوسِهم وشغلوا بهِ عقولَهم مِنْ كثرةِ اسبابِ ٱلمغفرةِ وسعةِ ٱلرَّحمةِ وعِظَمِ ٱلعفوِ إلى غيرِ ذلكَ. لا

يتكلمون في سواه حتى صار سببا قويا في خمود الطباع واستحكام الغفلة والانصراف عن تذكر معنى الاجتماع الانساني وتعقل ضرورة التعاون والتفكر في احكام اسباب التعارف والتواصل ومحاورة الناس بعضهم بعضا فيما يوجب عز الأمة وسعادتها وسرور آحادها وابتهاجهم بالتناصف وافضال الاقوياء على الضعفاء من ثمار قواهم فلا يتلاقون الا وصدورهم منشرحة وقلوبهم فرحة وثغورهم باسمة ووجوههم منبسطة . قد امن بعضهم غوائل بعض وتحققوا السلامة من مقاصد السوء والتماكر باستلاب الاموال وقهر النفوس وتسخير الاقوياء الضعفاء فيما يختصون به من اللذات ويحافظون عليه بجدران الصخور وابواب الحديد حتى كان ذلك مولدا في الناس كثيرا من خسيس الطباع التي تميل باصحابها نحو الاكتساب بجهة السرقة والسؤال بالضراعة والترامي على اعتاب المكثرين . وانت لذلك عارف واليه ناظر لا تجهل تلك الطوائف الكاسبة بهذه الوجوه الرديئة . واسوأها حالا واخسها عملا وابغضها مترددا هؤلاء الذين اطفأوا انوار عقولهم الخلقية واخمدوا لهب قواهم الطبعية وعطلوا جوارح ابدانهم بما يملأون به رؤوسهم من اشربة خرافات تخرج بهم من نوع الحيوان لا يجوز ان اقول من نوع الانسان يؤول امرهم الى الاحتياج وطلب المعاش بابدانهم وابدان انتقضت عنهم وشغلوا بها كثيرا من الفراغ اي ابدانهم وابدان نسلهم الى ان يطرحوا نفوسهم بين ايدي اهل المكاسب بطرق

الأعمالِ المُتعِبةِ والمحاولاتِ الشاقةِ . يُذكّرونهم ثوابَ الصدقاتِ ويُلحِفون في السؤالِ حتى تملَّ ذلك نفوسُهم ويضعفَ يقينُهم وتقسو قلوبُهم ويلتمسوا وجوهاً للطعنِ على تلك الطائفةِ لا يفرقون بين أهلِ النزاهةِ منهم وغيرِهم . فيكونُ القدحُ عاماً والاحتقارُ شاملاً . وجهةُ الاعتبارِ فيه أنَّ من نصبَ نفسَهُ لوظيفةِ الهدى ودعاءِ الناسِ الى الخيرِ يجبُ أن يكونَ أبعدَهم من التصنّعِ وأحرصَهم على الكمالِ . فإنَّ أدنى هفوةٍ منهُ تُسقِطُ اعتبارَهُ وتسهّلُ التهاونَ بهِ فلا يكونُ لكلامِهِ تأثيرٌ في القلوبِ ويصيرُ مجلسُهُ مسلاةً يُتلهَّى بحضورِهِ فكثيراً ما كانت تلك المجالسُ مواعِدَ لأهلِ الخلاعاتِ والمجونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلاً عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إنّا لا نعرفُ الخطبَ إلّا للعربِ والفرسِ . فأمّا الهندُ فإنّما لهم معانٍ مدوّنةٌ وكتبٌ مخلّدةٌ لا تُضافُ إلى رجلٍ معروفٍ ولا إلى عالمٍ موصوفٍ . وإنّما هي كتبٌ متوارثةٌ وآدابٌ على وجهِ الدهرِ سائرةٌ مذكورةٌ . ولليونانيين فلسفةٌ وصناعةُ منطقٍ وكانَ صاحبُ المنطقِ نفسُهُ عَييَّ اللسانِ غيرَ موصوفٍ بالبيانِ مع علمِهِ بتمييزِ الكلامِ وتفصيلِهِ ومعانيهِ وبخصائصِهِ . وهم يزعمونَ أنَّ جالينوس كانَ أنطقَ الناسِ ولم يذكروهُ بالخطابةِ ولا بهذا الجنسِ من

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ، إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى رَجَزِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْثَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْثِيَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَبَاؤُهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَلِيمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللّٰهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغِيلِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

الرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سِبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تُكِنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذَّرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) م ... وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

---

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ ٱلْخَيْرَ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يُحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ . وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُوَنَّقٍ . فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ . وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ . وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ . وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا . وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا . إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ . وَمَنْ مَاتَ فَاتَ . وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ . مَطَرٌ وَنَبَاتٌ . وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ . وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ . وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ . وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ . وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ . لَيْلٌ مَوْضُوعٌ . وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ . وَنُجُومٌ تَغُورُ . وَأَرَاضٍ تَمُورُ . وَبُحُورٌ تَمُوجُ . وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ . وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ . وَبِرٌّ وَآثَامٌ . وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ . وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ . أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ . ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ . وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ . إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا . وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا . لَيْلٌ دَاجٍ . وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ . وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ . وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ . مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ . أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا . أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا . أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى : خلت

بِاللهِ قَسَماً حَقّاً لَا آثِماً فِيهِ وَلَا حَانِثاً إِنَّ لِلهِ دِيناً هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبّاً لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالاً. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالاً. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِداً   لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا   تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا   يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ(١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا   لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةَ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقاً وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ   ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالَهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةَ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاءُ، فَأَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: أَحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ ٱللّٰهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ أَضْحَكَ الثَّكْلَى وَأَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ التَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَابْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيَلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَالْمُنْتَقَى مِنْ أَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمِلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا انْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلُبَابُ الْكَرَمِ

عَتَقِ مَنْظَرٍ وَجُودَةَ مَخْبَرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَةَ مَنْطِقٍ وَنَزَاهَةَ نَفْسٍ وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاخَرَتِ ٱلدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَامِهِمَا وَٱلْمَأْثُورِ مِنْ خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ أَيَامِ مَنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي ٱلصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ ٱلْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءِ ٱللّٰهِ ٱلْكِرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ ٱلصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي ٱلْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَعْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا وَكَمَالِ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ ٱلْمَأْمُونِ كَٱلنُّقْطَةِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْخَرْدَلَةِ فِي ٱلْقَفْرِ

أَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(من ابن خلدون)

إِعْلَمْ أَنَّ لِسَانَ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ. وَهُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ أَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ . وَفَنِّ ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ غَيْرُ ٱلْمَوْزُونِ. وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي ٱلْكَلَامِ. فَأَمَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلْمَدْحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ . وَأَمَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا . وَمِنْهُ ٱلْمُرْسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ إِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجزَاءً بَل يُرْسَلُ إِرسَالًا مِنْ غَيرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيرِهَا. وَيُستَعمَلُ فِي الخُطَبِ وَالدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الجُمهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا القُرآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ المَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الوَصْفَيْنِ وَلَيسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوقُ بِانْتِهَاءِ الكَلَامِ عِندَهَا. ثُمَّ يُعَادُ الكَلَامُ فِي الآيَةِ الأُخرَى بَعدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعنَى قَوْلِ القُرآنِ: اللّٰهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ الآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيسَتْ أَسجَاعًا وَلَا الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيضًا قَوَافٍ. وَأُطلِقَ اسْمُ المَثَانِي عَلَى آيَاتِ القُرآنِ كُلِّهَا عَلَى العُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأُمِّ القُرآنِ لِلغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ المَثَانِي. وَانْظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ المُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ الحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ الفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِندَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلفَنِّ الآخَرِ وَلَا تُستَعمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ المُخْتَصِّ بِالشِّعرِ وَالحَمْدِ وَالدُّعَاءِ المُخْتَصِّ بِالخُطَبِ وَالدُّعَاءِ المُخْتَصِّ بِالمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ. وَقَدِ اسْتَعمَلَ المُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعرِ وَمَوَازِينَهُ فِي المَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ الأَسجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الأَغرَاضِ وَصَارَ هٰذَا المَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الوَزْنِ. وَاسْتَمَرَّ

اَلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِٱسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِٱسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

اَلَّتِي يُعطَى فيها تجري مجرى الْجُودَةِ ان يقول اوّلاً ما فعل كلّ واحدٍ من الانواع الشعريّة وبماذا تتقوّم الاقاويل الشعريّة ومن كم شيء تتقوّم واَيما هي اجزاؤها التي تتقوّم بها وكم اصناف الاغراض التي تُقصَد بالاقاويل الشعريّة. وان يجعل كلامه من الاوائل التي لنا بالطبع في هذا المعنى. (قال) فكلّ شعرٍ وكلّ قولٍ شعريّ فهو اما هجاء واما مديح وذلك بيّنٌ باستقراء الاشعار وبخاصّةٍ اشعارهم التي كانت في الامور الاراديّة اعني الحسنة والقبيحة وكذلك الحال في الصنائع المحاكية لصناعة الشعر التي هي الضرب بالعيدان والزمر والرقص اعني انها معدّة بالطبع لهذين الغرضين. والاقاويل الشعريّة هي الاقاويل المخيّلة. واصناف التخييل والتشبيه ثلاثة اثنان بسيطان وثالثٌ مركّب منهما. اما الاثنان البسيطان فاحدهما تشبيه شيء بشيء وتمثيله به وذلك يكون في لسانٍ لسانٍ بالفاظٍ خاصّةٍ عندهم مثل كأنّ واخال وما اشبه ذلك في لسان العرب وهي التي تسمّى عندهم حروف التشبيه. واما اخذ الشبيه بعينه بدل الشبيه وهو الذي يسمّى الابدال في هذه الصناعة وذلك مثل قول الشاعر:

هو البحر من اي المواضع جئتَهُ

وينبغي ان نعلم انّ في هذا القسم تدخل الانواع التي يسمّيها اهل زماننا استعارةً وكنايةً مثل قول الشاعر:

وعُرِّيَ افراسُ الصِبا ورواحِلُهُ

إلا أن الكنايات أكثر ذلك هي إبدالات من لواحق الشيء . والاستعارة هي إبدال من مناسبه أعني إذا كان شيء نسبته إلى الثاني نسبة الثالث إلى الرابع فإبدال اسم الثالث إلى الأول وبالعكس . وقد تقدم في كتاب الخطابة من كم شيء تكون الإبدالات . وأما القسم الثاني فهو أن يبدل التشبيه مثل أن تقول : الشمس كأنها فلان أو الشمس هي فلان لا فلان كالشمس ولا هو الشمس

والصنف الثالث من الأقاويل الشعرية هو المركب من هذين

(قال) وكما أن الناس بالطبع قد يخيلون ويحاكون بعضهم بعضا بالأفعال مثل محاكاة بعضهم بعضا بالألوان والأشكال والأصوات وذلك إما بصناعة وملكة توجد للمحاكين وإما من قبل عادة تقدمت لهم في ذلك . كذلك توجد لهم المحاكاة بالأقاويل بالطبع والتخييل . والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفردا عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ . أعني الأقاويل المخيلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت

الأمرين جميعاً. والأمور الطبيعية إنما توجد للأمم الطبيعيين فإن أشعار العرب ليس فيها لحن. وإنما هي إما الوزن فقط وإما الوزن والمحاكاة معاً فيها. وإذا كان هذا هكذا فالصناعة المخيلة او التي تفعل فعل التخييل ثلاثة. صناعة اللحن وصناعة الوزن وصناعة عمل الأقاويل المحاكية وهذه الصناعة المنطقية التي ننظر فيها في هذا الكتاب. (قال): وكثيرًا ما يوجد من الأقاويل التي تسمى أشعارًا ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط كأقاويل سقراط الموزونة وأقاويل انبادقليس في الطبيعيات بخلاف الأمر في أشعار اوميروش فإنه يوجد فيها الأمران جميعا. (قال): ولذلك ليس ينبغي ان يسمى شعرًا بالحقيقة إلا ما جمع هذين. وأما تلك فهي ان تسمى اقاويل احرى منها ان تسمى شعرًا وكذلك الفاعل اقاويل موزونة بالطبيعيات هو احرى ان يسمى متكلماً من ان يسمى شاعرًا. وكذلك الأقاويل المخيلة التي تكون من اوزان مختلطة ليست اشعارا. وحكي ان كانت توجد عندهم اعني من اوزان مختلطة وهذا غير موجود عندنا فقد تبين من هذا القول كم هي اصناف المحاكاة ومن اي الصنائع تلتئم المحاكاة بالقول حتى تكون تامة الفعل

البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ ٱلمحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذلِكَ أَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلأَفْعَالِ ٱلإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هٰذَيْنِ أَعْنِي ٱلفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِٱلفَضَائِلِ وَٱلفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلأَرْذَلِينَ . وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلحَسَنِ وَٱلقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذَا ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ ٱلمحَاكُونَ لِلفَضَائِلِ أَعْنِي ٱلمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ. وَٱلمحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصَ طَبْعًا مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلمَدِيحُ وَٱلهَجْوُ . أَعْنِي مَدْحَ ٱلفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهٰذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ ٱلهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلمَدْحَ فَإِذَنْ بِٱلوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هٰذَانِ

ٱلفضلان اعني ٱلتحسين وٱلتقبيح وهذان ٱلفضلان إنما يوجدان للتشبيه وٱلمحاكاة ٱلتي تكون بٱلقول لا ٱلمحاكاة ٱلتي تكون بٱلوزن ولا ٱلتي تكون بٱللحن. وقد يوجد للتشبيه بٱلقول فصل ثالث وهو ٱلتشبيه ٱلذي يقصد به مطابقة ٱلمشبه به من غير ان يقصد في ذلك تحسين او تقبيح لكن نفس ٱلمطابقة وهذا ٱلنوع من ٱلتشبيه هو كالمادة ٱلمعدة لان يستحيل الى ٱلطرفين اعني انها تستحيل تارة الى ٱلتحسين بزيادة عليها وتارة الى ٱلتقبيح بزيادة ايضا عليها (قال) وهذه كانت طريقة اوميروش اعني انه كان يأتي في تشبيهاته بٱلمطابقة وٱلزيادة ٱلمحسنة وٱلمقبحة. ومن ٱلشعراء من اجادته انما هي في ٱلمطابقة فقط. ومنهم من اجادته في ٱلتحسين وٱلتقبيح. ومنهم من جمع ٱلامرين مثل اوميروش وتمثل في كل صنف من هؤلاء باصناف من ٱلشعراء كانوا مشهورين في مدنهم وسياستهم بٱستعمال صنف صنف من اصناف هذه ٱلتشبيهات ٱلثلاثة. وانت فليس يعسر عليك وجود مثالات ذلك في اشعار ٱلعرب وان كانت اكثر اشعار ٱلعرب انما هي كما يقول ابو نصر في ٱلنهم وٱلكريه. وذلك ان ٱلنوع ٱلذي يسمونه ٱلنسيب انما هو حث على ٱلفسوق ولذلك ينبغي ان يتجنبه ٱلولدان ويؤدبون من اشعارهم بما يحث فيه على ٱلشجاعة وٱلكرم. فانه ليس تحث ٱلعرب في اشعارها من ٱلفضائل على سوى هاتين ٱلفضيلتين وان كانت ليس تتكلم فيهما على طريق ٱلحث عليهما

وإنما تتكلم فيهما على طريق الفخر. وأما الصنف من الأشعار الذي المقصود به المطابقة فقط فهو موجود كثير في أشعارهم ولذلك يصفون الجمادات كثيرا والحيوانات والنبات. وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعرا إلا وهو موجه نحو الفضيلة أو الكف عن الرذيلة أو ما يفيد أدبا من الآداب أو معرفة من المعارف. فقد تبين من هذا القول أن أصناف التشبيهات ثلاثة أصول وأن فصولها ثلاثة وتبين ما هي هذه الفصول الثلاثة والأصناف الثلاثة. ويشبه إذا استقريت الأشعار أن يقع اليقين بأنه ليس ههنا صنف رابع من أصناف التشبيهات ولا فصل رابع من فصول تلك الأصناف

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قال) ويشبه أن تكون العلل المولّدة للشعر بالطبع في الناس علتين. أما العلة الأولى فوجود التشبيه والمحاكاة للإنسان بالطبع من أول ما ينشأ أعني أن هذا الفعل يوجد للناس وهم أطفال وهذا شيء يختص به الإنسان من دون سائر الحيوانات والعلة في ذلك أن الإنسان من بين سائر الحيوان هو الذي

يلتذ بالتشبيه للاشياء التي قد احسها و بالمحاكاة لها. والدليل على ان الانسان يسر بالتشبيه بالطبع ويفرح هو انا نلتذ ونسر بمحاكاة الاشياء التي لا نلتذ باحساسها وبخاصة اذا كانت المحاكاة شديدة الاستقصاء مثل ما يعرض في تصاوير كثير من الحيوانات التي يعملها المهرة من المصورين ولهذه العلة استعمل في التعليم عند الافهام والتخاطب الاشارات فانها اداة معينة على فهم الامر الذي يقصد تفهيمه لمكان ما فيها من الالتذاذ الذي هو موجود في الاشارات من قبل ما فيها من التخييل فتكون النفس بحسب التذاذها به اتم قبولا له. فان التعليم ليس انما يوجد للفيلسوف فقط بل والناس في ذلك مشاركة يسيرة مع الفيلسوف. وذلك انه يوجد التعليم بالطبع يصدر من انسان الى انسان بحسب قياس ذلك الانسان المعلم من الانسان المتعلم والاشارات لما كانت انما هي تشبيهات لامور قد احست فبين انها انما تستعمل لمواضع المسارعة الى الفهم والقبول له وانه انما يفهم بما فيها من الالتذاذ لموضع التخييل الذي فيها. فهذه هي العلة الاولى المولدة للشعر. واما العلة الثانية فالتذاذ الانسان ايضا بالطبع بالوزن والالحان فان الالحان يظهر من امرها انها مناسبة لوزن عند الذين في طباعهم ان يدركوا الاوزان والالحان فالتذاذ النفس بالطبع بالمحاكاة والالحان والاوزان هو السبب في وجود الصناعات الشعرية

وبخاصةٍ عند الفِطَر الفائقة في ذلك فإذا نشأت الأمة تولدت فيهم صناعة الشعر من حيث ان الاول يأتي منها اولًا بجزء يسير ثم يأتي من بعده بجزء آخر وهكذا الى ان تكمل الصناعات الشعرية . وتكمل ايضا اصنافها بحسب استعداد صنف صنف من الناس للالتذاذ اكثر بصنف صنف من اصناف الشعر. مثال ذلك ان النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشئ اولًا صناعة المديح اعني مديح الافعال الجميلة. والنفوس التي هي اخس من هذه هي التي تنشئ صناعة الهجاء اعني هجاء الافعال القبيحة وان كان قد يضطر الذي مقصده الهجاء للشرار والشرور ان يمدح الاخيار والافعال الفاضلة ليكون ظهور قبح الشرور اكثر اعني اذا ذكرها ثم ذكر بإزائها الافعال القبيحة. فهذا ما في هذا الفصل من الامور المشتركة لجميع الامم او للاكثر وسائر ما يذكر فيه فكله او جله مما يخص اشعارهم وعادتهم فيها وذلك انه يذكر اصناف الصناعات الشعرية التي كانت تستعمل عندهم وكيف كان منشأ واحدة واحدة منها بالطبع واي جزء هو المتقدم منها في الكون على اي جزء وبخاصة في صناعة المديح وصناعة الهجاء المشهورتين عندهم ويذكر مع هذا اول من ابتدأ صناعة صناعة من تلك الصنائع الشعرية المعتادة عندهم ومن زاد فيها ومن كملها بعد. وهو في هذا الباب يثني على اوميروش ثناء كثيرا ويعرف انه الذي اعطى مبادئ هذه الصنائع وانه لم يكن لاحد

قبله في صناعة المديح عمل له قدر يعتد به ولا في صناعة الهجاء ولا في غير ذلك من الصنائع المشهورة عندهم . قال والانقص من الاشعار والاقصر هي المتقدمة بالزمان لان الطباع اسهل وقوعا عليها اولا . والاقصر هي التي تكون من مقاطع اقل والانقص هي التي تكون من نغمات اقل ايضا . (قال) والدليل على ان هذه الانواع اسبق الى النفوس ان الناس عند المنازعات قد يرتجلون مصاريع من هذه في مجادلتهم وذلك عند الحرج . يريد فيما احسب مثل قول القائل : لا لا لا يمدّ بها صوته . ومثل قوله ليس هذا كذا مادًّا بها صوته فان امثال هذه المراجعات هي مصاريع موزونة ذات لحن واما التي هي اطول واتم فانما ظهرت باخرة كالحال في سائر الصنائع . (قال) وصناعة الهجاء ليس انما يقصد بها المحاكاة بكل ما هو شر وقبيح فقط بل وبكل ما هو شيء مستهزأ به اي مرذول قبيح غير مغتم به . (قال) والدليل على ان الاستهزاء يجب ان يجمع هذه الثلاثة الاوصاف انه يوجد في وجه المستهزيء هذه الاحوال الثلاثة اعني قباحة الوجه وهيئة الاستصغار وقلة الاكتراث بالمستهزإ به وذلك بخلاف وجه الغاضب اعني ان فيه قبحا واهتماما وتلك هي حالة نفس الغاضب على الشيء الذي يغضب عليه

البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِيجادُ صِناعَةِ ٱلمديحِ يَكُونُ تَعلُّمها فِي ٱلأَعارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلقَصِيرَةِ وَلِذَلِكَ رَفَضَ ٱلمتأخِّرُونَ ٱلأَعارِيضَ ٱلقِصارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُستَعمَلُ فِيهَا وَفِي غَيرِهَا مِنْ صَنائِعِ ٱلشِّعرِ. وَأَخصُّ ٱلأَوزانِ بِهَا هُوَ ٱلوَزنُ ٱلبَسِيطُ ٱلغَيرُ مُركَّبٍ وَلَكِنْ يَنبَغِي أَلَّا يُبلَغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُستَكرَهُ. وَٱلحَدُّ ٱلمُفهِمُ جَوهَرَ صِناعَةِ ٱلمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسبَةٌ وَمُحاكَاةٌ لِلعَمَلِ ٱلإِرادِيِّ ٱلفاضِلِ ٱلكامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلأُمورِ ٱلفاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلأُمورِ ٱلفاضِلَةِ مُحاكَاةً تَنفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفوسُ ٱنفِعالًا مُعتَدِلًا بِمَا يُولِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحمَةِ وَٱلخَوفِ وَذَلِكَ بِمَا يُخيِّلُ فِي ٱلفاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقاءِ وَٱلنَّظافَةِ فَإِنَّ ٱلمُحاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلهَيئاتِ ٱلَّتِي تَلزَمُ ٱلفَضائِلَ لَا لِلمَلَكَاتِ إِذْ لَيسَ يُمكِنُ فِيهَا أَنْ يُتَخيَّلَ. وَهَذِهِ ٱلمُحاكَاةُ بِٱلقَولِ تَكمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحنُ وَٱلوَزنُ وَقَدْ تُوجَدُ مِنَ ٱلمُنشِدِينَ أَحوالٌ أُخَرُ خارِجَةٌ عَنِ ٱلوَزنِ وَٱللَّحنِ تَجعَلُ ٱلقَولَ أَتَمَّ مُحاكَاةً وَهِيَ ٱلإِشاراتُ وَٱلأَخذُ بِٱلوُجوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتابِ ٱلخَطابَةِ. فَأَوَّلُ أَجزاءِ صِناعَةِ ٱلمَدِيحِ ٱلشِّعرِيِّ فِي ٱلعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحصَى

المعاني الشريفة التي بها يكون التخييل . ثم تكسى تلك المعاني اللحن والوزن الملائمين للشيء المقول فيه . وعمل اللحن في الشعر هو انه يعد النفس لقبول خيال الشيء الذي يقصد تخييله فكان اللحن هو الذي يفيد النفس الاستعداد الذي به يقبل التشبيه والمحاكاة للشيء المقصود تشبيهه . وانما يفيد النفس هذه الهيئة في نوع نوع من انواع الشعر اللحن الملائم لذلك النوع من الشعر بنغماته وتأليفه . فانه كما انا نجد النغم الحادة تلائم نوعا من القول غير الذي تلائمه النغمات الثقال كذلك ينبغي ان نعتقد في تركيب الالحان وهيئات المحدثين والقصاص التي تكمل التخييل الموجود في الاقاويل الشعرية انفسها من قبل هذه الثلاثة اعني التشبيه والوزن واللحن التي هي اسطقسات المحاكاة هي بالجملة هيئتان احداهما هيئة تدل على خلق وعادة كمن يتكلم كلام عاقل او كلام غضوب والثانية هيئة تدل على اعتقاد فانه ليس هيئة من يتكلم وهو متحقق بالشيء هيئة من يتكلم فيه وهو شاك . فالقاص والمحدث في المديح ينبغي ان تكون هيئة قوله وشكله هيئة محقق لا شاك وهيئة جاد لا هازل والقصص والحديث الذي ينبغي ان يعبر عنه القاص والمحدث وهو بهاتين الحالتين هو الخرافة التي تكون بالتشبيه والمحاكاة واعني بالخرافة تركيب الامور التي تقصد محاكاتها اما بحسب ما هي عليه في انفسها اعني في الوجود واما بحسب ما اعتيد في الشعر

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً: ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا: ٱلْعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِاسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً. وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتَغْنَى بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ. وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِاحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ وَٱلِاسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَصْنَافِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَأَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوطِئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يَنْتَقِلَ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاكِيَ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِاسْتِدْلَالِ . وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلأُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلأُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِأَنَّ ٱلِالْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلِالْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ . وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى صُوَرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلأَصْبَاغِ وَٱلأَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزِّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلِاعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلأَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِاعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطْبِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِاعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ .

إِنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إِقْنَاعِيٍّ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِٱحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تَعْرِفُ بِمَاذَا تُعْمَلُ ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا

البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فاذ قد قيل ما هي صناعة المديح وممَّاذا تلتئم وكم اجزاؤها وما هي فلنقل في الاشياء التي بها يكون حسن الامور التي يتقوم بها الشعر. فإنَّ القول في هذه الاشياء ضروريٌّ في صناعة المديح وفي غيرها وهو لها بمنزلة المبدإ وذلك أنَّ الامور التي تتقوَّم منها الصنائع صنفان امورٌ ضروريَّة وامورٌ تكون بها اتمَّ وافضل فنقول إنَّهُ يجب ان تكون صناعة المديح مستوفية الغايات فعلها اعني ان تبلغ من التشبيه والمحاكاة الغاية التي في طباعها ان تبلغها وذلك يكون باشياء احدها ان يكون للقصيدة عظمٌ ما محدودٌ تكون به كلًّا وكاملة والكلُّ والكامل هو ما كان لهُ مبدأٌ ووسطٌ وآخرٌ والمبدأُ قبلُ وليس يجب ان يكون مع الاشياء التي هو لها مبدأٌ والآخر هو مع الاشياء التي هو لها آخرٌ وليس قبلُ والوسط هو قبلُ ومعًا فهو افضلُ من الطرفين اذ كان الوسط في المكان قبلُ وبعدُ فإنَّ الشجعان هم الذين مكانُهم في الحرب ما بين مكان الجبناء والمتهورين وهو المكان الوسط وكذلك الحدُّ الفاضل في التركيب هو الوسط وهو الذي يتركَّب من الاطراف ولا تتركَّب الاطراف منهُ وليس يجب ان

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطَبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

العادة عند اليونانيين اذ كانوا انما يعتمدون الضمائر فقط واما بتأجيل الايام كالحال عندنا اذ كان المعتمد في الخصومات عندنا انما هي الاشياء المقنعة التي من خارج ولذلك لو كانت صناعة المديح بالمناظرة لكان يحتاج فيها الى تقدير زمان المناظرة بساعات الماء او غيرها. لكن لما لم يكن الامر كذلك وجب ان يكون لصناعة الشعر حد طبيعي كالحال في الاقدار الطبيعية للامور الموجودة وذلك انه كما ان جميع المتكونات اذ لم يعقها في حال الكون سوء البخت صارت الى عظم محدود بالطبع. كذلك يجب ان تكون الحال في الاقاويل الشعرية وبخاصة في صنفي المحاكاة اعني التي ينتقل فيها من الضد الى الضد او يحاكى فيها الشيء نفسه من غير ان ينتقل الى ضده (قال) ومما يحسن به قوام الشعر الا يطول فيه بذكر الاشياء الكثيرة التي تعرض للشيء الواحد المقصود بالشعر فان الشيء الواحد تعرض له اشياء كثيرة وكذلك يوجد للشيء الواحد المشار اليه افعال كثيرة (قال) ويشبه ان يكون جميع الشعراء لا يتحفظون بهذا بل ينتقلون من شيء الى شيء ولا يلزمون غرضا واحدا بعينه ما عدا اوميروش. وانت تجد هذا كثيرا ما يعرض في اشعار العرب والمحدثين وبخاصة عند المدح اعني انه اذا عن لهم شيء ما من اسباب الممدوح مثل سيف او قوس اشتغلوا بمحاكاته واضربوا عن ذكر الممدوح وبالجملة فيجب ان تكون الصناعة تتشبه بالطبيعة

اعني ان تكون انما تفعل جميع ما تفعله من اجل غرض واحد وغاية واحدة. واذا كان ذلك كذلك فواجب ان يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودا به غرض واحد وان يكون لاجزائه عظم محدود وان يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وان يكون الوسط افضلها فان الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام اذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر ايضا مما قيل من مقصد الاقاويل الشعرية ان المحاكاة التي تكون بالامور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى امثالا وقصصا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر انما يتكلم في الامور الموجودة او الممكنة الوجود لان هذه هي التي يقصد الهرب عنها او طلبها او مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. واما الذين يعملون الامثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء وان كانوا قد يعملون تلك الامثال والاحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك ان كليهما وان كانا يشتركان في الوزن فاحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وان لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الاحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل الا بالوزن فالفاعل للامثال المخترعة والقصص انما يخترع اشخاصا ليس لها وجود اصلا ويضع لها اسماء واما الشاعر فانما يضع اسماء لاشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر اقرب الى الفلسفة من صناعة اختراع الامثال وهذا الذي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْأَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكَيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا أَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ إِلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْإِقْنَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ وُقُوعًا أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ إِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلَّ ذَلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ . وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ ذَلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَا بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلمحاكاة وَهُوَ إِنَّمَا يعمل ٱلتَّشْبِيه لِلأُمُورِ ٱلإرادية ٱلمَوْجُودة وَلَيسَ مِن شرطه ان يحاكي ٱلأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَط بل وَقَد يحاكي ٱلأُمورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بها انها مُمكِنَةُ ٱلوُجُودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شاعِرٌ لَيسَ بِدُونِ ما هُوَ فِي محاكاةِ ٱلأُمُورِ ٱلمَوْجُودَةِ مِن قِبَلِ انَّهُ لَيسَ مانِعٌ يمنع ان توجد تِلكَ ٱلأَشياءُ عَلَى مِثلِ حالِ ٱلأَشياءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيسَ يَحتاجُ فِي ٱلتَّخييلِ ٱلشِّعرِيِّ الى مِثلِ هٰذِهِ ٱلخُرافاتِ ٱلمُختَرَعَةِ وَلَا ايضا يحتاجُ ٱلشاعِرُ ٱلمُفلِقُ ان تتم مُحاكاتُهُ بِالأُمُورِ ٱلَّتِي مِن خارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدعَى نِفاقًا وَاخذًا بِٱلوُجُوهِ فَانَّ ذٰلِكَ إِنَّما يَستَعمِلُهُ ٱلمُموِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَراءِ اعني ٱلَّذِينَ يَرَونَ انَّهُم شُعَراءُ وَلَيسُوا شُعَراءَ. وَامَّا ٱلشُّعَراءُ بِٱلحَقِيقَةِ فَلَيسَ يَستَعمِلُونَهُ إِلَّا عِندَ ما يُرِيدُونَ ان يُقابِلُوا بِهِ استِعمالَ شُعَراءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَامَّا إِذا قابَلُوا ٱلشُّعَراءَ ٱلمُجِيدِينَ فَلَيسَ يَستَعمِلُونَهُ اصلًا. وَقَد يُضطَرُّ ٱلمُفلِقُونَ فِي مَواضِعَ ان يَستَعِينُوا بِٱستِعمالِ ٱلأَشياءِ ٱلخارِجَةِ عَن عَمُودِ ٱلشِّعرِ مِن قِبَلِ انَّ ٱلمُحاكاةَ لَيسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوضِعٍ لِلأَشياءِ ٱلكامِلَةِ ٱلَّتِي تُمكِنُ مُحاكاتُها عَلَى ٱلتَّمامِ بَل لِأَشياءَ ناقِصَةٍ تَعسُرُ مُحاكاتُها بِٱلقَولِ فَيُستَعانُ عَلَى مُحاكاتِها بِٱلأَشياءِ ٱلَّتِي مِن خارِجٍ وَبِخاصَّةٍ إِذا قَصَدُوا مُحاكاةَ ٱلإعتِقاداتِ لِأَنَّ تَخيِيلَها يَعسُرُ إِن كانَت لَيسَت افعالًا وَلا جَواهِرَ وَقَد تَمزُجُ هٰذِهِ ٱلأَشياءَ ٱلَّتِي مِن خارِجٍ بِٱلمُحاكاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ احيانًا كَانَّها بِٱتِّفاقٍ مِن غَيرِ قَصدٍ فَيَكُونُ لَها فِعلٌ مُعجِبٌ إِذا كانَتِ ٱلأَشياءُ ٱلَّتِي شَأنُها ان تَقَعَ بِٱتِّفاقٍ مُعجِبَةً

(قال) وكثير من الاقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة الغير المتفننة وكثير منها انما تكون جودتها في نفس التشبيه والمحاكاة وذلك ان الحال في التشبيه كالحال في الاعمال فكما ان من الاعمال ما ينال بفعل واحد بسيط ومنها ما ينال بفعل مركب كذلك الامر في المحاكاة. والمحاكاة البسيطة هي التي يستعمل فيها احد نوعي التخييل اعني النوع الذي يسمى الادارة او النوع الذي يسمى الاستدلال. واما المحاكاة المركبة فهي التي يستعمل فيها الصنفان جميعا وذلك اما بان يبتدأ بالادارة ثم ينتقل منه الى الاستدلال او يبتدأ بالاستدلال ثم ينتقل منه الى الادارة والاعتماد هو ان يبدأ بالادارة ثم ينتقل منه الى الاستدلال فانه فرق كبير بين ان يبدأ اولا بالادارة ثم ينتقل الى الاستدلال او يبدأ بالاستدلال ثم ينتقل الى الادارة. (قال) واعني بالادارة محاكاة ضد المقصود مدحه اولا بما ينفر النفس عنه ثم ينتقل منه الى محاكاة الممدوح نفسه مثلا انه اذا اراد ان يحاكي السعادة واهلها ابتدأ اولا بمحاكاة الشقاوة واهلها ثم انتقل الى محاكاة اهل السعادة وذلك بضد ما حاكى به اهل الشقاوة. واما الاستدلال فهو محاكاة الشيء فقط (قال) واحسن الاستدلال ما خلط بالادارة. (قال) وقد يستعمل الاستدلال والادارة في الاشياء الغير المتنفسة وفي المتنفسة لا من جهة ما يقصد به عمل

أو تركه بل من جهة التخييل فقط أعني المطابقة . وهذا النوع من الاستدلال الذي ذكره هو الغالب على اشعار العرب أعني الاستدلال والإدارة في غير المتنفسة وهو مثل قول ابي الطيب:

كم زورة لك في الأعراب خافية
ادهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وانثني وبياض الصبح يغري بي

فان البيت الاول هو استدلال . والثاني ادارة ولما جمع هذان البيتان صنفي المحاكاة كانا في غاية من الحسن (قال) والاستدلال الانساني والادارة انما يستعملان في الطلب والهرب وهذا النوع من الاستدلال هو الذي يثير في النفس الرحمة تارة والخوف تارة وهذا هو الذي نحتاج اليه في صناعة مديح الافعال الانسانية الجميلة وهجو القبيحة (قال) فهذان الجزءان اللذان اخبرنا عنهما هما جزءا صناعة المديح وهاهنا جزء ثالث وهو الجزء الذي يولد الانفعالات النفسانية أعني انفعالات الخوف والرحمة والحزن وهو يكون بذكر المصائب والرزايا النازلة بالناس فان هذه الاشياء هي التي تبعث الرحمة والخوف وهو جزء عظيم من اجزاء الحث على الافعال التي هي مقصودة المديح عندهم

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَامَّا اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا. وَامَّا اَجزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ ٱلكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي اَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا ٱلمَعْنَى اَجزَاءً خَاصَّةً بِاَشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اَشْعَارِ ٱلعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ. ٱلجُزْءُ ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلمَدْحُ. وَٱلجُزْءُ ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلخَاتِمَةِ فِي ٱلخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلجُزْءُ اَكْثَرَ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ اِمَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَامَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلجُزْءُ ٱلاَوَّلُ اَشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلآخِرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلاِنْتِقَالَ مِنَ ٱلجُزْءِ ٱلاَوَّلِ اِلَى ٱلثَّانِي اسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اَتَوْا بِٱلمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ. مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ:

لَهَانَ عَلَيْنَا اَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اَجزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلكَيْفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلكَمِّيَّةِ فَقَدْ

أَخبَرْنَا بِهَا. فَأَمَّا مِنْ أَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ يُمْكِنُ عَمَلُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَنَحْنُ
مُخْبِرُونَ عَنهَا بَعْدُ وَمُضِيفُونَ ذٰلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ (قَالَ) وَيَنْبَغِي كَمَا
قِيلَ أَنْ لَا يَكُونَ تَرْكِيبُ ٱلْمَدَائِحِ مِنْ مُحَاكَاةٍ بَسِيطَةٍ بَلْ مَخْلُوطَةٍ
مِنْ أَنْوَاعِ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ وَأَنْوَاعِ ٱلْإِدَارَةِ وَمِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تُوجِبُ
ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلْمُخِيفَةَ ٱلْمُحَرِّكَةَ ٱلْمُرَقِّقَةَ لِلنُّفُوسِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ
تَكُونَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُقْصَدُ بِهَا ٱلْحَثُّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ مُرَكَّبَةً مِنْ
مُحَاكَاةِ ٱلْفَضَائِلِ وَمِنْ مُحَاكَاةِ أَشْيَاءَ مُخَوِّفَةٍ مُحْزِنَةٍ يُتَفَجَّعُ لَهَا وَهِيَ ٱلشَّقَاوَةُ
ٱلَّتِي تَلْحَقُ مِنْ عَدَمِ ٱلْفَضَائِلِ لَا بِٱسْتِيهَالٍ وَذٰلِكَ أَنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ
يَشْتَدُّ تَحَرُّكُ ٱلنَّفْسِ لِقَبُولِ ٱلْفَضَائِلِ فَإِنَّ ٱنْتِقَالَ ٱلشَّاعِرِ مِنْ مُحَاكَاةِ
فَضِيلَةٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَضِيلَةٍ أَوْ مِنْ مُحَاكَاةِ فَاضِلٍ إِلَى مُحَاكَاةِ لَا فَاضِلٍ
لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَحُثُّ ٱلْإِنْسَانَ وَيُزْعِجُهُ إِلَى فِعْلِ ٱلْفَضَائِلِ إِذَا
كَانَ لَيْسَ يُوجِبُ مَحَبَّةً لَهَا زَائِدَةً وَلَا خَوْفًا. وَٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ
يَجِبُ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا هٰذَانِ ٱلْأَمْرَانِ وَذٰلِكَ يَكُونُ إِذَا ٱنْتُقِلَ مِنْ
مُحَاكَاةِ ٱلْفَضَائِلِ إِلَى مُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَرَدَاءَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلنَّازِلَةِ بِٱلْأَفَاضِلِ
أَوِ ٱنْتُقِلَ مِنْ هٰذِهِ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ ٱلْفَضَائِلِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةَ
تُرِقُّ ٱلنُّفُوسَ وَتَدْعُهَا إِلَى قَبُولِ ٱلْفَضَائِلِ وَأَنْتَ تَجِدُ أَكْثَرَ ٱلْمُحَاكَاةِ
ٱلْوَاقِعَةِ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي ذُكِرَ إِذْ
كَانَتْ تِلْكَ هِيَ أَقَاوِيلَ مَدِيحِيَّةً تَدُلُّ عَلَى ٱلْعَمَلِ مِثْلُ مَا وَرَدَ
مِنْ حَدِيثِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَقَاصِيصِ ٱلَّتِي تُسَمَّى
مَوَاعِظَ (قَالَ) وَإِنَّمَا تَحْدُثُ ٱلرَّحْمَةُ وَٱلرِّقَّةُ بِذِكْرِ حُدُوثِ ٱلشَّقَاوَةِ

بِمَنْ لا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ. وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ. إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلْانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخَيُّلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلأَصْدِقَاءِ. وَأَمَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ أَوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخِيفَةُ ٱلْمُحْزِنَةُ مُخْرَجُهَا مُخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَاذِلَ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَإِمَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًّا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ أَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ إِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ أَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَعْدَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِثْلَ ٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلَ قَتْلِ ٱلْإِخْوَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلْآبَاءِ ٱلْأَبْنَاءَ أَوِ ٱلْأَبْنَاءِ ٱلْآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوْفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلْأُكْذُوبَاتِ أَدْخَلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى. وَأَمَّا ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وعن معروفين فما احسن الاستدلال الذي يكون في هذه الافعال (قال) فاما في حسن قوام الامور التي تركب منها الاشعار وكيف ينبغي ان يكون تركيبها فقد قلنا في ذلك قولا كافيا فاما اي العادات هي العادات التي ينبغي ان تحاكى في المدح فقد يجب ان نقول فيها فنقول ان العادات التي تحاكى عند المدح الجيد اعني الذي يحسن موقعها من السامعين اربعة احداها العادات التي هي خيرة وفاضلة في ذلك الممدوح فان الذي يؤثر في النفس هو محاكاة الاشياء الحق الموجودة في ذلك الممدوح وكل جنس ففيه خير ما وان كان فيه اشياء ليست خيرا. والثانية ان تكون العادات من التي تليق بالممدوح وتصلح له وذلك ان العادات التي تليق بالمراة ليست تليق بالرجل. والثالثة ان تكون من العادات الموجودة فيه على اتم ما يمكن ان توجد فيه من الشبه والموافقة. والرابعة ان تكون معتدلة متوسطة بين الاطراف وانما كان ذلك كذلك لان العوائد الرذلة ليس مما يمدح بها وكذلك العوائد التي لا تليق بالممدوح وان كانت جيادا وكذلك العوائد اللائقة اذا لم توجد على اتم ما يمكن فيها من المشابهة او لم توجد مستوفاة والعوائد التي هي خير وتدل على الخلق الخير الفاضل منها ما هي كذلك في الحقيقة ومنها ما هي كذلك في المشهور ومنها ما هي شبيهة بهذين والعوائد الجياد اما حقيقية واما شبيهة بالحقيقية واما مشهورة او شبيهة بالمشهورة وكل

هٰذِهِ تدخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِإِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِاُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ

يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسَّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

انواعٌ كثيرةٌ فمنها ان تكونَ المحاكاةُ لأشياء محسوسةٍ بأشياء محسوسةٍ من شأنها ان توقع الشكَّ لمن ينظرُ اليها وتُوهمُ انها هي لاشتراكها في احوالٍ محسوسةٍ وذلك مثلُ تسميتهم لبعضِ صورِ الكواكبِ سرطانًا ولبعضها مُمسِكَ الحربةِ لانها من جهةِ الشكلِ يُمكنُ ان يتوهَّمَ متوهِّمٌ انها هي هي. وجُلُّ تشبيهاتِ العربِ راجعةٌ الى هذا الموضعِ ولذلك كانت حروفُ التشبيهِ عندهم تقتضي الشكَّ وكلما كانت هذه المتوهَّماتُ اقربَ الى وقوعِ الشكِّ كانت اتمَّ تشبيهًا وكلما كانت ابعدَ من وقوعِ الشكِّ كانت انقصَ تشبيهًا وهذه هي المحاكاةُ البعيدةُ وينبغي ان تُطرحَ وذلك مثلُ قولِ امرىءِ القيسِ في الفرسِ:

كأنها هِراوةُ منوالِ

ومثلُ قولِه:

إذا اقبلتْ قلتُ دُبّاءةٌ ... من الخُضرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ

وإنْ ادبرتْ قلتُ أُثفيَةٌ ... مُلمْلَمةٌ ليس فيها اثرْ

وإنْ كانَ هذا اقربَ من الاولِ لانَّ فيهِ مُقابلةً ما. ومنها انْ تكونَ المحاكاةُ لأمورٍ معنويةٍ بأمورٍ محسوسةٍ اذ كانَ لتلكَ الأمورِ افعالٌ مناسبةٌ لتلكَ المعاني حتى توهمَ انها هي مثلُ قولِهم في المِنّةِ انها طوقُ العنقِ وفي الاحسانِ قيدٌ كما قالَ ابو الطيّبِ:

وَمَنْ وجدَ الاحسانَ قيدًا تقيّدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُتُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبًا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَاهُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفْقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كُفَارٍ وَشَوْشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اَدْخَلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمَقَالَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيْتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى
فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا
أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أبى الصبرُ إني لا يزالُ يهيجُني ميتٌ لنا فيما مضى ومقيلُ
إذا ما ياضُ الصبحِ آنستُ ضوءَه يعاودُني جنحٌ عليَّ ثقيلُ

وهذا النوعُ كثيرٌ في أشعارِ العربِ ومن هذا الموضعِ تذكُّرها الأحبةَ بالديارِ والأطلالِ كما قال:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

ويقربُ من هذا الموضعِ ما جرتْ بهِ عادةُ العربِ من تذكُّرِ الأحبةِ بالخيالِ وإقامتهِ مقامَ المتخيَّلِ كما قال شاعرُهم:

وإني لأستغشي وما بيَ نعسةٌ لعلَّ خيالاً منكِ يلقى خياليا
وأخرجُ من بينِ البيوتِ لعلَّني أُحدِّثُ عنكِ النفسَ في السرِّ خاليا

وتصرُّفُ العربِ والمحدثينَ في الخيالِ متفنِّنٌ وأنحاءُ استعمالِهم له كثيرةٌ ولذلكَ يشبهُ أن يكونَ من المواضعِ الشعريةِ الخاصةِ بالنسيبِ وقد يدخلُ في الرثاءِ كما قال البحتري:

خلا ناظري من طيفِهِ بعدَ شخصِهِ فيا عجباً للدهرِ فقدٌ على فقدِ

(قال) وأما النوعُ الرابعُ من المحاكاةِ فهو أن يذكرَ أنَّ شخصاً ما شبيهٌ بشخصٍ من ذلكَ النوعِ بعينِهِ وهذا التشبيهُ لا يكونُ إلا في الخَلقِ أو الخُلقِ مثلُ قولِ القائلِ جاءَ شبيهُ يوسفَ ولم يأتِ إلا فلانٌ ومن هذا قولُ امرئِ القيسِ:

وتعرفُ فيه من أبيه شمائلا

والتصريحُ بالتشبيهِ خلافُ التشبيهِ فإنَّ التشبيهَ هو إيقاعُ شكٍّ والتصريحَ بالشبيهِ بينَ اثنينِ هو تحقيقٌ لوجودِ الشبهِ وهو الغايةُ في

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ　　وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحَجْرٍ　　صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ　　وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكَ ٱلدَّوَّارَ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ　　لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ
مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ
وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ ايِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الدِّمَاءِ المَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَبِسْنَ الوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ ... وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ الجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ الغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ ... وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعَرِ الضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ وَهُوَ اِقَامَةُ الجَمَادَاتِ مُقَامَ النَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ اِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى النُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ ... وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ ... وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا البَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ الدِّيَارَ وَالاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اُبِثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

اَعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ ... حَتَّى تَكَلَّمَ كَالاَصَمِّ الاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالجِوَاءِ تَكَلَّمِي ... وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا المَوْضِعَ فِي كِتَابِ الخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَالاِسْتِدْلَالُ الفَاضِلُ وَالاِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلاَفْعَالِ

الإرادية. وأكثر ما يوجد هذا النوع من الاستدلال في الكتاب العزيز أعني في مدح الأفعال الفاضلة وذمّ الأفعال الغير فاضلة وهو قليل في أشعار العرب. ومثال الإدارة في المدح قول القرآن: ضرب الله مثلا كلمة طيبة إلى قوله: ما لها من قرار. ومثال الاستدلال. قوله: كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الآية.

(قال) وإجادة القصص الشعري والبلوغ به إلى غاية التمام إنما يكون متى بلغ الشاعر من وصف الشيء أو القضية الواقعة التي يصفها مبلغا يري السامعين له كأنه محسوس ومنظور إليه ويكون مع هذا ضده غير ذاهب عليهم من ذلك الوصف وهذا يوجد كثيرا في شعر الفحول والمفلقين من الشعراء لكن إنما يوجد هذا النحو من التخييل للعرب إما في أفعال غير عفيفة وإما فيما القصد منه مطابقة التخييل فقط فمثال ما ورد من ذلك في الفجور قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ومثال ما ورد من ذلك مما القصد به مطابقة التشبيه فقط قول ذي الرمة يصف النار:

وسقط كعين الديك عاورت صحبتي
أباها وهيأنا لموقعها وكرا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يَحْصُلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِٱسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ. وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا. وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حتّى أغادرَ كلَّ يومٍ بالفلا　　للطيرِ عيداً من بناتِ العيدِ
هيهاتَ منها روضةٌ محمودةٌ　　حتّى تُناخَ بأحمدَ المحمودِ

وكقولِ أبي الطيّبِ:

مرّتْ بنا بينَ تِربَيها فقلتُ لها
مِنْ أينَ جانسَ هذا الشادنُ العربا
فاستضحكتْ ثمّ قالتْ كالمُغيثِ يُرى
ليثَ الشرى وهو من عِجلٍ إذا انتسبا

وأمّا الحلُّ فهو موجودٌ كثيراً في أشعارِ العربِ مثلُ قولِ زهيرٍ:

دعْ ذا وعدِّ القولَ في هرِمٍ

(قالَ) وأنواعُ المدائحِ أربعةٌ ثلاثةٌ منها بسيطةٌ وهي التي تقدّمتْ أحدُها الإدارةُ. والثاني الاستدلالُ. والثالثُ الانفعالُ (قالَ) مثلُ ما يقالُ في أهلِ الجحيمِ فإنّ هذهِ مُحزِنةٌ مُفزِعةٌ. والرابعُ المركّبُ من هذهِ إمّا من ثلاثتِها وإمّا من اثنينِ منها وينبغي أنْ تعلمَ أنّ أمثالَ أنواعِ هذهِ المدائحِ الأربعةِ للفعلِ الإراديِّ الفاضلِ غيرُ موجودةٍ في أشعارِ العربِ وإنّما هي موجودةٌ في الكتابِ العزيزِ كثيراً (قالَ) ومنَ الشعراءِ من يُجيدُ القولَ في القصائدِ المطوّلةِ ومنهم من يُجيدُ الأشعارَ القصارَ والقصائدَ القصيرةَ وهي التي تُسمّى عندنا المقطّعاتِ والسببُ في ذلكَ أنّهُ لمّا كانَ الشاعرُ المجيدُ هو الذي يصفُ كلَّ شيءٍ بخواصّهِ وعلى كُنهِهِ وكانتْ هذهِ الأشياءُ تختلفُ بالكثرةِ والقلّةِ في شيءٍ شيءٍ من

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهٰؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هٰؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقْصِدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْإِنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلْإِنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱستيقن. وقد تقدّم لك في كتاب الخطابة الأقاويل الانفعالية الخطبية وضروب الانفعالات التي تفعلها هذه الأقاويل ولذلك كانت هذه الأفعال أخصّ بكتاب الخطابة منها بكتاب الشعر. والانفعالات التي تثبت بالقول الخطبي او الشعري هي الخوف والغضب والرحمة والتعظيم وسائر الأشياء التي عددت في كتاب الخطابة. وهو ظاهر انه كما ان ها هنا اقوالا توجب هذه الانفعالات كذلك ها هنا هيئات واشكال تدل من المتكلم على حضور الأشياء التي توجب هذه الانفعالات وانها قد وقعت لوقوع الأشياء الفاعلة لها فينفعل لذلك الناظر لها فهذه الصور والهيئات انما ينبغي ان تستعمل في الشعر ان استعملت مع الأقاويل الانفعالية الشعرية وذلك اما في التعظيم واما في التصغير واما في الأشياء المحزنة المخوفة اذ كانت هذه الأشياء هي التي تستعمل صناعة المديح من الأقاويل الانفعالية على ما سلف. وانما تستعمل هذه مع الأقاويل الانفعالية التي ليست صادقة اعني التي ليست هي ظاهرة التخييل. واما الأقاويل الانفعالية التي هي ظاهرة التخييل ومناسبة للغرض المقول فيه وهي حق فليس يحتاج ان تستعمل فيها هذه الأمور التي من خارج فانها تهجنها اذ كانت هذه انما تستعمل في الأقاويل التي تضعف ان تفعل ما قصد بها الا باقتران هذه الأشياء بها وهي الأقاويل الشعرية فان القائل من الفقهاء لعبد الرحمان الناصر يحضر الملا من اهل قرطبة يحرضه على حسداي اليهودي:

إنّ الذي شرفت من اجله ... يزعم هذا انه كاذب

لَمْ يَحْتَجْ فِي إِغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْأَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ. وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ. وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ. فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلْأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى .

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريَّة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ (قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ وَإِمَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ ٱلْإِسْتِعْمَالِ وَإِمَّا مُزَيَّنٌ وَإِمَّا مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ وَإِمَّا مُفَارِقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ. فَٱلْحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذَٰلِكَ مِثْلُ ٱلْإِسْتَبْرَقِ وَٱلْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلنَّادِرُ ٱلْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنَ ٱلنَّوْعِ إِلَى ٱلْجِنْسِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنَ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلنُّقْلَةِ حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْخِيَانَةِ سَرِقَةً وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ ٱلْقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلْعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذَٰلِكَ أَنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ إِلَى ٱلْعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلْعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّهَارِ وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْمُولُ ٱلْمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذَٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَأَكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ أَعْنِي ٱلْمَنْقُولَ إِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ اَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَامَّا ٱلْمُفَارِقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ اَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارِقِ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ اَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ ٱلْاَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ اَسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِاسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَإِنَّهُ فِيمَا اَحْسَبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱلِاسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَامَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ اِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَامَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَامَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَافْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ اِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُسْتَوْلِيَةَ وَٱلْاَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ . وَيَنْبَغِي اَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ ٱلْغَالِبِ عَلَى اَشْعَارِهِ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فهي الأقاويل التي تؤلف من الاسماء المبتذلة ومن الاسماء الأخر اعني المنقولة الغريبة المغيّرة واللغوية لانه متى تعرّى الشعر كله من الالفاظ الحقيقية المستولية كان رمزا ولغزا ولذلك كانت الالغاز والرموز هي التي تؤلف من الاسماء الغريبة اعني بالغريبة المنقول المستعار والمشترك واللغوي. والرمز واللغز هو القول الذي يشتمل على معان لا يمكن او يعسر اتصال تلك المعاني التي يشتمل عليها بعضا ببعض حتى يطابق بذلك احد الموجودات. ويكون اما بحسب الالفاظ المشهورة فاتصال تلك المعاني بعضها ببعض غير ممكن واما بحسب الالفاظ الغير المشهورة فممكن وذلك كثير في شعر ذي الرمة من شعراء العرب. وفضيلة القول الشعري العفيفي ان يكون مؤلفا من الاسماء المستولية من تلك الانواع الاخر وان يكون الشاعر حيث يريد الايضاح يأتي بالاسماء المستولية وحيث يريد التعجب والالذاذ يأتي بالصنف الآخر من الاسماء ولذلك قد يتضاحك بمن يريد الايضاح فيأتي بالاسماء المشتركة او الغريبة او الألسن او المعمولات ويتضاحك ايضا بمن يريد التعجب والالذاذ فيأتي بالاسماء المبتذلة وكان الشاعر يجب له الا يفرط في استعمال الاسماء الغير المستولية فيخرج الى حد الرمز ولا ايضا يفرط في الاسماء المستولية فيخرج عن طريقة الشعر الى الكلام المتعارف (قال) واما موافقة الالفاظ بعضها لبعض في المقدار

ومعادلة المعاني بعضها لبعض وموازنتها فأمر يجب أن يكون عاماً ومشتركاً لجميع الألفاظ التي هي أجزاء القول الشعري وذلك أنا نجد الشعراء وإن استعملوا الألفاظ الحقيقية في المواضع التي يجزأ بهم في استعمالهم إياها ليس يخلو شعرهم من هذين الأمرين أعني من الموازنة والموافقة في المقدار ولكن كان هذا عاماً لجميع أنواع الشعر. وأما الأشعار التي تأتلف من الأسماء المختلفة فوجود هذا المعنى فيها أبين وموافقة الألفاظ التي ذكر في المقدار هي مقارنة بعضها لبعض في عدد الحروف وإن وافقت مع هذا في كل اللفظ أو في بعض اللفظ فهو الذي يعرف بالمطابقة والمجانسة عند أهل زماننا. والموافقة أنحاء وذلك أنه لا تخلو الموافقة أن تكون في كل اللفظ وكل المعنى وهذا مثل قول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء

ومثل قولهم طويل النجاد طويل العماد. أو أن تكون في بعض اللفظ وبعض المعنى أو أن تكون في بعض اللفظ وكل المعنى أو تكون في كل اللفظ وبعض المعنى أو تكون في كل اللفظ فقط أو في بعض اللفظ فقط أو تكون في كل المعنى فقط أو في بعض المعنى فمثال الموافقة في بعض اللفظ وبعض المعنى الأسماء المشتقة من تصريف واحد وذلك مثل قول المتنبي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحَمْلِ وَٱلْحَمَلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلُ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وهو الاخير واما في حرفين وهو الذي يعرفهُ المحدثون بالزوم . واما الموازنة في اجزاء القول فهي على انحاء اربعة احدها ان يأتي الشاعر بالشيء وشبيهه مثل الشمس والقمر او يأتي بالاضداد مثل الليل والنهار او يأتي بالشيء وما يستعمل فيه مثل القوس والسهم والفرس واللجام او يأتي بالاشياء المناسبة مثل الملك والاله وهذه المناسبة انما تؤخذ من اربعة اشياء . وفي هذا الباب عيب على الكميت :

تكامل فيه الدلُّ والشنبُ

لانَّ الدلَّ غير شبيه بالشنب . ومن هذا الباب قال بعضهم في قول امرىء القيس :

كأني لم اركب جوادًا للذةٍ . ولم اتعرف كاعبًا ذات خلخالِ
ولم اسبإِ الزقَّ الرويَّ ولم اقل لخيلي كرّي كرةً بعد اجفالِ

انه غير مناسب وان التناسب فيه هو عكس ما فعل اعني ان يكون صدر البيت الاول صدر الثاني وصدر الثاني صدر الاول ومثل هذا قيل في قول ابي الطيب :

وقفت وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمرُّ بك الابطالُ كلمى هزيمةً
ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسمُ

انَّ التناسب فيه ان يكون صدر البيت الاول للثاني وصدر

الثاني للاول وما قاله ابو الطيب له وجه من التناسب وكذلك ما قاله امرؤ القيس (قال) والقول انما يكون مختلفا اي مغيّرا عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الاسماء متوافقة في الموازنة والمقدار وبالاسماء الغريبة وبغير ذلك من انواع التغيير. وقد يستدل على ان القول الشعري هو المغيّر انه اذا غيّر القول الحقيقي سمّي شعرا او قولا شعريا ووجد له فعل الشعر مثال ذلك قول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالاركان من هو ماسح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

انما صار شعرا من قبل انه استعمل قوله:

اخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الاباطح

بدل قوله تحدّثنا ومشينا وكذلك قوله:

بعيدة مهوى القرط

انما صار شعرا لانه استعمل هذا القول بدل قوله طويلة العنق وكذلك قول الآخر:

يا دار اين ظباؤك اللعس قد كان لي في انسها انس

انما صار شعرا لانه اقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها وابدل لفظ النساء بالظباء واتى بموافقة الانس والانس في اللفظ وانت اذا تأملت الاشعار المحركة وجدتها بهذه الحال. وما عدا هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشعرية الا الوزن فقط والتغييرات

تَكُونُ بِالْمُوازَنَةِ وَالْمُدافَعَةِ وَالْإِبْدالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْراجِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ الْعادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيادَةِ وَالنُّقْصانِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى الْإِيجابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقابِلِ إِلَى الْمُقابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ الْأَنْواعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنا مَجازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقائِلِ: فُلانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسانِ لا الْإِنْسانُ سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلا طائِرٌ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ وَمِثالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقائِلِ: ما فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الْكَتائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضائِلَ لِيَنْفِيَ الْعُيُوبَ وَاسْتَثْنَى مِنْها ما لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيراتِ اللَّذِيذَةِ جَمْعُ الْأَضْدادِ فِي شَيْءٍ واحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكَوْنُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدٍّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْواعُها الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ الْكُلِّيَّاتِ

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ إِحْصَاءُ أَنْوَاعِهَا ٱلْأَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبْيَنُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْأَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ ٱلْإِفْهَامِ فِعْلَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَعْنِي تَحْرِيكَ ٱلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ أَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلْإِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْإِبْدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ ٱلْقُدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ ٱلْخَيْطُ ٱلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلْفَجْرِ. (قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ ٱلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى ٱلْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ ٱلْعَبْشَمِيُّ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ أَمْرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْأَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَأَمَّا ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمَنْقُولَةُ ٱلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِٱلْأَشْعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْقِصَصِ ٱلْمَشْهُورَةِ

البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَفِيما قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَّا انَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ انَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ احْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ احْوَالِ ٱلْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تَنْتَقِلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْأَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَاثْنَى ثَنَاءً عَامًّا عَلَى اوميرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَأَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قالَ) وَأَجزاء هذا النوعِ هِيَ أَجزاء صِناعةِ المديحِ العفيفيّةِ مِنَ الإدارةِ وَالاستدلالِ وَالتركيبِ مِنها. وَرُبما كانَ بعضُ أَجزائِها انفعاليًا كالحالِ في صِناعةِ المديحِ . وَصنائعُ الشعرِ وَأَحكامُها في التلحينِ وَالغِناء أَحكامُ صِناعةِ المديحِ . وَذَكَرَ فُروقًا بينَ صِناعةِ المديحِ وَبينَ صنائعِ الشعرِ الأُخرِ عِنهم وَخواصَّ تختصُّ بها تِلكَ الأَشعارُ الأُخرُ في الأَوزانِ وَالأَجزاء وَالمحاكاةِ وَالقدرِ وَأَنَّ هاهُنا أَوزانًا هِيَ التي بِبعضِ الأَشعارِ مِن بعضٍ وَذَكَرَ مَنْ أَجادَ مِنَ الشعراء في هذهِ الأَشياء وَمَن لَمْ يُجِدْ وَأَثنى في هذا كُلِّهِ على أُوميرُوش وَكُلُّ ذلكَ خاصٌّ بِهِمْ وَغيرُ موجودٍ مِثالُهُ عِندَنا إِمَّا لِأَنَّ ذلكَ الذي ذَكَرَ غيرُ مُشتَرَكٍ لِلأَكثرِ مِنَ الأُمَمِ وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضَ لِلعربِ في هذهِ الأَشياء أَمرٌ خارِجٌ عَنِ الطبعِ وَهُوَ أَبيَنُ فإِنَّهُ ما كانَ لِيُثبِتَ في كِتابِهِ هذا ما هُوَ خاصٌّ بِهِمْ بَلْ ما هُوَ مُشتَرَكٌ لِلأُمَمِ الطبيعيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاتهُ

(من الكتاب نفسهِ)

وَيَنبغي أَنْ يَكونَ ما يأتي بِهِ الشاعِرُ مِنَ الكَلامِ يَسيرًا بِالإضافةِ إِلى الكَلامِ المُحاكى كَما كانَ يَفعلُ أُوميرُوش فإِنَّهُ إِنَّما كانَ يَعمَلُ صَدرًا يَسيرًا ثُمَّ يَتخلَّصُ إِلى ما يُريدُ مُحاكاتَهُ مِن غيرِ أَنْ يأتيَ في ذلكَ بِشيءٍ لَمْ يُعتَدْ لكِنْ ما قَدِ اعتِيدَ فإِنَّ غيرَ المُعتادِ

مُنكرٌ وانما قال ذلك فيما احسب لانَّ للامم في تشبيهاتهم عوائد خاصة مثل قول امرىء القيس :

يهيل ويذري تربها ويثيره ... إثارة نباث الهواجر مخمِس

وكذلك تشبيههم الضب بالنون لمكان السراب الموجود في بلادهم ومن هذا قوله : والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة (قال) ومتى طال الكلام وليس فيه تغيير ولا محاكاة فينبغي ان يعتنى في ذلك بإيراد الالفاظ البيّنة الدلالة وهي التي تدل على اشياء بأعيانها لا على اشياء متضادة او مختلفة وان يكون تركيبها على المشهور عندهم وتكون سهلة عند النطق. ويشبه ان يكون هذا هو اكثر ما يطلق عليه في لسان العرب اسم الفصاحة الا ان يكون ذلك القول ظاهر الصدق ومشهورًا فان الصدق الذي يتضمنه يشفع لما فيه من قلة الفصاحة وقلة التغيير والمحاكاة

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

والغلط الذي يقع في الشعر ويجب على الشاعر توبيخه فيه ستة اصناف. احدها ان يحاكي بغير ممكن بل ممتنع. ومثال هذا عندي قول ابن المعتز يصف القمر في تنقصه :

انظر اليه كزورق من فضة ... قد اثقلته حمولة من عنبر

فإنَّ هذا ممتنعٌ . وإنما آنسهُ بذلك شدةُ الشبهِ وإنهُ لم يقصد به حثٌّ ولا نهيٌ بل انما يجبُ ان يحاكى بما هو موجودٌ او يُظنُّ انهُ موجودٌ مثلُ محاكاةِ الأشرارِ بالشياطينِ او بما هو ممكنُ الوجودِ في الاكثرِ لا في الاقلِ او على التساوي فإنَّ هذا النوعَ من الوجودِ هو اليقُ بالخطابةِ منهُ بالشعرِ . والموضعُ الثاني من غلطِ الشاعرِ ان يحرّفَ المحاكاةَ وذلكَ مثلُ ما يعرضُ للمصوّرِ ان يزيدَ في الصورةِ عضواً ليس فيها او يصوّرهُ في غيرِ المكانِ الذي هو فيهِ كمن يصوّرُ الرجلينِ في مقدَّمِ الحيوانِ ذي الاربعِ واليدينِ في مؤخَّرهِ وينبغي ان يتفقَّدَ مثالُ هذا في اشعارِ العربِ وقريبٌ منهُ عندي قولُ بعضِ المحدَثينَ الاندلسيينَ يصفُ الفرسَ :

وعلى أُذَيْنهِ أُذنٌ ثالثٌ ... من سنانِ السمهريِّ الأزرقِ

والموضعُ الثالثُ ان يحاكيَ الناطقينَ باشياءَ غيرِ ناطقةٍ فإنَّ هذا ايضاً من مواضعِ التوبيخِ وذلكَ انَّ الصدقَ في هذهِ المحاكاةِ يكونُ قليلاً والكذبَ كثيراً الا ان يُشبَّهَ من الناطقِ صفةٌ مشتركةٌ للناطقِ وغيرِ الناطقِ وقد تؤنسُ بمثلِ هذا العادةُ مثلُ تشبيهِ العربِ النساءَ بالظباءِ وبقرِ الوحشِ . والموضعُ الرابعُ ان يُشبَّهَ الشيءُ بشبيهِ ضدّهِ او بضدِّ نفسهِ وذلكَ مثلُ قولِ العربِ سقيمةُ الجفونِ في الحسنةِ الغاضَّةِ النظرِ وقريبٌ منهُ قولهم :

راحوا كأنّهم مرضى من الكرمِ

وقولُ الآخرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلقَمِيصُ تَخَالُهُ   وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ أَضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقُرْءِ وَٱلْجَلَدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْإِقْنَاعِ. وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ:

وَمَا جُبِنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ   مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ:

ٱللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ   حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا   أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْأَحِبَّةُ فِيهِمِ   طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةُ أَغَالِيطَ وَسِتَّةُ تَوْبِيخَاتٍ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ ارِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ . وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ . وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ . وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَا هُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ ارِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ ابُو نَصْرٍ . وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ وَٱلطُّفَاوَةُ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا   وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي   وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا   فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَٱلْحَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى   قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ :

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا ... نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ . وَكَانَ اَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ اَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْاَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ اَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ اَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ اَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْاَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْاَصْغَرِ وَٱلْاَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ . وَٱسْمُ ٱلْاَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْاَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ . وَٱلْاَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحٰرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ . ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَاَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ اِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ اِلَى ٱلْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ اَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ اَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَاَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ . وَكَانَ ٱلْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ اَوْسٌ اَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وكان راوية اوس زهير وكان اوس زوج ام زهير (قال عمر بن شبة) في طبقات الشعراء: للشعر والشعراء اول لا يوقف عليه وقد اختلف في ذلك العلماء، وادعت القبائل كل قبيلة لشاعرها انه الاول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لانهم لا يسمون ذلك شعرا فادعت اليمانية لامرىء القيس وبنو اسد لعبيد بن الابرص وتغلب لمهلهل وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الاكبر واياد لابي دواد (قال) وزعم بعضهم ان الافوه الاودي اقدم من هؤلاء وانه اول من قصد القصيد (قال) وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون لعل اقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة او نحوها (وقال ثعلب في اماليه) قال الاصمعي: اول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر مهلهل ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ثم ضمرة رجل من بني كنانة والاضبط بن مرابع (قال) وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعمائة سنة وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير (وقال ابن خالويه في كتاب ليس) اول من قال الشعر ابن حذام (وقال ابن رشيق في العمدة): المشاهير من الشعراء اكثر من ان يحيط بهم عدد ومنهم مشاهير قد طارت اسماؤهم وسار شعرهم وكثر ذكرهم حتى غلبوا على سائر من كان في زمانهم ولكل احد منهم طائفة تفضله وتتعصب له وقلما تجتمع على واحد الا ما روي عن الرسول في امرىء القيس انه اشعر الشعراء وقائدهم الى النار يعني شعراء الجاهلية والمشركين

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ : وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ: أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ: عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ. وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمِنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ. وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفُ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ابْنُ ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنُصَيْبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحَرْثَ بْنَ حِلِّزَةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لتكون في خزانته (وقال الجمحي) سال عكرمة بن جرير اباه جريرا. من اشعر الناس قال: اعن الجاهلية تسالني ام الاسلام. قال: ما اردت الا الاسلام فاذ ذكرت الجاهلية فاخبرني عن اهلها قال: زهير شاعرهم (قال) قلت: فالاسلام قال: الفرزدق نبعة الشعر قلت: والاخطل قال: يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر قلت: فما تركت لنفسك قال: دعني فاني نحرت الشعر نحرا (وسئل) الفرزدق مرة: من اشعر العرب فقال بشر بن ابي خازم. قيل له: بماذا. قال: بقوله:

ثوى في ملحد لا بد منه كفى بالموت نأيا واغترابا

ثم سئل جرير فقال: بشر بن ابي خازم قيل: له بماذا قال بقوله:

رهين بلى وكل فتى سيبلى فشقي الجيب وانتحبي انتحابا

فاتفقا على بشر بن ابي خازم كما ترى (وكتب) الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يساله عن اشعر الشعراء في الجاهلية واشعر شعراء وقته فقال: اشعر الجاهلية امرؤ القيس واضربهم مثلا طرفة. واما شعراء الوقت فالفرزدق افخرهم وجرير اهجاهم والاخطل اوصفهم (واما الحطيئة) فسئل من اشعر الناس فقال ابو دؤاد حيث يقول:

لا اعد الاقتار عدما ولكن فقد من قد رزئته الاعدام

وهو كان فحلا قديما وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه

وَيْرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخْرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ أَفْسَدَتْهُ كَمَا أَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ أَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ. وَأَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا أَشُكُّ أَنِّي أَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو يَقُولُ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ: أَرْبَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ: ٱلنَّابِغَةُ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ: ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ أَحْمَرَ: زُهَيْرٌ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ: لَبِيدٌ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: طَرَفَةُ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ: عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْأَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلِٱتِّفَاقِ. وَكَانَ ٱبْنُ أَبِي إِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْأَكْبَرُ وَأَشْعَرُ ٱلْإِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ أَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: أَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَقِيلَ أَوْسَ بْنَ حَجَرٍ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ. وَاهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَاهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ اهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ احَدًا كَمَا انَّ اهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ احَدًا. قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ: قَالَ اهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ احْصَفَهُمْ شِعْرًا وَابْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَاجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ. وَامَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ احْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَاكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَاجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَانَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ. وَزَعَمَ اصْحَابُ ٱلْأَعْشَى انَّهُ اكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَاذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَاكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى اشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَايْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ انَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ: بِهَذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذَلِكَ انَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ امِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ اشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: ارَجُلًا امْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : اشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَاشْعَرُ هُذَيْلٍ ابُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ ابُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: افْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلسُنًا وَاعْرَبُهُمْ اهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَاوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

اَلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ الْأَزْدِ أَزْدِشَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو الْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ النَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ النَّاسِ سَافِلَةُ الْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ السَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ الْعَالِيَةِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ الشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِامْرِئِ الْقَيْسِ وَفِي الْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي الْمُوَلَّدِينَ بِالْحَسَنِ بْنِ هَانِىءٍ وَأَصْحَابِهِ. وَأَشْعَرُ أَهْلِ الْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ النَّاسِ وَاتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ: خُتِمَ الشِّعْرُ بِذِي الرُّمَّةِ وَالرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ. وَزَعَمَ يُونُسُ: أَنَّ الْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ الشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ الرَّجَزِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ الْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ الدِّيَارَ وَاسْتَوْقَفَ الرِّكَابَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى الشَّبَابِ وَوَصَفَ الرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ الشُّعَرَاءُ بِالْقَصِيدِ فَكَانَ فِي الْأُرْجَازِ كَامْرِئِ الْقَيْسِ فِي الشُّعَرَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ الرَّجَزِ الْأَغْلَبُ الْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ. وَزَعَمَ الْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ. وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ: وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ الرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ.

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: ٱفْتُتِحَ ٱلشِّعْرُ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَخُتِمَ بِٱبْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ٱلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَٱلْجَاهِلِيُّ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلْإِسْلَامِيُّ ذُو ٱلرُّمَّةِ وَٱلْمُوَلَّدُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْبَدِيعَ وَخَاصَّةً ٱلتَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأَعْشَى وَٱلْأَخْطَلُ وَأَبُو ٱلْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ ٱلْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِٱلتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ ٱلتَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ ٱلْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُدْرَةَ عَلَى ٱلصَّنْعَةِ وَٱلتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ ٱسْمًا مِنَ ٱلْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي ٱلِٱشْتِهَارِ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَطَارَ ٱسْمُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْحَسَنِ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ ٱلدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ٱبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ ٱلْآدَابِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ بِٱللّٰهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ ٱلظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ ٱلْمُحْدَثِينَ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نَدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّوْرِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفُرُشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ أَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَإِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ أَنَّ قَائِلًا أَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ أَيْ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْأَعْشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ   بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنُقُ

وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَإِنَّمَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مِنْ

ٱلشَّيْءِ أَحسنهُ وَيُلغي مَا لَا يُستحسنهُ فَلَيسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ أَقوَامًا أَرَادُوا أَنْ يرفعُوا أَنفُسهم ٱلوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكرِهِم ٱلخَامِلِ وَيُعلُوا أَقدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِٱلطَّعنِ عَلَى أَهلِ ٱلفَضلِ وَٱلقَدحِ فِيهِم فَلَا يَزدَادُونَ بِذٰلِكَ إِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزدَادُ ٱلآخَرُ إِلَّا ٱرتِفَاعًا. أَلَا تَرَى إِلَى ٱبنِ ٱلمُعتَزِّ قَد قُتِلَ أَسوَأَ قِتلَةٍ وَدَرَجَ فَلَم يَبقَ لَهُ خَلَفٌ يُقرِّظُهُ وَلَا عَقِبٌ يَرفَعُ مِنهُ وَمَا يَزدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعرِهِ وَفَضلِهِ وَحُسنِ إِخبَارِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلعُلُومِ إِلَّا رِفعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ إِلَى أَضدَادِهِ كُلَّمَا ٱزدَادُوا فِي طَعنِهِ وَتَقرِيظِ أَنفُسِهِم. وَأَسلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِثلَهُم فِي ثَلبِهِ وَٱلطَّعنِ عَلَيهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا أَشعَارَهُم وَقَرَّظُوا آدَابَهُم زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِم ٱلمُحَصَّلُ ٱلمُوَافِقُ عَدَلُوا عَن ثَلبِهِ فِي ٱلآدَابِ إِلَى ٱلتَّشنِيعِ بِأَمرِ ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُم أَوَّلُ مَن فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى آلِ أَبِي طَالِبٍ عِندَ ٱلمُكتَفِي حَتَّى نَهَاهُم عَنهُ فَعَدَلُوا عَن عَيبِ أَنفُسِهِم بِذٰلِكَ إِلَى عَيبِهِ وَٱرتَكَبُوا أَكثَرَ مِنهُ. وَكَانَ عَبدُ ٱللهِ حَسَنَ ٱلعِلمِ بِصِنَاعَةِ ٱلمُوسِيقَى وَٱلكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي ذٰلِكَ وَفِي غَيرِهِ مِنَ ٱلآدَابِ كُتُبٌ مَشهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَت بَينَهُ وَبَينَ عُبَيدِ ٱللهِ بنِ عَبدِ ٱللهِ بنِ طَاهِرٍ وَبَينَ بَنِي حَمدُونَ وَغَيرِهِم تَدُلُّ عَلَى فَضلِهِ وَغَزَارَةِ عِلمِهِ وَأَدَبِهِ وَلَقَد قَرَأتُ بِخَطِّ عُبَيدِ ٱللهِ بنِ طَاهِرٍ رُقعَةً إِلَيهِ بِخَطِّهِ وَقَد بَعَثَ إِلَيهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ٱبنِ حَمدُونَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنكَرُ أَن يُغَيِّرَ ٱلإِنسَانُ بَعضَ نَغَمِ ٱلغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلْقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ. فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ اَرْبَعٌ قَوْلُهُ: (اَرْوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ اُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ اَرَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْاَ ... يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ اَبُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ اَشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي اَيْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا. وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ اَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ قَالَ: اَتَّفَقُوا اَنَّ اَشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اَصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اَوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْاَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ اَبِي كَاهِلٍ وَٱلْاَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ اِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ

البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

وَاَمَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فَمِنْهُمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَاِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي اِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى ٱلْاَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ اِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْاَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْاَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ اَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ اِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ اِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ اِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا اِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيح . فهو من عندهم ليس النمط واحداً . هذا مذهب ابي عمرو واصحابه كالأصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون فاما ابن قتيبة فقال : لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثاً في عصره . ثم قال ابن رشيق في باب آخر : طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر متصفحاً اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلاً عمن بعده في المنزلة . ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش : يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرماً كأنه استوفى الامرين (قال) ويقال : اذن مخضرمة اذا كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام . (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال : اسلم قوم في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخُلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جَوْدَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفِلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا. وَقَالِيَةُ الأفاعي دُوَيْبَّةٌ فوقَ الخُنفُساء فَصغَّرها تحقيرًا بهِ وزَعَمَ الحاتِمي انَّ النَّابغةَ سُئِلَ: مَن اشعرُ النَّاسِ فقالَ من استُجيدَ جَيِّدُهُ وَاضحَكَ رَدِيئُهُ كانَ مِن سَفلَةِ الشُّعراء إلَّا ان يكونَ ذلكَ في الهجاء خاصَّةً وقالَ الحُطَيئةُ:

اَلشِّعرُ صَعبٌ وَطويلٌ سُلَّمُهُ وَالشِّعرُ لا يَستَطيعُهُ مَن يَظلِمُهُ
إذا ارتَقَى فيهِ الَّذي لا يَعلَمُهُ زَلَّت بهِ الى الحَضيضِ قَدَمُهُ
يُرِيدُ ان يُعرِبَهُ فَيُعجِمُهُ

وقالَ بعضُهُم:

اَلشُّعَراء فَاعلَمَنَّ اربعَه فَشاعِرٌ لا يُرتَجَى لِمَنفَعَه
وَشاعِرٌ يُنشِدُ وَسطَ المَجمَعَه وَشاعِرٌ آخَرُ لا يُجرَى مَعَه
وَشاعِرٌ يُقالُ خَمِّرْ في دَعَه

قالَ ابنُ رَشيقٍ: وانَّما سُمِّيَ الشَّاعِرُ شاعِرًا لانَّهُ يَشعُرُ بما لا يَشعُرُ بهِ غيرُهُ. قالَ ابنُ خالَوَيهِ في شَرحِ الدُّرَيدِيَّةِ يُقالُ: انشَدتُهُ مُقَلَّداتِ الشُّعَراء اي اَبياتَهُم الطَّنَّانَةَ المُستَحسَنَةَ ويقولُ آخَرونَ: إنَّ المُقَلَّدَ مِنَ الشِّعرِ ما كانَ اسمُ المَمدوحِ فيهِ مَذكورًا في قافِيَتِهِ ويُقالُ: هذا البيتُ عُقْرُ هذهِ القَصيدَةِ اي اَجوَدُ بيتٍ فيها كما يُقالُ: هذا بيتٌ طَنَّانٌ. اه. وفي المَقصورِ والمَمدودِ لِلقالي: قالَ ابو عُبَيدَةَ في قولِ النَّابِغَةِ الذُّبيانيِّ:

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثُّنيانُ عَنِّي صُدودَ البَكرِ عَن قَرْمِ الهِجانِ

قالَ الثُّنيانُ الَّذي هُوَ شاعِرٌ وَابوهُ شاعِرٌ كَكَعبِ بنِ زُهَيرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسَبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا م فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْإِزَا رِ فَذَلِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصَبَا نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وما مثله في الناس الا مملكا ... ابو امه حي ابوه يقاربه

هذا وامثاله وان كان جائزاً في الاعراب. فليس يحسن في الشعر عند ذوي الالباب. لما فيه من وهي النسج والاضطراب. والشعر اذا احوج الى شرح لم يعد في فاخر المساق. ولا قام في الاحسان على ساق. ولا عذب في المذاق. فهو مكروه عند الحذاق. ويحتاج الشعر الى ان يسبق معناه لفظه. فتستلذ النفوس روايته وحفظه. واول ما ينبغي للشاعر والمتكلم. بيان ما يحاوله للعالم والمتعلم. فان تكلم بمقلوب. مجته الاسماع والقلوب. ولم يتحصل منه الغرض المطلوب. فان قال قائل اما ترى في الاشعار امثال هذا كقوله:

لها مقلتا ادماء طل خميلة ... من الوحش ما ينفك ترعى عرارها

قيل له وهذا ايضاً قد احال ومن تكلف مثل هذا لم يخفف عن نفسه الكلفة والملام. وتعرض لان يلام. وترك بين الكلام. وانما يتفاضل الكلام والشعر بحسن العبارة والديباجة. ورونق الفصاحة حتى تكون الفاظها كالزجاجة. والا فالمعاني معرضة لكل جيل من اهل التوحيد والشرك حتى للزنج والتتر والترك لكنهم قصرت بهم السنتهم عن بلوغ ماراموه من ارب. فقد تهيأ على السنة العرب. واقل ما يجب على المتكلم البيان لمخاطبه. والا كان كحاطب الليل وحاطبه. يخاطب العربي بالعجمية ويخاطب العجمي بالعربية. وصناعة الشعر اشد

حضراً. وأمدّ عصراً وذلك انّ الشاعر انّما هو راغب راهب او معاتب بين يدي ملك فان حكى عن نفسه والّا كان جديراً بان يهلك . فمن ذلك ما رواه ابن جني قال : حدّثنا احمد بن زكرياء حدّثنا ابو عبد الله الغلابي حدّثنا مهدي بن سابق قال : دخل النابغة على النعمان بن المنذر فقال :

تخفّ الارض ان تفقدك يوماً   وتبقى ما بقيت بها ثقيلا

فنظر اليه النعمان نظر غضبان . وكان كعب بن زهير حاضراً فقال : اصلح الله الملك انّ مع هذا بيتاً ضلّ عنه هو

لأنك موضع القسطاس منها   فتمنع جانبيها ان تميلا

فضحك النعمان وامر لهما بجائزتين فلولا كعب كان قد هلك . فان كان الشاعر مخاطباً من دون الملك الاشم بما لا يفهم وكان راغباً في درهم كان ذلك سبباً لبطلان حاجته واستهجان شعره وتحقير امره والقدماء في هذا اعذر لانها لغتهم

الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ أَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلْإِسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ أَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عَفْوًا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا إِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ أَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ إِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي أَعْطَافِ شِعْرِهَا بِأَنْ تُجَنِّسَ أَوْ تُطَابِقَ أَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ أَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ أَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسطِ ٱلمعنَى اَو اِبرَازِهِ وَاتقَانِ بِنيَةِ ٱلشِّعرِ وَاِحكَامِ ٱلقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلكَلَامِ بَعضِهِ بِبَعضٍ حَتَّى عَدُّوا مِن فَضلِ صَنعَةِ ٱلحُطَيئَةِ حَتَّى نَسقَهُ ٱلكَلَامَ بَعضَهُ عَلَى بَعضٍ:

فَلَا وَاَبِيكَ مَا ظَلَمَت قُرَيعٌ   بِاَن يَبنُوا ٱلمَكَارِمَ حَيثُ شَاؤُوا
وَلَا وَاَبِيكَ مَا ظَلَمَت قُرَيعٌ   وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا اَسَاؤُوا
فَاِنَّ ٱلجَارَ مِثلَ ٱلضَّيفِ يَغدُو   لِوُجهَتِهِ وَاِن طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَاِنِّي قَد عَلِقتُ بِحَبلِ قَومٍ   اَعَانَهُم عَلَى ٱلحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱستَظرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنعَةِ نَحوَ ٱلبَيتِ وَٱلبَيتَينِ فِي ٱلقَصِيدَةِ بَينَ ٱلقَصَائِدِ يُستَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَاَمَّا اِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيبٌ يَشهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبعِ وَاِيثَارِ ٱلكُلفَةِ وَلَيسَ يَتَّجِهُ ٱلبَتَّةَ اَن يَأتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا اَو اَكثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِن غَيرِ قَصدٍ كَٱلَّذِي يَأتِي مِن اَشعَارِ حَبِيبٍ وَٱلبُحتُرِيِّ وَغَيرِهِمَا وَقَد كَانَا يَطلُبَانِ ٱلصَّنعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَاَمَّا حَبِيبٌ فَيَذهَبُ اِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفظِ وَمَا يَملَأُ ٱلاَسمَاعَ مِنهُ مَعَ ٱلتَّصنِيعِ ٱلمُحكَمِ طَوعًا وَكَرهًا يَأتِي ٱلاَشيَاءَ مِن بُعدٍ وَيَطلُبُهَا بِكُلفَةٍ وَيَأخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَاَمَّا ٱلبُحتُرِيُّ فَكَانَ اَملَحَ وَاَحسَنَ مَذهَبًا فِي ٱلكَلَامِ يَسلُكُ مِنهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ اِحكَامِ ٱلتَّصنُّعِ وَقُربِ ٱلمَأخَذِ لَا يَظهَرُ عَلَيهِ كُلفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا اَعلَمُ شَاعِرًا اَكمَلَ وَلَا اَملَحَ تَصنُّعًا مِن عَبدِ ٱللّٰهِ بنِ ٱلمُعتَزِّ فَاِنَّ صَنعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظهَرُ فِي بَعضِ ٱلمَوَاضِعِ اِلَّا لِلبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعرِ وَهُوَ عِندِي

أنظفُ أصحابهِ شعرًا وأكثرهم بديعًا وافتنانًا وأقربهم قوافيَ وأوزانًا ولا أرى وراءهُ غايةً لطالبها في هذا الباب. غير أنّا لا نجدُ المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعًا منهُ بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ولأنهما طرقا الى الصنعة ومعرفتها طريقًا سابلةً وكثّرا منها في أشعارهما تكثيرًا سهّلها عند الناس وجسّرهم عليها. على أنّ مسلمًا أسهلُ شعرًا من حبيب وأقلّ تكلّفًا وهو أوّلُ من تكلّف البديع من المولَّدين وأخذ نفسهُ بالصنعة وكثّر منها ولم يكن في الأشعار المحدَثة قبل مسلم إلّا النُّبَذ اليسيرة. وهو زهير المولَّدين كان يُبطئ في صنعتهِ ويُجيدها. وقالوا: أوّلُ من فتق البديع من المحدَثين بشّار بن بُرد وهو ساقةُ العرب وآخرُ من يُستشهَد بشعرهِ ثم اتّبعهما مقتديًا بهما كلثوم بن عمرو العتّابي ومنصورٌ النَّمَري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتّبع هؤلاء أبو تمّام والبحتري وعبد الله بن المعتزّ فانتهى علم البديع والصنعة وختم بهِ. وشبّه قومٌ أبا نواس بالنابغة لما اجتمع لهُ من الجزالة مع الرشاقة وحسن الديباجة والمعرفة بمدح الملوك. وأمّا بشّار فقد شبّهوهُ بامرئ القيس لتقدّمهِ على المولّدين وأخذهم عنهُ. ومن كلامهم: بشّار أبو المحدَثين. وسمعنا أبا عبد الله غير مرّةٍ يقول: إنّما سُمّي الأعشى صنّاجة العرب لأنّهُ أوّل من ذكر الصَّنج في شعرهِ. قال ويقال بل سُمّي صنّاجةً لقوّة طبعهِ وحلية شعرهِ يُخيَّل إليك إذا

انشدته ان آخر ينشد معك . ومثله بشار بن برد تنشد اقصر شعره عروضاً واليه كلاماً فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع . انقضى كلام عبد الله ورجعنا الى القول في الطبع والتصنيع . فاذا كان الشاعر مصنعاً فان جيده من سائر شعره كابي تمام . فصار محصوراً معروفاً باعيانه فاذا كان الطبع غالباً عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريباً من قريب كالبحتري . ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن ابي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن ظاهر :

فله شهامة سودنيق باكر وحوافر حفر وراس صنتع

وذكر قول ابي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر ان الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما اشرف في اللفظ من الحافر الاحفر الا ان ابا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها . والذي اراه ان ابن الرومي ابصر بابي تمام وغيره منا وان التسليم له والرجوع اليه احزم . غير اني لو شئت ان اقول ولست راداً عليه ولا معترضاً بين يديه ان المعنى الذي اراده واشار اليه من جهة ابي تمام انما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما اشبهها لا معنى الكلام الذي هو روحه . واما اللفظ الذي ذكر انه لا يبالي به انما هو فصيح

الكلام ومستعمله ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومي قوله ان الحافر الوأب والمقعب اشرف في اللفظ من الحافر الاخفر . فكلامه راجع الى ما قلته في ابي تمام غير مخالف له وان كان في الظاهر على خلافه لساغ ذلك الا ان اكثر الناس على ما قال وانما هو هذا معرض للكلام لا مخالفة . وقال الجاحظ : كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (قال) وانشد رجل قوما شعرا فاستغربوه فقال : والله ما هو بغريب ولكنكم في الادب غرباء . وعن غيره ان رجلا قال لابي تمام في مجلس قد حفل واراد تبكيته لما انشده : يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم . فقال له : وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ففضحه . ويروى ان هذه الحكاية كانت مع ابي العميثل وصاحبين له خاطباه فاجابهما . وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب انما ابو تمام كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج . وابو الطيب كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع . وكان الاصمعي يقول زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد انهما يتكلفان اصلاحه ويشغلان به خواطرهما وحواسهما . ومن

اصحابهما في التنقيح وفي التثقيف والتحكيك طُفَيل الغنوي. وقد قيل ان زهيرا ايضا روى له وكان يسمى محبّرا لحسن شعره. ومنهم الحطيئة والنمر بن تولب وكان يسميه ابو عمرو بن العلاء الكيّس. وكان بعض الحذّاق يقول: قُل من الشعر ما يخدمك ولا تقُل منه ما تخدمه وهو معنى كلام الاصمعي. وسأُحلي هذا الباب من كلام السيد ابي الحسن بحلية تكون له زينة فائقة واختمه بخاتمة تكسوه حُلّة رائقة لأوفي بذلك بعض ما ضمنت واقضي به حق ما شرطت ان شاء الله تعالى. فمن ذلك قوله سنة ٤٠٥ يتشوّق اهله:

وَلي كَبِدٌ مكلومةٌ لفراقكم ... أُطأْ منها صبرًا على ما اجنّتِ
تمنّيتكم شوقًا اليكم وصبوةً ... عسى الله ان يُبدي لها ما تمنّتِ
وعينٌ جفاها النوم واعتادها البكا ... اذا عن ذكر القيروان استهلّتِ

فلو ان اعرابيا تذكّر نجدا فحنّ به الى الوطن او تشوّق فيه بعض السكن ما حسبته يزيد على ما اتى به هذا الولد الحضري المتأخر العصر. وما انحطّ في هذا التمييز في هواي ولا انتعق بهذا القول عند مولاي ولا الخديعة مما نظنّ به ولا فيه ولكن قد رأيت وجه الحق فعرفته والحق لا يتلثّم وما هو في بلاغته وايجازه الّا كما قال الاحمر السعدي في وصيّته:

مِنَ القول ما يكفي المصيب قليلُهُ
ومنه الذي لا يكتفي الدهر قائلُه

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُودِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلطُّلُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْأَخْلَاقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولُ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

ايضاً بمدحهِ الثناء عليهِ فيكون ذلك على وجههِ . والبيت من الشعر كالبيت من الابنية والشعر قرارهُ الطبع وسمكهُ الرواية ودعائمهُ القلم وبابهُ الدربة وساكنهُ المعنى ولا خير في بيت غير مسكون . وصارت الاعاريض والقوافي كالموازين والامثلة للابنية او كالاواخي والاوتاد للاخبية . واما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فانما هو زينة مستأنفة لو لم تكن لاستغني عنها . قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة : الشعر علم من علوم العرب يشترك فيهِ الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابهِ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبهِ منها تكون مرتبتهُ من الاحسان . قال ولست افصل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والاعرابي والمولد الا انني ارى حاجة المحدث الى الرواية امس واجدهُ الى كثرة الحفظ افقر فاذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ان المطبوع الذي لا يمكنهُ تناول الفاظ العرب الا رواية ولا رواية ولا طريق الى الرواية الا السمع وملاك السمع الحفظ . وقال دعبل في كتابهِ من اراد المديح فبالرغبة ومن اراد الهجاء فبالبغضاء ومن اراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن اراد المعاتبة فبالاستبطاء : فقسم الشعر كهذه الاقسام الاربعة وكان الرثاء عندهُ من باب المدح على ما قدمت . الا انهُ جعل العتاب

بَدَلًا مِنهُ وَقالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلعُلَماءِ: ٱلشِّعرُ ما ٱشتَمَلَ عَلَى ٱلمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِاستِعارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشبِيهِ ٱلوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّما لِقائِلِهِ فَضلُ ٱلوَزنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسهِ)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذا مَدَحَ مَلِكًا أَن يَسلُكَ طَرِيقَةَ ٱلإِفصاحِ وَٱلإِشادَةِ بِذِكرِ ٱلمَمدُوحِ وَأَن يَجعَلَ مَعانِيَهُ جَزلَةً وَأَلفاظَهُ نَقِيَّةً غَيرَ مُبتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقصِيرَ وَٱلتَّطوِيلَ فَإِنَّ لِلمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّما عابَ مِن أَجلِها ما لَا يُرِيدُ حِرمانَهُ وَقَد رَأَيتَ عَمَلَ ٱلبُحتُرِيِّ إِذا مَدَحَ ٱلخَلِيفَةَ كَيفَ يُقِلُّ ٱلأَبياتَ وَيُبرِزُ وُجُوهَ ٱلمَعانِي فَإِذا مَدَحَ ٱلكُتَّابَ عَمِلَ طاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرادَهُ. وَقَد حُكِيَ عَن عُمارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قالَ: يا بُنَيَّ إِذا مَدَحتُم فَلَا تُطِيلُوا ٱلمُمادَحَةَ وَإِذا هَجَوتُم فَخالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قالَ: دَخَلَ ٱلفَرَزدَقُ عَلَى عَبدِ ٱلرَّحمٰنِ ٱبنِ أُمِّ ٱلحَكَمِ فَقالَ لَهُ عَبدُ ٱلرَّحمٰنِ: يا أَبا فِراسٍ دَعنِي مِن شِعرِكَ ٱلَّذِي لَيسَ يَأتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنسَى أَوَّلُهُ وَقُل فِيَّ بَيتَينِ يَعلَقانِ بِٱلرِّوايَةِ وَأَنا أُعطِيكَ عَطِيَّةً لَم يُعطِكَها أَحَدٌ قَبلِي فَغَدا عَلَيهِ وَقالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطحَاوَي قُرَيشٍ وَإِن تَشَا
تَكُن مِن ثَقِيفٍ سَيلَ ذِي حَدَبٍ غَمرِ
وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱليَدَينِ إِلَى ٱلعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمسُ ٱلمُضِيئَةُ لِلبَدرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحسَنتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلمَمدُوحُ مَلِكًا لَم يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيفَ أَطنَبَ وَذٰلِكَ مَحمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلمَذمُومُ. فَإِن كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَن نَقَصَهُ مِنهَا وَكَذٰلِكَ لَا يَجِبُ أَن يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَستَحِقُّ وَلَا أَن يُعطِيَهُ صِفَةَ غَيرِهِ فَيَصِفَ ٱلكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلقَاضِي بِٱلحَمِيَّةِ وَٱلمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَن تَصحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأيِ فِيهِ وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَن يُمدَحَ ٱلمَلِكُ بِبَعضِ مَا يُمدَحُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِن كَانَ فَضِيلَةً وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ فِي مَدحِ ٱلمُعتَزِّ:

لَا ٱلعَذلُ يَردَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعنِيفُ عَن كَرَمٍ يَصُدُّهُ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنكَرَهُ عَلَيهِ أَبُو ٱلعَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ عُبَيدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَن ذَا يُعَنِّفُ ٱلخَلِيفَةَ عَنِ ٱلكَرَمِ أَو يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلهِجَاءِ أَولَى مِنهُ بِٱلمَدحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلأَخطَلِ قَولُهُ فِي عَبدِ ٱلمَلِكِ بنِ مَروَانَ هٰذَا ٱلبَيتَ:

وَقَد جَعَلَ ٱللهُ ٱلخِلَافَةَ مِنهُمُ
لِأَبيَضَ لَا عَارِي ٱلخِوَانِ وَلَا جَدبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهَذَا حَرِبِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ. وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هَذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ   عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلِٱتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرَ مَالُهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَرَادَ أَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى أَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهْ. فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ: (أَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٌ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْحِلْمَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ. وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ. وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلِانْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ: يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ. وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفْقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةِ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةِ ٱلْغَفْلَةِ وَجَوْدَةِ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمُلْكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرُ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَرُوا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ . وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ　　سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ
وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ :

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا　　بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ
وَفِي عِطَافِهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ　　مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ . وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ　　يَحْمِلْنَ مَا تَدْرِي وَمَا لَا تَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ　　م وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي . قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ : مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَحْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلِٱخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ　　وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ　　تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ الْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ الْوَصْفِ وَجُمْلَةِ الْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ الِاقْتِصَادِ فِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسِيَّ يَسْمُو   إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ الْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ابْنِ هَرْمَةَ فِي الْمَنْصُورِ:

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ   إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ

فَأَمَّا الَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ الرَّدَى   وَأَمَّا الَّذِي أَوْعَدْتَ بِالثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ الْهَادِي:

يَضْطَرِبُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ إِذَا   حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ الْحَزِينِ الْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي اللَّعِينِ الْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَاجْتَمَعَ الشُّعَرَاءُ بِبَابِ الْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ النَّمَرِيِّ فِي الرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ   أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ أَمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ   وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا   فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تَخْلِفْ أَنَامِلُهُ   أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ   شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ   ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ   لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا
أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا   وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ   وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعبِلُ بَلْ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلْقَينيّ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ ثَاقِبُهُ

قَالَ: وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ:

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ: بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: أَجْمَعَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَنَّ بَيْتَيْ أَبِي نُوَاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا:

أَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْأَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
إِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكَّلْتَ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ: أَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ   فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامُ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ
وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ

وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ

مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ

يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ

كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفُ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُعَذِّبْنَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلا يَستَطِيعُ ٱلفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ ‏ وَإِنْ أحسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَاجمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُف لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعتُ أَحسَنَ مِنهُ فَقَالَ يَحيَى يَقُولُهُ ٱبنُ أَبِي حَفصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلفَتَى وَأَومَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَولُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِن جَلِيلِ ٱلفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنشِدنِي أَجوَدَ مَا قَالَهُ ٱبنُ أَبِي حَفصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنشَدتُهُ:

نِعمَ ٱلمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ ‏ مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلأَزمَانِ

مَعنُ بنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ ‏ شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا ‏ يَومَاهُ يَومُ نَدًى وَيَومُ طِعَانِ

يَكسُو ٱلأَسِرَّةَ وَٱلمَنَابِرَ بَهجَةً ‏ وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسفِرُ وَجهُهُ ‏ فِي ٱلحَربِ عِندَ تَغَيُّرِ ٱلأَلوَانِ

نَفسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلوَلِيدِ إِذَا بَدَا ‏ رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحيَى أَنتَ لَا تَدرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجوَدُ مِن هٰذَا قَولُهُ:

تَشَابَهَ يَومَاهُ عَلَينَا فَأَشكَلَا ‏ فَلَا نَحنُ نَدرِي أَيُّ يَومَيهِ أَفضَلُ

أَيَومُ نَدَاهُ ٱلغَمرُ أَم يَومُ بَأسِهِ ‏ وَمَا مِنهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَن يَنقُلُ ٱلمَدِيحَ عَن رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأبَ ٱلبُحتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنهَا:

قَدكَ ٱتَّئِبْ أَربَيتَ فِي ٱلغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَن يَحيَى بنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخارُ هوَ اَلْمدحُ بِعَيْنِهِ اِلَّا انَّ اَلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي اَلْمدحِ حَسُنَ فِي اَلِافْتِخارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي اَلِافْتِخارِ. فَمِنْ اَبْيَاتِ اَلِافْتِخارِ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ:

اِنَّ اَلَّذِي سَمَكَ اَلسَّماءَ بَنَى لَنَا   بَيْتًا دَعَائِمُهُ اَعَزُّ وَاَطْوَلُ

قَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ: اَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ اَلْعَرَبُ قَوْلُ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ:

مَا يُنْكِرُ اَلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ   كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ اَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلُ اَفْخَرُ اَلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ اِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ   جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ اَلْحَاتِمِيُّ: قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ:

تَرَى اَلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا   وَاِنْ نَحْنُ اَوْمَأْنَا اِلَى اَلنَّاسِ وَقَفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ:

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ   وَجَدْتَ اَلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ: بَلْ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ:

وَنَحْنُ اِذَا عُدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا   مَكَانَ اَلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ اَلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ:

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِماً   وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْساً قَيْسَ عَيْلَانَ أَقْسَمَتْ
عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَٱلْفَخْرُ بَيْتٍ صَنْعَةُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَماً (١)
إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّداً مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ
وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ   بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ
وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ   فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلِافْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا   وَلَا تَغِيبَنَّ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحاً بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيهِ حَسَنٌ. وَأَنكَرَ الجُرجَانِيُّ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَولَهُ:

مَا بِقَومِي شَرُفتُ بَل شَرُفُوا بِي   بَل بِنَفسِي فَخَرتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِن قَولِ عَلِيِّ بنِ جَبَلَةَ حَيثُ يَقُولُ:

وَمَا سَوَّدَت عِجلًا مَآثِرُ عِندَهُم   وَلٰكِن بِهِم سَادَت عَلَى غَيرِهَا عِجلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعنًى سُوءٍ يَغُضُّ مِن حَسَبِ المَمدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِن شَأنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ المَدحِ أَن يَجعَلَ المَمدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالآبَاءُ تَزدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجعَلَ لِكُلٍّ مِنهُم فِي الفَخرِ حَظًّا وَفِي المَدحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ الحَقَائِقُ كَانَ النَّصِيبَانِ مَقسُومَينِ بَل كَانَ الكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنهُم لِأَنَّ شَرَفَ الوَالِدِ جُزءٌ مِن مِيرَاثِهِ وَمُنتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَانتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَازدَادَ وَإِن أُهمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ الوَالِدِ يَعُمُّ القَبِيلَةَ وَلِلوَلَدِ مِنهُ القِسمُ الأَوفَرُ وَالحَظُّ الأَكبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الكِتَابِ: وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيهِ الاختِيَارُ عِندَهُم مَا نَاسَبَ قَولَ المُتَوَكِّلِ اللَّيثِيِّ:

لَسنَا وَإِن أَحسَابُنَا كَرُمَت   يَومًا عَلَى الأَحسَابِ نَتَّكِلُ

نَبنِي كَمَا كَانَت أَوَائِلُنَا   تَبنِي وَنَفعَلُ مِثلَمَا فَعَلُوا

وَقَولَ عَامِرِ بنِ الطُّفَيلِ:

وَإِنِّي وَإِن كُنتُ ابنَ سَيِّدِ عَامِرٍ   وَفِي السِّرِّ مِنهَا وَالصَّرِيحِ المُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتنِي عَامِرٌ عَن وِرَاثَةٍ   أَبَى اللّٰهُ أَن أَسمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنَ الفَخرِ مَا قَالَ المُوَلَّدُونَ قَولُ إِسحَاقَ بنِ إِبرَاهِيمَ المَوصِلِيِّ.

يَفْخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أُرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلَ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ
ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَرَاوِيدِ
سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .
وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْشِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُجَالِسُ ٱلْمَذْقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُجَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَمْذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسهِ)

وليس بَينَ الرِثاء والمدحِ فرقٌ إلّا أن يخلط بالرثاء شيءٌ يدلُّ على أنَّ المقصود بهِ ميتٌ مثل كانَ أو عدمنا كيت وكيت او ما شاكل ذلك ليُعلَمَ أنَّهُ ميتٌ. وسبيلُ الرثاء أن يكونَ ظاهر التفجع بَينَ الحسرةِ مخلوطاً بالتلهفِ والأسفِ والاستعظام. إن كانَ الميتُ ملكاً او رئيساً كبيراً كما قالَ النابغةُ في حصنِ بنِ حُذَيفةَ:

يقولونَ حصنٌ ثُمَّ تأبى نفوسهُم وكيفَ بحصنٍ والجبالُ جُنوحُ
ولَم تلفظِ الموتى القبورُ ولَم تزلْ نُجومُ السماءِ والأديمُ صحيحُ
فعمَّا قليلٍ ثُمَّ جاءَ نعيُّهُ فظلَّ نديُّ القومِ وهوَ ينوحُ

فهذا وما شاكلهُ رثاء الملوكِ والرؤساء الحلّقِ وإلى هذا ذهب ابو العتاهيةِ حينَ قالَ: (ماتَ الخليفةُ ايُّها الثقلانِ) فرفعَ الناسُ رؤوسهُم وفتحوا عيونهُم وقالوا: أنعاهُ إلى الجنِّ والإنسِ ثُمَّ قالَ: (فكأنني افطرتُ في رمضانِ) يُريدُ إنّي بمجاهرتي بهذا القولِ كأنَّما جاهرتُ نهاراً بالإفطارِ في رمضانَ فكلُّ أحدٍ يُنكرُ عليَّ ذلكَ ويستعظمهُ من فعلي وهذا معنًى جيّدٌ غريبٌ في لفظٍ رديءٍ غيرِ معربٍ عمّا في النفسِ. ومن افضلِ الرثاءِ قولُ

الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة ويروى لابن ابي حفصة:

فيا قبر معن انت اول بقعة
من الارض خطت للسماحة موضعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

ومما قصر به ابو تمام في رثائه محمد بن حميد بالقصيدة التي يقول فيها:

الا في سبيل الله من عطلت له   فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

وقد اجاد ايضا في القصيدة التي رثى بها ادريس بن بدر يقول فيها:

ولم انس سعي الجود خلف سريره   باكسف بال يستقل ويطلع

وابو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء ومثله ديك الجن وهو اشهر في هذا من ابي تمام له فيه طريق قد انفرد بها قال في عبيد الله بن سليمان بن وهب:

قد استوى الناس ومات الكمال   وصاح صرف الدهر اين الرجال
هذا ابو القاسم في نعشه   قوموا انظروا كيف تسير الجبال

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ اَنْ يَضْرِبُوا ٱلْاَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْاَعِزَّةِ وَٱلْاُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْاُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ اَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي اَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَاَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ اِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ اَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ اَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ ورُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمُ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَاَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ اَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْاَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْاَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي اَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ اَوَّلُهَا:

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ اَثْنَاءِ ٱلْاَمَلْ   وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَاَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا اَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي اَوَّلِهَا نَسِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ اَخِيهِ خَالِدٍ:

اَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ اُمِّ مَعْبَدِ   لِعَاقِبَةٍ اَوْ اَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْاَحْوَلِ اَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِاَبِي مُحَافَةَ اَعْشَى بَاهِلَةَ اِنَّمَا هِيَ لِٱبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وأسهَا الدَّعجاء . والحاصلُ أنَّ المتعارفَ عندَ أهلِ اللُّغةِ أنَّهُ ليسَ للعربِ في الجاهليَّةِ مرثيَّةٌ أوَّلُها تشبيبٌ إلَّا قصيدةُ دُرَيد . وأنا أقولُ إنَّهُ الواجبُ في الجاهليَّةِ والإسلامِ إلى وقتِنا هذا ومِن بعدِهِ لأنَّ الآخِذَ في الرِّثاءِ يجبُ أن يكونَ مشغولًا عن النَّسيبِ بما هو فيهِ من الحسرةِ والاهتمامِ بالمصيبةِ وإنَّما تغزَّلَ دُرَيدٌ بعدَ قتلِ أخيهِ بسنةٍ وحينَ أخذَ بثارِهِ وأدركَ طائلتَهُ

ومن العجيبِ أن يقولَ عَبدةُ بنُ الطَّيِّبِ في تأبينِ قيسِ بنِ عاصمٍ المِنقَريِّ :

عليكَ سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصمٍ ورحمتُهُ ما شاءَ أن يترحَّما

ويقولَ الكُميتُ في تأبينِ النَّبيِّ هذا القولَ فهلَّا قالَ مثلَ قولِ فاطمةَ :

اغبرَّ آفاقُ السَّماءِ وكُوِّرَتْ شمسُ النَّهارِ وأظلمَ العصرانِ

والنِّساءُ أشجى النَّاسِ قلوبًا عندَ المصيبةِ وأشدُّهم جزعًا على هالكٍ لما ركَّبَ اللهُ تعالى في طباعهنَّ من ضعفِ العزيمةِ

فانظرْ إلى قولِ جليلةَ بنتِ مُرَّةَ ترثي زوجَها كُلَيبًا حينَ قتلَهُ أخوها جسَّاسٌ ما أشجى لفظَها وأظهرَ الفجيعةَ فيهِ وكيفَ يُثيرُ الأشجانَ ويقدحُ شررَ النِّيرانِ وذلكَ :

يا ابنةَ الأقوامِ إن لُمتِ فلا تعجلي باللَّومِ حتَّى تسألي

ومن أشدِّ الرِّثاءِ صعوبةً على الشَّاعرِ أن يرثيَ طفلًا أو امرأةً لضيقِ الكلامِ عليهِ فيهما وقلَّةِ الصِّفاتِ . ألا ترى ما صنعوا بأبي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ فَحْلٌ مُجَوِّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ   عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعَفِّي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكِ مُسْبَطِرٌّ   وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكِ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلِٱسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكِ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا قَضَاؤُهُ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا: لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللهِ بْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرْ

ٱللهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ ٱللهِ فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ ٱلأُمُورِ :

فَٱصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشْكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلْمُلْكِ أَصْفَاكَا

لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي ٱلأَيَّامِ نَعْلَمُهُ   كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ

قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ   بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ

حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا   لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ

وَفِي ٱلْحَيِّ بِٱلْمَيْتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ وَلَا ٱلْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ . وَأَتْبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ ٱلْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحْسَنَ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَأَرَادَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلتَّقْصِيرَ فَٱقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصْطَفَقَتْ   عَلَيْكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ

ٱذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى ٱلدُّ   نْيَا وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللهُ أُمَّةً فَقَدَتْ   مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ   بُعَيْدَ ٱلْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ   مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَإِنَّ مَكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ   لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي   جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْثِيَّةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرَ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا   لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً   كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ   كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

أُجِلُّ قدرَكَ انْ تُسمي مُؤَبَّنةً ومَنْ يَصِفكَ فقد سمَّاكَ للعَربِ

ورِثاء الأطفالِ ان يذكر مخايلهم وما كانت الفراسة تعطيه فيهم ممن تحقَّق لمصابهم وتفجَّع بهم كالذي صنع ابو تمام في ابني عبدِ الله بن طاهرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ الشاعرِ ان يكونَ مدحُهُ شريفًا واقتضاؤُهُ لطيفًا وهجاؤُهُ ان هجا عنيفًا فإنَّ الاقتضاء الخشِنَ رُبَّما كان سببَ المنعِ والحِرمانِ وداعيةَ القطيعةِ والهِجرانِ. وقومٌ يُدرِجون العتابَ في الاقتضاء والاقتضاء بالعتابِ وانا ارى غير هذا المذهبِ اصوبَ فالاقتضاء طلبُ حاجةٍ وبابُ التلطُّفِ فيهِ اجودُ فإن بلغَ الأمرُ العتابَ فإنَّما هو طلبُ الإبقاء على المودَّةِ والمُراعاةِ وفيهِ توبيخٌ ومُضادَّةٌ لا يجوزُ معها بعدُ اقتضاء. إلَّا انَّ الناسَ قد خلطوا هذينِ وساوَوْا بينهما. فمن احسنِ الاقتضاء على ما تخيَّرْوهُ ونحَوْتُ اليهِ قولُ أُميَّةَ بنِ ابي الصَّلتِ لعبدِ الله بنِ جُدعانَ:

أأذكُرُ حاجتي ام قد كفاني حياؤُكَ إنَّ شيمتَكَ الحياءُ

وعِلمُكَ بالحُقوقِ وانتَ فرعٌ لكَ الحسبُ المُهذَّبُ والسَّناءُ

خليلٌ لا يُغيِّرُهُ صباحٌ عنِ الخُلقِ الجميلِ ولا مساءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْماً كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

فَأَنْتَ تَرَى هٰذَا ٱلِاقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ ٱلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ ٱلْقَطْرَ وَيَحُطُّ ٱلْعُصْمَ إِلَى ٱلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفاً هَمَمْتَ بِهِ إِنَّ ٱهْتِمَامَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ فَٱلشَّيْءُ بِٱلْقَدَرِ ٱلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَأَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ٱلْأُمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَا إِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئاً:

لَقَدْ كُنْتُ أُرَجِّيكَ لِمَا أَخْشَى مِنَ ٱلدَّهْرِ

فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِي إِلَى ٱلْفَقْرِ

أَتَرْضَى لِي بِأَنْ أَرْضَى بِتَقْصِيرِكَ فِي أَمْرِي

وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ ٱلْعِتَابُ ٱلْمَحْضُ وَٱلتَّوْبِيخُ ٱلَّذِي دُونَهُ ٱلْجَلْدُ بِٱلسَّوْطِ بَلْ بِٱلسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي ٱلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا ٱلشَّكْلِ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ ٱلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْأَمْرِ ٱلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي بَقَايَا أَمَانِي ٱلنَّفْسِ فِيهَا ٱلْأَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي ٱلْأَيَّامِ حَتَّى إِذَا ٱنْقَضَتْ أَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَأَنِّي نَازِفُ ٱلْبِئْرِ طَالِباً لِإِجْمَامِهَا أَوْ يَرْجِعَ ٱلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ أَبْقَى مَا أَصَابَ لِنَفْسِهِ وَلَا هِيَ أَعْطَتْهُ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ أَمْلَحِ مَا رَأَيْتُ فِي ٱلِاقْتِضَاءِ وَٱلِاسْتِبْطَاءِ قَوْلُ أَبِي

ٱلعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلعَـلَاءِ . وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلعَيْنُ يَا عُمَرْ فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيـكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ :

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّـةً لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا بَعْـدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَـا آجِلَـةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ
لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلُهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ . وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يَمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاحْتِجَاجُ وَٱلِانْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِإِجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاعْتِذَارُ وَٱلِاعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ م وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطًا لَمْ أَكُنْ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ م طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ
تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فَهذا أعتَبُ كما قالَ :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَأَنَّهُ   طِعَانٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِي جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايِلًا   لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً   عَلَيَّ إِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ   مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَٱللهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ   لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

أَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَأَتَّقِي   شَمَاتَ ٱلْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُعِرْ لَهَا
قُوًى أَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ

سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ
وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ

وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا
وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَإِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا   وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مُنَحْتُكُهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ   وَتَبْعَثُ أَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تَرُدُّ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ:

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ أَنَّنِي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

سَأَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا ٱطَّرَدَ ٱلْمِقْيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى أَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ:

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهْوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهْوَ مُنْعِمُ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ ٱلْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْتَمُ
وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى وَلٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أَعْدَلَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ:

إِذَا رَأَيتَ نُيُوبَ ٱللَّيثِ بَارِزَةً ‏ فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيثَ مُبتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلجُودَةِ غَيرَ أَنَّهُ مِن جِهَةِ ٱلوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلقُبحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَومٍ يَنتَقِصُونَهُ عِندَ سَيفِ ٱلدَّولَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشعَارِهِ . وَٱلإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيفِ ٱلدَّولَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعدَ أَبيَاتٍ :

يَا مَن يَعِزُّ عَلَينَا أَن نُفَارِقَهُ ‏ وِجدَانُنَا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ

مَا كَانَ أَخلَقَنَا مِنكُم بِتَكرِمَةٍ ‏ لَو أَنَّ أَمرَكُمُ مِن أَمرِنَا أَمَمُ

وَبَينَنَا لَو رَعَيتُم ذَاكَ مَعرِفَةٌ ‏ إِنَّ ٱلمَعَارِفَ فِي أَهلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ

كَم تَطلُبُونَ لَنَا عَيبًا فَيُعجِزُكُم ‏ وَٱللّٰهُ يَكرَهُ مَا تَأتُونَ وَٱلكَرَمُ

مَا أَبعَدَ ٱلعَيبَ وَٱلنُّقصَانَ مِن شَرَفِي ‏ أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيبُ وَٱلهَرَمُ

وَلَيسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ كَادَ يُقتَلُ بَعدَ ٱنصِرَافِهِ مِن مَجلِسِ إِنشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلأَكفَاءِ وَأَهلِ ٱلمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنهُ قَولُ إِبرَاهِيمَ بنِ عَبَّاسٍ ٱلصُّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بنَ عَبدِ ٱلمَلِكِ ٱلزَّيَّاتَ وَقَد تَغَيَّرَ عَلَيهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ ‏ فَلَمَّا نَبَا صِرتَ حَربًا عَوَانَا

وَكُنتُ أَذُمُّ إِلَيكَ ٱلزَّمَانَ ‏ فَأَصبَحتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا

وَكُنتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ ‏ فَهَا أَنَا أَطلُبُ مِنكَ ٱلأَمَانَا

وَهٰذَا عِندِي مِن أَشَدِّ ٱلعِتَابِ وَأَوجَعِهِ . وَمِن أَكرَمِ ٱلعِتَابِ قَولُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاء

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ:

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ ... إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكِيَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بِهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ:

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّ ... نْيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
أَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْأَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

إِلَّا أَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ أَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذَلِكَ فَضْلٌ بَيِّنُ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

ٱلْعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً   مِنْ أَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ مُعَاتِبًا   صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيُحَذِّرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْأُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ   تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
أَأَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَإِنَّنِي   أَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَأَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً   بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَإِنَّهَا   كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِجَرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ لَا يُلْقِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَآفَةُ ٱلْمَخْلُوقِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوُ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فغضَّ الطرفَ إنكَ من نُميرٍ   فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

ولمّا أطلق عمر بن الخطّاب الحطيئةَ من حبسهِ إيّاهُ بسببِ هجائهِ الزِبرقانَ قالَ لهُ : تدعُ الهجاء المُقذِع . قالَ : وما الهجاء المُقذِعُ . قالَ : المُقذِعُ أن تقولَ هؤلاء أفضلُ من هؤلاء وأشرفُ وتبني شعرًا على مدحٍ لقومٍ وذمٍ لمن يعاديهم . قالَ : أنتَ واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ أعلمُ مني بمذاهبِ الشعرِ لكنني حباني هؤلاء فمدحتُهم وحرمني هؤلاء فذكرتُ حرمانهم ولم أنلْ من أعراضهم شيئًا وصرفتُ مدحي إلى من أرادهُ ورغبتُ بهِ على من كرههُ وزهدَ فيهِ . يريدُ قصيدتهُ المهموزةَ وهي أخبثُ ما صنعَ وفيها أو من أجلها قالَ خلفُ الأحمرُ : أشدُّ الهجاءِ أعفُّهُ وأصدقُهُ . وقالَ مرّةً أُخرى : ما عفَّ لفظُهُ وصدقَ معناهُ . ومن كلامِ صاحبِ الوساطةِ : فأمّا الهجوُ فأبلغهُ ما قربت معانيهِ وسهُلَ حفظُهُ وأسرعَ علوقُهُ بالقلبِ ولصوقُهُ بالنفسِ فأمّا القذفُ والفحشُ فبابٌ محضٌ وليسَ للشاعرِ فيهِ إلّا إقامةُ الوزنِ . وممّا يدلُّ على صحّةِ ما قالهُ صاحبُ الوساطةِ وحُسنِ ما ذهبَ إليهِ إعجابُ الحُذّاقِ من العلماءِ وفرسانِ الكلامِ بقولِ زهيرٍ في تشكُّكهِ وتهزُّلهِ وتجاهلهِ فيما يعلمُ :

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري   أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

فإنَّ هذا عندهم من أشدِّ الهجاءِ وأمضهِ . ولمّا قدمَ النابغةُ بعدَ وقعةِ حِسا سألَ بني ذُبيانَ ما قلتم لعامرِ بنِ الطفيلِ وما قالَ

لكم . فأنشدوه . فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال
له مثل هذا ولكنني ساقول ثم قال :

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب (١)

فلما بلغ عامراً قول النابغة شق عليه وقال جعلني القوم رئيساً
وجعلني النابغة سفيهاً جاهلاً وتهكم بي . وروي ان شاعراً مدح
الحسين بن علي فأجزل عطيته فليم على ذلك فقال : اتروني خفت
ان يقول : لست ابن فاطمة ولا ابن علي . ولكن خفت ان يقول :
لست كالرسول ولست كعلي فيصدق ويحمل عنه ويبقى مخلداً في
الكتب محفوظاً على ألسنة الرواة . فقال الشاعر : انت والله اعلم
مني بالمدح . وقد وقع الحسن بن زيد ببعض ما قال فيه ابو
عاصم محمد بن حمزة الاسلمي المدني :

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل

وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء اجود وترك الفحش اصوب
الا جريراً فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا وإذا هجوتم
فخالفوا . وانا ارى التعريض اهجى من التصريح لاتساع الظن في
التعريض وشدة قلق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته
فإذا كان الهجو تصريحاً احاطت به النفس علماً وقلبته يقيناً في اول
وهلة وكان كل يوم في نقص لنسيان او ملل يعرض . وهذا المذهب
الصحيح على ان يكون المهجو ذا قدر في نفسه وحسبه . فاما

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إنْ كانَ مِمَّنْ لا يُوقِظُهُ التَّلويحُ وَلا يُؤلِمُهُ إلا التَّصريحُ فَذلكَ .
وَلِهذهِ العِلَّةِ اختلفَ هِجاءُ أبي نُواسٍ وَكذلكَ هِجاءُ أبي الطَّيِّبِ فيهِ اختلافٌ لاختلافِ مَراتبِ المَهجوِّينَ فَمِنَ التَّفضيلِ في الهِجاءِ قَولُ رَبيعةَ بنِ عَبدِ الرَّحمانِ الرَّقيِّ :

لَشتّانَ ما بَينَ اليَزيدَينِ في النَّدى   يَزيدِ سُلَيمٍ وَالأغَرِّ بنِ حاتِمِ
فَهَمُّ الفَتى القَيسيِّ إتلافُ مالِهِ   وَهَمُّ الفَتى العَبسيِّ جَمعُ الدَّراهِمِ
فَلا يَحسَبِ التَّمتامُ أنّي هَجوتُهُ   وَلكِنَّني فَضَّلتُ أهلَ المَكارِمِ

وَمِنَ الاختِصارِ وَالاستِخفافِ قَولُ زِيادٍ الأعجَمِ :

قُمْ صاغِرًا يا شَيخَ جَرْمٍ فَإنَّما   يُقالُ لِشَيخِ الصِّدقِ قُمْ غَيرَ صاغِرِ
فَمَنْ أنتُمُ إنّا نَسينا مَنَ انتُمُ   وَرِيحُكُمُ مِنْ أيِّ رِيحِ الأعاصِرِ
أأنتُمْ أُولى جِئتُمْ مَعَ الرِّيحِ وَالدَّبا   فَطارَ وَهذا شَيخُكُمْ غَيرُ طائِرِ
قَضى اللهُ خَلقَ النّاسِ ثُمَّ خُلِقتُمُ   بَقِيَّةَ خَلقِ اللهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسمَعوا إلّا بِمَنْ كانَ قَبلَكُمْ   وَلَمْ تُدرِكوا إلّا مَدَقَّ الحَوافِرِ

أخَذَ مِنهُ الطِّرِمّاحُ هذا المَعنى فَقالَ :

وَما خُلِقَتْ تَيمٌ وَعَبدُ مَناتِها   وَضَبَّةُ إلّا بَعدَ خَلقِ القَبائِلِ

وَمِنَ الاحتِقارِ قَولُ جَريرٍ في تَيمٍ :

وَيُقضى الأمرُ حينَ تَغيبُ تَيمٌ   وَلا يُستَأذَنونَ وَهُمْ شُهودُ
وَإنَّكَ لَو رَأيتَ عَبيدَ تَيمٍ   وَتَيمًا قُلتَ أيُّهُما العَبيدُ

وَمِنْ مَليحِ التَّهكُّمِ قَولُ أبي هِفّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ :

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيَتْلَفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ . وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ : أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا أَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ . وَأَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يُسْلَبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَأَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تَبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَٱلَّذِي أَرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا أَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ بِعَيْنِهِ

البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغي لِلشَّاعِرِ أنْ لَا يقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإنِ اضْطَرَّهُ الْمِقْدَارُ إلَى ذٰلِكَ وَاوْقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصِدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذَرِ إلَيْهِ مِنْ بَابِ الْاحْتِجَاجِ وَإقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ وَحَقُّهُ أنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدْرَجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ الْمُلُوكِ وَإعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ النَّاقِلِ وَالْحَاسِدِ فَأَمَّا مَعَ الْإخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ أحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْاصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أسَأْتُ فَبِالنُّعْمَى الَّتِي سَلَفَتْ ... إلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ إبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ أبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ إلَيْهِ :

اللّٰهُ يَعْلَمُ مَا أقُولُ فَإنَّهَا ... جَهْدُ الْألِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ
مَا إنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُوَاةُ تَمُدُّنِي ... أسْبَابُهَا إلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ أبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَإقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ ارْتِكَابِ الْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أجْنِ ذَنْبًا فَإنْ زَعَمْتَ بِأَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ أَبَا جَعْفَرٍ دَعَابَةٌ بِتُّ عَلَى نَارِهَا
وَإِنْ تَأَذَّيْتَ فَيَا رُبَّمَا تَأَذَّتِ ٱلعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي ٱلِٱعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ ٱلعَرَبِ قَصَائِدُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلعَلْيَاءِ فَٱلسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ ٱلَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلْمُؤْمِنِ ٱلعَائِذَاتِ ٱلطَّيْرَ تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ ٱلغَيْلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ ٱلوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَأً لِيَ جَانِبٌ مِنَ ٱلْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِٱلوَعِيدِ كَأَنَّنِي إِلَى ٱلنَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ ٱلقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَٱلفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفتَني ذَنبَ امرِئٍ وَتَرَكتَهُ كَذِي العُرِّ يُكوَى غَيرُهُ وَهوَ رَاتِعُ

فَإِن كُنتَ لا ذُو الضِّغنِ عَنِّي مُكَذَّبٌ

وَلا حَلِفِي عَلَى البَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلا أَنَا مَأمُونٌ بِشَيءٍ أَقُولُهُ وَأَنتَ بِأَمرٍ لا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدرِكِي وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأَى عَنكَ وَاسِعُ

وَقَد عَلِقَ بِهٰذَا المَعنَى جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلمٌ الخَاسِرُ يَعتَذِرُ إِلَى المَهدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيرِ النَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنتَ ذَاكَ لِمَا نَأتِي وَنَجتَنِبُ

وَأَنتَ كَالدَّهرِ مَبثُوثًا حَبَائِلُهُ وَالدَّهرُ لا مَلجَأٌ مِنهُ وَلا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيدُ اللهِ بنُ عَبدِ اللهِ بنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِن حَدَّثَتْ نَفسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ الرَّأيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ النَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَولِهِ :

وَلٰكِنَّكَ الدُّنيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنكَ لِي إِلَّا إِلَيكَ ذَهَابُ

غَيرَ أَنَّهُ حَرَّفَ الكَلَامَ عَن مَوَاضِعِهِ . وَالمُختَارُ العُلَمَاءِ بِهٰذَا الشَّأنِ قَولُ عَلِيِّ بنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِامرِئٍ حَاوَلتَهُ عَنكَ مَهرَبٌ وَلَو رَفَعَتهُ فِي السَّمَاءِ المَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لا يَهتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلا ضَوءٌ مِنَ الفَجرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَد أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ النَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيهِ ذِكرَ الصُّبحِ وَأَظُنُّهُ اقتَدَى بِقَولِ الأَصمَعِيِّ فِي بَيتِ النَّابِغَةِ : لَيسَ اللَّيلُ أَولَى

بهذا ٱلمثلِ مِن ٱلنهارِ . وَفي هٰذا ٱلاعتراضِ كَلامٌ يأتي فِي موضِعهِ مِنْ هٰذا ٱلكتابِ إنْ شاءَ ٱللهُ تعالَى . وَأفضلُ مِنْ هٰذا كلِّهِ قولُ ٱلقرآنِ : إنِ ٱستطعتُمْ أنْ تنفُذوا مِنْ أقطارِ ٱلسماواتِ وَٱلأرضِ فَٱنفُذوا . وَوَجدَ ٱلفضلُ بنُ يحيَى علَى أبي ٱلهولِ ٱلحِميَريِّ فدخلَ إليهِ فأنشدَهُ :

كساني وَعيدُ ٱلفضلِ ثوبًا مِنَ ٱلبلَى
وَإيعادُهُ عِندي ٱلذي مَا لهُ ردُّ
فجُدْ بِالرضَى لا أبتغي منكَ غيرَهُ ... ورأيكَ فيما كنتَ عوَّدتَني بعدُ

فقالَ لهُ ٱلفضلُ علَى مذهبِ ٱلكُتَّابِ فِي تحريرِ ٱلخطابِ : لا أحتمِلُ وَٱللهِ قولَكَ (ورأيكَ فيما كنتَ عوَّدتَني بعدُ) فقالَ أبو ٱلهولِ : لا تنظرْ إلى قِصَرِ باعي وقلَّةِ تمييزي وَٱفعلْ بي ما أنتَ أهلُهُ . فأمرَ لهُ بمالٍ جسيمٍ ورضيَ عنهُ وقرَّبهُ

وَفي ٱشتقاقِ ٱلأعذارِ ثلاثةُ أقوالٍ أحدُها أنْ يكونَ مِنَ ٱلمحوِ كأنكَ محوتَ آثارَ ٱلموجِدةِ مِنْ قولِهِم ٱعتذرتِ ٱلمنازلُ إذا درستْ وَأنشدَ قولَ ٱبنِ أحمرَ :

أوْ كنتَ تعرفُ آياتٍ فقدْ جعلتْ
أطلالُ إلفِكَ بِالوَدْكاءِ تعتذِرُ

وَٱلثاني أنْ يكونَ مِنَ ٱلانقطاعِ كأنكَ قطعتَ ٱلرجلَ عمَّا أمسكَ فِي قلبِهِ مِنَ ٱلموجِدةِ ويقولونَ ٱعتذرتِ ٱلمياهُ إذا ٱنقطعتْ :

وَٱلقولُ ٱلثالثُ أنْ يكونَ مِنَ ٱلحجزِ وَٱلمنعِ . قالَ أبو جعفرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اي جَعلتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ ٱلشِّرَادِ فَمَعْنَى ٱعْتَذَرَ ٱلرَّجُلُ ٱحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُقُوبَةِ اوِ ٱلعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ ٱلْامْرُ وَٱحْتَجَزَ ان يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاء

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلْاعْشَى اسْيَرَ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَاعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اصْحَابَهُ ٱلْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱمْرُوءُ ٱلْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ ٱلشِّعْرِ مُظَفَّرًا. قَالَ ٱلْاخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَانَا وَٱللهِ اشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ انَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ ٱلشِّعْرِ مَا لَمْ ارْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا احْسَبُ احَدًا قَالَ اهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ ٱلشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ ٱلْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى ٱلْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ ٱلْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ ٱلرِّيبَةِ. فَمِنَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَحِكْ فِيهِمْ هِجَاء إِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَيْمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْيَمَنِ. فَامَّا مَنْ شُقُوا بِٱلْهِجَاء وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ احْيَاء مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ اعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَاسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمِ ٱلدِّيَاتِ وَٱلنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ أَبْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلسَّبُّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَٱسْتَهَانَتِ ٱلْعَرَبُ بِهِمْ وَأَنْطَعَ ٱلْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُنْذِرِ. وَٱلْحَبِطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ ٱلْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ ٱلْحَبِطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِٱلْجَمَلِ ٱلْحَبِطِ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَأَمَّا ٱلسَّلُولُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ أَبُو زِيَادٍ ٱلْكِلَابِيُّ: كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالِفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ هِيَ ٱلَّتِي شَامَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أَغُدَّةً كَغُدَّةِ ٱلْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ ٱلرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى ٱلْقَتْلَ سُبَّةً … إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَٱلسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَيْنَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَمَبْعَثِ ٱلرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ ٱلْجَاحِظُ لَمْ يُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَأَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا أَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ ٱللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ أَنَا: أَمَّا هٰذِهِ ٱلنِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا ٱللهُ مُضَاعَفَةً

عِندَ ٱلسَّيِّدِ ابي ٱلحَسَنِ وقرنها مِنهُ بالاستحقاق فقرّت مقرّها وتزلت منزلها المختار لها . واحيا ٱللهُ بِهِ لبني شيبان حمدًا لم يشبهُ ذمّ وجودٌ لم يعقبهُ ندمٌ مما زاد على يزيد ولم يدع لمعنٍ معنى في الجود . وقال غيرهُ : كان عمرو ابن العلاء ممدوحًا وفيهِ يقول بشّار بن بُرد :

قُل لِلخليفةِ إن جئتَهُ ... نصيحًا ولا خيرَ في المُتَّهم
إذا أيقظتك حروبُ العِدا ... فنبِّه لها عمرًا ثُمَّ نَم
فتى لا يبيتُ على دِمنةٍ ... ولا يشربُ الماءَ إلّا بِدَم

وقال ابو العتاهية :

إنَّ المطايا تشتكيك لِأَنّها ... قطعت إليك سباسبًا ورمالا

قال ابو عبيدة : لم يمدح احدٌ قطُّ بني كليبٍ غير الحطيئة :

لعمرك ما المجاورُ في كليبٍ ... بِمقصًى في الجوارِ ولا مُضاعِ

وكانت قيسٌ تفتخرُ على تميمٍ لأنَّ شعراء تميمٍ تضربُ المثل بقبائل قيسٍ ورجالها . فأقامت تميمٌ دهرًا لا ترفعُ رؤوسها حتّى قال لبيدُ بن ربيعة :

أبني كليبٍ كيف تنفى جعفرٌ ... وبنو ضُبيعة حاضروا الأجنابِ
قتلوا ابن عروة ثُمَّ لطّوا دونهُ ... حتّى يُحاكمهم إلى جوّابِ
يرعون مُنخرق اللديدِ كأنّهم ... في العزّ أسرةُ حاجبٍ وشهابِ
مُتظاهرٌ حلقُ الحديدِ عليهم ... كبني زُرارة او بني عتّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ   وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ   بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُجَدَّدُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ عَنَّعَ :

تَعَالَى ٱللهُ يَا مُسْلِ بْنَ عَمْرٍو   أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبو ٱلعَتاهِيَةِ ومَرْوانُ بنُ اَبي حَفصَةَ لُعطِيَ مِائَةَ اَلفِ دِينارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وكانَ لا يُقابَلُ اِلَّا بِالكَثيرِ وهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱليُوناتِ وَٱلمَعرُوفِينَ فِي ٱلكَسْبِ وَٱلشِّعرِ. وكانَ اَبو نُوَاسٍ مَحظُوظًا لا يُدرَى لِما وَصَلَ اِلَيهِ لٰكِنَّهُ كانَ مُتلِفًا سَمحًا وكانَ يَتَساجَلُ فِي ٱلاِنفاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بنُ اَحنَفَ. وكانَ ٱلبُحتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعرِ. وكانَ يَرْكَبُ فِي مَوكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ. وَاَمَّا اَبو تَمَّامٍ فَما وُفِيَ حَقَّهُ مع ما صارَ اِلَيهِ مِنَ ٱلاَموالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجابَ ٱلاَرضَ وكَذٰلِكَ اَبو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنشَدَنا اَبو عَبدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بنُ جَعفَرٍ ٱلنَّحوِيُّ عَنْ اَبي عَلِيٍّ ٱلحُسَينِ بنِ اِبرٰهِيمَ ٱلآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبدِ شَمسِ بنِ سَعدِ بنِ تَمِيمٍ:

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلتُ اَسابِقِي ... اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلاَصابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعدِيِّ ضَيفًا بِقَفرَةٍ ... مِنَ ٱلاَرضِ اِلَّا وَهُوَ عُرْيانُ جائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسبِقُ ضَيفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجا نَفسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئبًا لَقِيَهُ لَيلًا فَقالَ: اَتَسبِقُنِي اَنتَ اِلَى ٱلاَكلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصابِعِي اِذا لَمْ اَرمِكَ فَاَقتُلَكَ وَآكُلَ لَحمَكَ. ثُمَّ قالَ عَلَى ٱلمَثَلِ: لَمْ تَلْقَ لِلسَّعدِيِّ يَعنِي نَفسَهُ ضَيفًا فِي

وَفرةٍ يعني الذئبَ الّا هو جائعٌ فهوَ لا يُبقي عليَّ لأني اقتلهُ قبلَ ان يشبعَ من لحمي. ومن اناشيدهم:

اَبوكَ الّذي تُنبَتُ يحبسُ خيلَهُ   غداةَ النّدى حتّى يجفَّ لها البقلُ

قالوا اذا اخذ مطرُ الصيفِ الارضَ انبتت بقلاً في اصولِ بقلٍ قد يبس فذلكَ الاخضرُ هوَ النّشرُ وهوَ الغميرُ فتأكلهُ الابلُ فيأخذها السّهامُ ولا سهامَ في الخيلِ فعابهُ بالجهلِ بالخيلِ. قالَ الاصمعيُّ: هذا القولُ خطأٌ بل مدحهُ بمعرفةِ الخيلِ لأنَّ النّشرَ مؤذٍ لكلِّ ما اكلهُ وان لم يكن ثمَّ سهامٌ. وقالَ سليمانُ بنُ قتّةَ في رثاءِ الحسينِ بنِ عليٍّ وذكرِ آلِ الرّسولِ:

اولئكَ قومٌ لم يشيموا سيوفَهم   ولم تكثرِ القتلى بها حينَ سُلّتِ

قالَ قومٌ اراد لم يغمدوا سيوفهم الّا بعد كثرةِ القتلى بها كما تقولُ لم اضربكَ ولم تجنِ عليَّ الّا بعد ان جنيتَ عليكَ. وقالَ آخرونَ: اراد لم يسلّوا سيوفهم الّا وكثرت بها القتلى كما تقولُ: لم القكَ ولم احسنْ اليكَ اي الّا وقد احسنتُ اليكَ والقولانِ معاً صحيحانِ لأنّهُ من الاضدادِ ويُنشدونَ قولَ الآخرِ:

هجمنا عليهِ وهوَ يكعمُ كلبَهُ   دعِ الكلبَ ينبحْ انّما الكلبُ نابحُ

ويُروى:

دفعتُ اليهِ وهوَ يخنقُ كلبَهُ   الا كلُّ كلبٍ لا اباً لكَ نابحُ

وانشد ابو عبدِ اللهِ:

فجنّبتَ الجيوشَ ابا حبيبٍ   وجادَ على محلّتكَ السّحابُ

وَيُرْوَى اَنَّ اَبَا زَيْنَبَ قَالَ: اِنْ دَعَا لَهُ فَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَاَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخْصِبَ اَرْضُهُ وَاِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ: لَا اَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِاَنْ تَدْرُسَهَا الْاَمْطَارُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: اِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَاَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ اَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ الْآخَرِ:

وَخَيْفَاءَ اَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

اَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ. وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ اللهِ اَيْضًا:

اِنِّي عَلَى كُلِّ اِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ اَدْعُو خُبَيْثًا كَمَا تُدْعَى اَبْنَةُ الْجَبَلِ

وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ اَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَا وَهُوَ اَبْنَةُ الْجَبَلِ وَقِيلَ اَبْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ اَعْلَاهُ. وَزَادَ اَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

اِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ عَارِي الْاَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِ:

كَاَنِّي اِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْاَوَّلِ فِي سُرْعَةِ الْاِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ اِلَى الثِّقَلِ عَنْ اِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ. وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا الْبَابِ:

تفرَّقَتْ غنمي يوماً فقلتُ لها يا ربِّ سلِّطْ عليها الذئبَ والضَّبُعا

قيلَ إنَّهما إذا اجتمعا لا يؤذيانِ وشغلَ كلٌّ منهما الآخرَ وإذا تفرَّقا آذيا وقيلَ: إنَّ معناهُ في الدُّعاء عليها: قتلَ الذئبُ الأحياءَ عبثاً وأكلتِ الضَّبعُ الأمواتَ فلم يبقَ منها بقيَّةٌ. ومن لطيفِ ما وقعَ في هذا البابِ قولُ النابغةِ الذُّبيانيِّ:

يَصُدُّ الشاعرُ الثُّنيانُ عنِّي صُدودَ البكرِ عن قرمِ الهِجانِ

ولم يُرِدْ أنَّهُ يغلبُ الثُّنيانَ ولا يغلبُ الفحلَ لكنْ أرادَ التصغيرَ بالَّذي هاجاهُ فجعلَهُ ثُنياناً. وقالَ آخرُ:

ومَنْ يفخرْ بمثلِ أبي وجدِّي يجيءْ قبلَ السوابقِ وهو ثانِ

أرادَ وهو ثانٍ من عنانِهِ لا يُسبقُ متمهِّلاً. وممَّا يُمدحُ بهِ ويُذمُّ قولُهم بيضةُ البلدِ فمن مدحَ أرادَ أنَّها أصلُ الطائرِ ومن ذمَّ أرادَ أنَّها لا أصلَ لها. قالتْ أختُ عمرِو بنِ عبدِ وُدٍّ في عليٍّ لمَّا قتلَ أخاها:

لو كانَ قاتلُ عمرٍو غيرَ قاتلِهِ لقدْ بكيتُ عليهِ آخرَ الأبدِ

لكنَّ قاتلَهُ من لا يُعابُ بهِ من كانَ يُدعى قديماً بيضةَ البلدِ

فهذا المدحُ كما تراهُ وقالَ الراعي النُّميريُّ يهجو عديَّ بنَ الرِّقاعِ العامليَّ:

لو كنتَ من أحدٍ تُهجى هجوتُكمُ
يا ابنَ الرِّقاعِ ولكنْ لستَ من أحدِ
تأبى قضاعةُ أنْ ترضى بكم نسباً
وابنا نزارٍ فأنتم بيضةُ البلدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَاءً وَمَقْرُورًا يَرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ
وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلْإِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأَيُّدُ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَا كَانَ أَنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ:

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا شَغَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ. وَقِيلَ: أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِٱرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمْ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي ... أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رماكم امير المؤمنين بحية   اكول لحيات البلاد شروب
فان يك باقي سحر فرعون فيكم   فان عصا موسى بكف خطيب

ثم التفت اليه: والله لا يأتي بمثلها خطيب مصقع فكيف رأيت فاعتذر اليه فحلف: ان كنت الا مازحا. وسمعت جماعة من العلماء يقولون: كان مسلم بن الوليد نظير ابي نواس في وقوفه عند قوم من اهل زمانه في اشياء الا ان ابا نواس قهر بالبديهة والارتجال مع تقبض كان في مسلم واظهار توقد وكان صاحب فكرة وروية لا يبتده ولا يرتجل فكان ابو العتاهية فيما يقال اقدر الناس على ارتجال وبديهة لقرب مأخذه وسهولة طريقه

واجتمع عدة من الشعراء فيهم ابو نواس فشرب احدهم ماء ثم قال اجيزوا: برد الماء وطابا. فكلهم تلعثم حتى طلع ابو العتاهية. قال: فيم انتم فانشدوه. فقال وما تردد: حبذا الماء شرابا. فاتى بالقسيم شبيها بصاحبه. وذلك هو الذي اعوز القوم لا وزن الكلام. وصحب رفقة فسمع زقاء الديوك. فقال لرفيقه: هل رأيت الصبح لاحا. قال نعم. قال: وسمعت الديك صاحا. قال نعم. قال:

انما بكى على المر   ء بالدنيا وناحا

فاستيقظ رفيقه للكلام انه شعر فرواه. فما جرى هذا المجرى فهو الارتجال. واما البديهة فبعد ان يفكر الشاعر يسيرا ويكتب

سَرِيعًا إِنْ حَضَرَتْ آلَتُهُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَإِنْ أَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يُعَدَّ بَدِيهًا

وَقَالُوا اجْتَمَعَ الشُّعَرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَأَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: اَلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ الْجَمَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ . وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهَةِ وَالِارْتِجَالِ إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ إِذْ كَانَتِ الْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي الرَّوِيَّةِ وَالْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ السَّعْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا ... تَمِيمًا إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اشْمَعَلَّتِ
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةً ... بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

وهذا شعرٌ لو تروّى فيه صاحبهُ حولًا كاملًا على أمنٍ ودعةٍ وفرطِ شهوةٍ أو شدةِ حميّةٍ لما أتى به فوقَ هذا وكذلك عبدُ يغوثَ بنُ صلاءةَ إذ يقولُ في كلمةٍ لهُ طويلةٍ :

أقولُ وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ أمعشرَ تيمٍ أطلقوا من لسانيا
أيا راكبًا إمَّا عرضتَ فبلغنْ نداماي من نجرانَ أن لا تلاقيا

وكانوا شدُّوا لسانهُ خوفًا من الهجاء فعاهدهم فأطلقوهُ لينوحَ على نفسهِ وعرضَ عليهم في فدائهِ ألفَ ناقةٍ فأبوا إلّا قتلهُ فقالَ :

فإنْ تقتلوني تقتلوني بخيركمْ وإنْ تطلقوني تحربوني بماليا

وهذهِ شهامةٌ عظيمةٌ وشدةٌ . ومن قولِ طرفةَ بنِ العبدِ لمَّا أيقنَ بالموتِ :

أبا منذرٍ كانتْ غرورًا صحيفتي
ولمْ أعطكمْ في الطَّوعِ مالي ولا عرضي
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضنا
حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

وأينَ هؤلاء من عبيدِ بنِ الأبرصِ وهو شيخٌ من شيوخِ الصناعةِ ومقدَّمٌ في السنِّ على الجماعةِ إذ يقولُ لهُ النعمانُ يومَ بؤسهِ : أنشدني . قالَ : حالَ الجريضُ دونَ القريضِ . قالَ : أنشدني قولكَ أقفرَ من أهلهِ ملحوبُ . فقالَ :

أقفرَ من أهلهِ عبيدُ فاليومَ لا يبدي ولا يعيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةِ بَعْضِ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ   جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ
بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقِطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلْإِرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعَرُهُ سَبِطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنْ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حُكْمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ انِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجُّهُ ابْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَالَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ابِي فَنَنٍ:

وَانَّ احَقَّ ٱلنَّاسِ بِاللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَالَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

اَالُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَغْتَدِي لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِٱتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ الَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ انْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ انَّهُ اذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَاذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ الَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَاجِ عَنِ الْفَحْلِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا ‏ رَاوِيَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَاسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلِ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَرِيُّ وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِالْفَرَزْدَقِ

آخذاً عنه كثيراً متعصباً له . ولا يستغني المولّد عن تصفح اشعار المولّدين لما فيها من حلاوة اللفظ وقرب المأخذ واشارات الملح ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل وان كانوا هم فتحوا بابه وفتقوا جلبابه . وللمتعقب زيادات وافتنان . لا على ان تكون عدة الشاعر مطالعة ما ذكرته آخر كلامي هذا دون ما قدمته فانه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المنة وفضل القوة ما يبلغ به طاقة من تبع فيجاريه . واذا اعانته فصاحة المتقدم وحلاوة المتأخر اشتد ساعده وبعد مرامه فلم يقع دون الغرض وسعى ان يكون اوثق سهاماً واحسن موقعاً ممن لو عوّل عليه من المحدثين لقصر عنه ووقع دونه . وليجعل طلبه اولاً للسلامة فاذا صحت له طلب التجويد حينئذٍ وليرغب في الحلاوة والطلاوة رغبته في الجزالة والفخامة . وليجتنب السوقي القريب والوحشي الغريب حتى يكون شعره حالاً بين حالين كما قال بعض الشعراء :

عليك بأوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

واول ما يحتاج اليه الشاعر بعد الجد الذي هو الغاية وفيه وحده الكفاية حسن التأني والسياسة وعلم مقاصد القول فان نسب ذلّ وخضع وان مدح اطرب واسمع وان هجا اقلّ واوجع ولتكن غايته معرفة اغراض المخاطب كائناً من كان ليدخل اليه من بابه ويداخله في ثيابه فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي تفاوت الناس وفيه تفاضلوا . وقد قيل : لكل

مَقَامٍ مَقَالٌ. وَشِعْرُ ٱلشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورِ ذَاتِهِ مِنْ مَدْحٍ وَغَزَلٍ وَمُكَاتَبَةٍ وَمُجُونٍ وَخَمْرِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي قَصَائِدِ ٱلْحَفْلِ ٱلَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ ٱلسَّمَاطَيْنِ. يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ ٱلطَّرِيقِ عَفْوُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحْكَكًا مُعَاوَدًا فِيهِ ٱلنَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَّ فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ. وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقُضَاةِ وَٱلْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ

وَٱلْمُتَأَخِّرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا أَجَادَ كَمَا لَا يَنْفَعُ ٱلْمُتَقَدِّمَ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَّرَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ ٱلسَّبْقِ فَعَلَيْهِ دَرْكُ ٱلتَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ ٱلْإِجَادَةِ وَٱلزِّيَادَةِ. وَلَا يَكُونُ ٱلشَّاعِرُ حَاذِقًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعِيدَ فِيهِ نَظَرَهُ فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثْبِتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونَ بِٱلرَّكِيكِ مُطَّرِحًا لَهُ رَاغِبًا عَنْهُ. فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامَ أَلْفِ رَدِيٍّ. وَقَالَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ ٱخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ:

أَذُودُ ٱلْقَوَافِيَ عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتًّا جِيَادَا
فَأَعْزِلُ مَرْجَانَهَا جَانِبًا وَآخُذُ مِنْ دُرِّهَا ٱلْمُسْتَجَادَا

وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هٰذَا ٱلْفِعْلَ وَيُبْقِي ٱلْجَيِّدَ وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا سَهُلَ وَمِنَ ٱلْمَعْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

يُعرَفُ بديًّا. فقد قال بعضُ المتقدّمين: شرُّ الشعرِ ما سُئِلَ عنهُ.
وكانَ الحطيئةُ يقولُ: خيرُ الشعرِ الحوليُّ المحكَّكُ. اخذَ في ذلكَ
بمذهبِ زُهيرِ بنِ ابي سلمى وأوسٍ وطُفيلٍ. ولا يجوزُ للشاعرِ
كما لا يجوزُ لغيرِهِ ان يكونَ مُعجبًا بنفسِهِ مُثنيًا على شعرِهِ وإنَّ
فضيحةً ظاهرةً كانَ غنيًّا عنها. وكانَ في البحتريِّ إعجابٌ شديدٌ إذا
انشدَ يقولُ: ما لكم لا تعجبونَ ما احسنَ ما تسمعونَ. فانشدَ
المتوكّلُ يومًا قصيدتَهُ:

عن ايِّ ثغرٍ تبتسِمْ وبايِّ طرفٍ تحتكِمْ

وابو العبّاسِ الصيمريُّ حاضرٌ فلمّا رأى إعجابَهُ قامَ حذاءهُ
وقالَ:

مِنْ ايِّ سلحٍ تلتقِمْ وبايِّ كفٍّ تلتطِمْ

فولَّى وهو غضبانُ. فقالَ: وعلمتُ انكَ تنهزِمْ. فضحكَ
المتوكّلُ حتّى فحصَ برجليهِ واعطى الصيمريَّ جائزةً سنيّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لا بُدَّ للشاعرِ وإنْ كانَ فحلًا حاذقًا مُبرِّزًا مقدَّمًا مِنْ فترةٍ
تعرِضُ لهُ في بعضِ الأوقاتِ إمّا لشغلٍ طرأَ او موتِ قريحةٍ او
نبوِّ طبعٍ في تلكَ الساعةِ او ذلكَ الحينِ. وقد كانَ الفرزدقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ: تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ أَضْرَاسِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَإِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ: قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ إِذَا ٱنْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِحَافِرِ ٱلبِئْرِ إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ. وَأَفْحَمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى أُفْعِلَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ فَحَمَ ٱلصَّبِيُّ إِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ. فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ. وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِأَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْإِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ. وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ: «فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ» كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ. وَيُقَالُ أَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى ٱلرَّامِي إِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِ فِي ٱلشِّعْرِ وَذِكْرِ أَشْجَعَ ٱلسُّلَمِيِّ فَقَالَ: إِنَّهُ يُخْلِي. فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَأَنِفْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا. فَلَمَّا ٱنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْأَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ إِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى لكل امرئ بحسب تدبير طبعه واطراد عادته. وسيأتي ذلك في اقاويل العلماء بما ارجو ان يكون فيه هداية ان شاء الله تعالى

قال بكر بن النطاح الحنفي: الشعر مثل عين الماء ان تركتها نضبت وان استهتنها هتنت. وليس مراد بكر ان تستهتن بالعمل وحده لانا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا وتنزف مادته وتنفد معانيه فاذا جم طبعه اياما وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة واتهم بكل قافية شاردة وفتح له من المعاني والالفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وانبهم دونه. لكن بالمذاكرة مرة فانها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفتنة وبمطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الحسد وتولد الشهوة. وسئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر. فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه. قيل له: وعنه سألتك ما هو. قال: الخلو بذكر الاحباب ولعمري انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب على ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال ونادب اظعان وهو الذي اخرجه من طبقة الفحول. وقيل لكثير كيف تصنع الشعر اذا عسر عليك. قال: اطوف في الرياض المشعبة فيسهل علي صعبه ويسرع الي

آحسنه . وقال الأصمعي : ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخالي . وقيل الخالي يعني الروض

وحدثنا بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكندية وهو أشرفها أرضا وهواء . قال : جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح هنالك قد كشف الدنيا . فقلت : أبا محمد . قال : نعم . فقلت : ما تصنع هاهنا . قال : ألقح خاطري وأجلو ناظري قلت : فهل نتج لك شيء . قال : ما تقر به عيني وعينك ان شاء الله تعالى وأنشد شعرا يدخل مسام القلوب رقة . قلت : هذا اختيار منك اخترعته . قال : بل برأي الأصمعي

وقالوا كان جرير اذا اراد ان يؤبد قصيدة صنعها ليلا يشعل سراجا ويعتزل اهله وربما علا السطح وحده وغطى رأسه رغبة في الخلوة في نفسه . فحكي انه صنع ذلك في قصيدته التي اخزى بها بني نمير

وروي ان الفرزدق كان اذا عصت عليه صنعة الشعر ركب ناقة وطاف وحده منفردا في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخالية فيعطيه الكلام قياده . حكي ذلك في قصيدته الفائية : عرفت بأعشاش وما كدت تعرف

وذكر ان فتى من الأنصار فاخر بأبيات حسان بن ثابت :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَٱنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ اَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : اَخَاكُمْ اَخَاكُمْ يَا بَنِي لِبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ اَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ اَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا اَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهٰذِهِ ٱلْاَسْبَابِ تَخْتَلِفُ اَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ اَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَاَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ اَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا اَحْفَظُهُ وَلَا اَشُكُّ اَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَاِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْاَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي اَسْبَابِ ٱللَّهْوِ اَوِ ٱلْمَعِيشَةِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَاِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَاَنَّمَا نَشَاَتْ نَشَاَةً اُخْرَى وَلِاَنَّ ٱلسَّحَرَ اَلْطَفُ هَوَاءً وَاَرَقُّ نَسِيمًا وَاَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَٱلَّةٍ مَرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ. قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ نَدًى
فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدُّ مِنْهَا وَقَعْتُ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: أَنَا أَبُو حَزْرَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ أَبْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ الْأَعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذَٰلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ أَنْ لَا يَصْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ ذَٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَتَّةَ بَلْ أَصْنَعُ الْقَسِيمَ الْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْقَوَافِي بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ الْقَسِيمَ الثَّانِي أَفْعَلُ ذَٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرَ ذَٰلِكَ يُخِلُّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيحِ الْمُفْرِطِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بَيْتٌ وَاثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَٰلِكَ بِأَبْيَاتٍ وَذَٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَانْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ الشِّعْرِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذَٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذَٰلِكَ الْمَوْضِعَ إِلَّا أَنَّحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ أَبْيَاتِهِ وَذَٰلِكَ عِيٌّ فِي الصَّنْعَةِ شَدِيدٌ وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيِّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ الشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ الْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذَٰلِكَ الْوَزْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَأَطْرَحَ مَا سِوَى ذَٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا التَّخَيُّرَ فِي حِينِ الْعَمَلِ . هٰذَا الَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ الْقَوْمِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ الْبَيْتُ عَفْوًا أَثْبَتَهُ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذَٰلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَأَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذَٰلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدَلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ وَأَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ الْحَمَّامِ . وَقِيلَ : إِنَّ الطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالشَّرَابَ الطَّيِّبَ وَسَمَاعَ الْغِنَاءِ يُرَوِّقُ الطَّبْعَ وَيُصَفِّي الْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَعَاطَوْا ذَٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبُرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ . يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ . وَقِيلَ : مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْغِنَاءُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا : ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْجَمَامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلْأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تُكِدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْجَمَامِ وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلِٱسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حِسًّا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ اجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ وَمَهْمَا اخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ انْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَإِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَإِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ الْفَاظَكَ . وَمَنْ ارَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا انْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اجْلِهِ اسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ انْ يَلْتَمِسَ إِظْهَارَهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي إِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَإِنَّ اوَّلَ ٱلثَّلَاثِ انْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . إِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اوْ لِلْعَامَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَّضِعُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَإِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَإِنْ امْكَنَكَ انْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَٱقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى انْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تخفى عن الاكفاء فانت البليغ التام فان كانت المنزلة الاولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عند اول نظرك في اول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تسنح الى قرارها والى حقها من اماكنها المقسومة لها والقافية لم تحل من مركزها في نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب مكانها والنزول في غير اوطانها فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بتركك ذلك احد . فان انت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا بما عليك ولك عابك من انت اقل منه عيبا ورأى من هو دونك انه فوقك . فان انت ابتليت بان تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فربما لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كان هناك طبيعة او جريت في الصنعة على عرق فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير طول اهمال فالمنزلة الثالثة ان تتحول عن هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك واخفها عليك

الا ان النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها عند الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبة . وقال بعض اهل

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ أَنْ يُخَلِّيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْأَنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْأَمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَأَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى أَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَأَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَإِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعُ غِنًى قَوَّى أَنْبِعَاثَهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً. وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَأَخَذَ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرِهِ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَإِذَا أَوْسَعَ أَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ٱخْتَلَفَ أَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا. فَٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ. وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ ايضًا . وَٱلوُصُولُ اوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلمَقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ
اوَائِلُ ٱلأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ انْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ
اَوْ شَبِيهٍ بِهِ اَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَاشَارَ بِهٰذِهِ
ٱلعِبَارَةِ اِلَى ٱلمَقَاطِعِ اَوْ آخِرِ اجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ
ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ امِّ
مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَاِ م طَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ اَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللاَّمُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ امَاكِنَ مِنْهُ
وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللاَّمِ .
ٱللّٰهُمَّ اِلاَّ انْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱليَاءُ ٱلمُلْتَزَمَةُ فَحِينَئِذٍ عَلَى اَنَّا لَا نَعْلَمُ
حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ اِلاَّ مُتَاخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا
فِي انْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ اَنَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ اوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ
وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِاَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ
اِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِاَنَّ ٱلقَصِيدَةَ
اِنَّمَا لَهَا اوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا اوَائِلُ وَاوَاخِرُ اِلاَّ
عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلأَبْيَاتِ اوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ: ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ. وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلْاِسْتِعَانَةُ فَقَالَ: أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي . وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَزَّ وَأَصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ كُلَّ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاءَاتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلْقُطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ   وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجَمُومَيْنِ سَاهِرَا   وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا   إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ
عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلْكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ مُحِيلُ   عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلْعُقَارُ   وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ   وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلْعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلْفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبن عليٍّ ٱلخزاعيّ وردَ حمص فقصدَ دارَ عبدِ ٱلسلام بنِ رغبانَ ديكِ ٱلجنّ فكتمَ نفسهُ عنهُ خوفًا من قوارصهِ فقال: ما لهُ يستترُ وهو أشعرُ ٱلجنّ وٱلإنسِ أليسَ ٱلقائل:

بها غيرُ معـدولٍ فدا وخمارها   وهل بعشيّاتِ ٱلغبوقِ ٱبتكارها

فظهرَ إليهِ وٱعتذرَ إليهِ وأحسنَ. ثمَّ تناشدا فأنشدَ ديكُ ٱلجنّ ٱبتداء قصيدةٍ:

كأنّها ما كأنّهُ خللُ ٱلخلّةِ   وقفُ ٱلهلوكِ إن بغما

فقالَ لهُ دعبلٌ: أسكتْ فواللهِ ما ظننتُك تتمُّ ٱلبيتَ إلّا وقد غشيَ عليكَ أو تشكّيتَ دماغكَ وكأنَّكَ في جهنّمَ تخاطبُ ٱلزبانيةَ أو تخبّطكَ ٱلشيطانُ من ٱلمسّ. وإنّما أرادَ ٱلديكُ أن يهوّلَ عليهِ ويقرعَ سمعهُ عسى أن يزعجهُ أو يروعهُ فسمعَ منهُ ما كرهَ. ولعمري ما ظلمهُ دعبلٌ ولقد أبعدَ مسافةَ ٱلكلامِ وخالفَ ٱلعادةَ وهذا بيتٌ قبيحٌ من جهاتٍ منها إضمارُ ما لم يُذكرْ قبلُ ولا جرتِ ٱلعادةُ بمثلهِ فيعذرَ ولا كثرَ ٱستعمالهُ فيشهرَ مع إحالةِ ٱلتشبيهِ على تشبيهٍ ثقلَ تجانسهُ ٱلذي هو حشوٌ فارغٌ لو طرحَ من ٱلبيتِ كانَ أحزمَ وٱستدعى قافيةً لا لشيءٍ إلّا لفسادِ ٱلمعنى وٱستحالةِ ٱلتشبيهِ ما ٱلذي يريدُ ببغامهِ في تشبيهِ ٱلوقفِ وهو ٱلسوارُ ولمَ كانَ وقفُ ٱلهلوكِ خاصّةً. ومثلهُ قولُ محمّدِ بنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزيّاتِ يصفُ ناقتهُ في أوّلِ قصيدةٍ مدحَ بها ٱلحسنَ بنَ سهلٍ:

كأنّهـا حينَ تناءى خطوُها   أجشُّ موشيُّ ٱلشوى يرعى ٱلقللْ

فالبيت الاول في مخالفة العادة لازم ومع ذلك قوله « حين تناءى خطوها » فقصر بها وهو يقدر ان يقول « حين تدانى خطوها » وخالف جميع الشعراء بذلك لانهم يصفون الناقة بالظليم والحمار والثور بعد الكلال غلوًّا ومبالغة في الوصف . هذا هو الجيد فان لم يفعلوا لم يذكروا انها بذلت جهدها واستفرغت جميع ما عندها بل يدعون التأويل محتمل الزيادة . ثم قال « ترعى القلل » والثور لا يرعى قلل الجبال وانما ذلك الوعل لانه لا يسهل والثور في السهول ومواضع الرمال الا ان يريد بالنبات اعاليه فربما ان يكون القلل نبتا بعينه او مكانا فقد يمكن وما سمعت بهما

ومن الشعراء من يقطع المصراع الثاني من الاول اذا ابتدأ شعرًا واكثر ما يقع ذلك في النسيب كانه يدل بذلك على وله وشدة حال كقول ابي الطيب :

جللًا كما بي فليك التبريح   اغذاء ذا الرشا الاغن الشيح

فهذا اعتذار من اعتذر له لو وقع مثل هذا في الرثاء والتفجع لكان موضعه ايضا وكذلك عند العظائم من الامور والنوازل الشديدة . وليحترس مما يناله فيه زيادة او يقع عليه مطعن فان ابا تمام امتدح ابا دلف بحضرة من كان يكرهه وافتتح قصيدته المشهورة « على مثلها من اربع وملاعب » وكانت فيه حبسة شديدة . فقال الرجل لعنة الله والملائكة والناس اجمعون .

فدهش أبو تمام حتى تبين ذلك عليه على أنه غير مأخوذ بما قيل ولا هو مما يدخل عليه عيبا . ولا يلزمه على الحقيقة الا ان الحوطة والتحفظ من الحجة الباردة افضل والتفريط ارذل واخبث .

ودخل جرير على عبد الملك بن مروان وانشده « أتصحو ام فؤادك غير صاحي » فقال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن الفاعلة كأنه يستثقل هذه المواجهة والا فقد علم ان الشاعر انما خاطب نفسه ومن هذه الجهة بعينها عابوا على ابي الطيب قوله لكافور اول لقائه مبتدئا وان كان انما يخاطب نفسه لا كافورا :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

فالعيب من باب التأدب وحسن السياسة لازم لابي الطيب في هذا الابتداء لا سيما وهذا النوع اعني جودة الابتداء من اجل محاسن ابي الطيب واشرف مآثر شعره اذا ذكر الشعر .

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئا من شعره فانشده « ما بال عينك منها الماء ينسكب » وكان بعين عبد الملك ريشة فهي تدمع فتوهم انه خاطبه او عرض به فقال : وما سؤالك يا جاهل عن هذا ومقته وامر باخراجه وكذلك فعل ابنه هشام بابي النجم وقد انشده في ارجوزة :

صفراء قد كادت ولما تفعل فكأنها في الأفق عين الأحول

وكان هشام احول فامر فحجب عنه مدة وقد كان قبل

ذلكَ مِنْ خاصَّتِهِ يَسمُرُ عِندَهُ وهُوَ يمازِحُهُ وَانَّما يأتي الشَّاعِرُ بهذِهِ الأشياءِ امَّا مِنْ غفلةٍ في الطَّبعِ او مِنِ استغراقٍ في الصَّنعةِ وشُغلِ هاجسٍ بالعملِ يذهبُ معَ حُسنِ القولِ حيثُ ذهبَ. والفطِنُ الحاذِقُ يختارُ للأوقاتِ ما يُشاكِلُها وينظرُ في احوالِ المخاطَبينَ فيقصِدُ محابَّهم ويميلُ الى شهواتِهم وانْ خالفتْ شهواتِهِ ويتفقَّدُ ما يكرهُونَ سماعَهُ فيجتنِبُ ذِكرَهُ. الا ترى انَّ بعضَ الملوكِ قالَ لِاحدِ الشُّعراءِ وقد اوردَ بيتًا ذكرَ فيهِ «لو خُلِّدَ احدٌ لكرمٍ لكُنتَ مخلَّدًا بكرمِكَ» وقالَ كلامًا نحوَ هذا . فقالَ الملكُ : انَّ الموتَ حقٌّ ولنا منهُ نصيبٌ. غيرَ انَّ الملوكَ تكرهُ ما يُنكِدُ عيشَها ويُنغِصُ لذَّتَها فلا تأتِها بشيءٍ ممَّا تكرهُ ذِكرَهُ

ومنَ المشهورِ انَّ النُّعمانَ بنَ المنذرِ اتى شجرةً ظليلةً ملتفَّةَ الأغصانِ في مرجٍ حسنٍ كثيرِ الشَّقائقِ وكانَ معجبًا بها واليهِ أُضيفتْ فقيلَ شقائقُ النُّعمانِ . فنزلَ فأمرَ بالطَّعامِ والشَّرابِ فأُحضِرا وجلسَ للذَّتِهِ . فقالَ عديُّ بنُ زيدٍ العباديُّ وكانَ كاتبَهُ: اتعرفُ ابيتَ اللَّعنَ ما تقولُ هذهِ الشَّجرةُ . قالَ : وما تقولُ . قالَ تقولُ :

رُبَّ رَكبٍ قد اناخوا حولَنا   يشربونَ الخمرَ بالماءِ الزُّلالْ
عطفَ الدَّهرُ عليهم فثووا   وكذاكَ الدَّهرُ حالٌ بعدَ حالْ
مَنْ رآنا فليوطِّنْ نفسَهُ   انَّما الدُّنيا على قرطِ الزَّوالْ

كأنَّهُ قصدَ موعظتَهُ فنغَّصَ عليهِ ما كانَ فيهِ وامرَ بالطَّعامِ

وَالشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَارْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ الْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ اَكْثَرَ النَّاسُ مِنَ الدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ الْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا: عِشْ اَبَدًا وَاسْلَمْ مَدَى الدَّهْرِ وَابْقَ بَقَاءَ الزَّمَانِ . وَاعْتَرَضَ النُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَاخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

يَا اَمِينَ اللّٰهِ عِشْ اَبَدًا   دُمْ عَلَى الْاَيَّامِ وَالزَّمَنِ
اَنْتَ تَبْقَى وَالْفَنَاءُ لَنَا   فَاِذَا اَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَاِذَا خَرَجَ الْكَلَامُ عَنْ حَدِّ الْاِمْكَانِ فَاِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ الْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِاَبِي نُوَاسٍ الَّذِي اَسَاءَ فِيهِ اَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ اَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا اسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَانْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ الْحِينِ اَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اَوَّلُهَا :

اَرَبْعَ الْبِلَى اِنَّ الْخُشُوعَ لَبَادِ   عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اَخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا اَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا اِذَا مَا فُقِدْتُمُ   بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ الْبَرْمَكِيُّ وَاشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا اَنْفُسَنَا يَا اَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اَوْقَعَ بِهِمِ الرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ الطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ التَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِاَنَّ هٰذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا اَشُكُّ اَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِالنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى ٱللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلِٱشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْاِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَاُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اَشْبَهَ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ . وَاَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْاَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ اَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا اَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجَ اِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا اَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَاَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِاَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

الريح ولا تمحوها الا ان يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن ان يعيشه احد من اهل هذا الجيل واحسن ما استعمله المولدون المحدثون ما ناسب قول ابن الرومي:

سقى الله قصرًا بالرصافة شاقني   بأعلاه قصريُّ الديار رصافي
أشار بقضبان من الدر قمعت   يواقيت حمرًا فاستباح عفافي

وكانت دوابهم الابل لكثرتها وعدم غيرها وصبرها على التعب وقلة الماء والعلف فلهذا ايضًا خصوها بالذكر دون غيرها ولم يكن احدهم يرضى بالكذب فيصف ما ليس عنده كما يفعل المحدثون الا ترى امرأ القيس لما كان ملكًا كيف ذكر خيل البريد والفرانق على انه لم يستغن عن ذكر الابل للعادة التي جرت على السنتهم فقال يصف رحلة الى قيصر:

اذا قلت روحنا ارن فرانق
على هزج واهي الاباجل ابترا
على كل مقصوص الذنابى معاود
بريد السرى بالليل من خيل بربرا
اذا زعته من جانبيه كليهما
مشى الهيدبى في دفه ثم فرفرا

كانت الخيل البربرية تهلب اذنابها كالبغال لتدخل مداخلها في خدمة البريد وليعلم انها للملك. وقال ابن ميادة في ابن هبيرة لما كان اميرًا:

جاءتْ بِهِ مُعتجِرًا بِبُردِهِ   سَفْوَاءُ تَرْدِي بِنَسيجِ وَحدِهِ
تَقدَحُ قَيسٌ كُلُّهَا بِزَندِهِ

إلَّا أنَّ مِنهُم مَن خَالَفَ هذَا كُلَّهُ فوَصَفَ أنَّهُ قَصَدَ المَمدُوحَ رَاجِلًا إما إخبارًا بِالصِّدقِ وإمَّا تَعاطِيَ صَعلَكَةٍ . قَالَ أبو نُوَاسٍ لِلفَضلِ بنِ يَحيَى :

إلَيكَ أبَا العَبَّاسِ مِن بَينِ مَن مَشَى
عَلَيهَا امتَطَينَا الحَضرَمِيَّ المُلَسَّنَا
قَلَائِصُ لَم تَعرِفْ خَبِيثًا عَلَى طَلًا
وَلَم تَدرِ مَا قَرعُ الفَنِيقِ وَلَا الهَنَا

فَذَكَرَ أنَّ قَلَائِصَهُمُ الَّتِي امتَطَوا إلَيهِ مَشدُودَةٌ بِالنِّعالِ وأخرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخرَجَ اللُّغزِ وأتبَعَهُ أبو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحمِلُ الرَّدِيفَ وَلَا   بِالسَّوطِ يَومَ الرِّهَانِ أُجهِدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشفَرُهَا   زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً أُخرَى فِي مِثلِ ذلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهمَهٍ جُبتُهُ عَلَى قَدَمِي   تَعجِزُ عَنهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ

وَلَو شَاءَ قَائِلٌ أن يَقُولَ فَإنَّ أبَا نُوَاسٍ لَم يُرِدْ مَا ذَهَبَ إلَيهِ أبو الطَّيِّبِ لكِنْ أرَادَ أنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحتَذِيًا نَعلَيهِ لَكَانَ أظهَرَ وَجهًا مَا لَم يَكُنِ الحَضرَمِيُّ مِنَ الجُلُودِ مَخصُوصًا بِهِ المُسَافِرُ دُونَ الحَاضِرِ . وَظَاهِرُ الكَلَامِ أنَّ مَقصَدَ الشَّاعِرَينِ وَاحِدٌ . وَقَد ذَكَرَ أبو الطَّيِّبِ الخَيلَ فِي كَثِيرٍ مِن شِعرِهِ

وكانَ يُؤثرها على الابلِ لِما يقومُ في نفسهِ من التهيب بذكرِ الخيلِ وتعاطي الشجاعةِ . فقالَ يذكرُ قدومهُ الى مصرَ على خوفٍ من سيفِ الدولةِ:

وَيومٍ كليلِ العاشقينَ كمنتهُ
اراقبُ فيهِ الشمسَ ايانَ تغربُ
وَعيني الى اذني اغرَّ كأنهُ
من الليلِ باقٍ بينَ عينيهِ كوكبُ

وليسَ من عادةِ بلدِنا خاصةً شيءٌ من هذا كلهِ الا ما يعدُ قلةً فالواجبُ اجتنابهُ الا ما كانَ منهُ حقيقةً لاسيما اذا كانَ المادحُ من سكانِ بلدِ الممدوحِ يراهُ في اكثرِ اوقاتهِ فما اقبحَ ذكرَ الناقةِ والفلاةِ

ومنَ الشعراءِ من يهجمُ على ما يريدهُ مكافحةً وذلكَ عندهم هوَ الوثبُ والبترُ والقطعُ والكسعُ والاقتضابُ كلُّ ذلكَ يقالُ والقصيدةُ اذا كانت على تلكَ الحالِ بتراء كالخطبةِ البتراءِ والقطعاءِ وهيَ التي لا يُبتدأُ فيها بحمدِ اللهِ على عادتهم في الخطبِ كما قالَ ابو الطيبِ « اذا كانَ مدحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ » فانكروا النسيبَ وزعموا انَّ اولَ من فتحَ هذا البابَ وفتقَ هذا المعنى ابو نواسٍ بقولهِ « لا تبكِ ليلى ولا تطربْ الى هندِ » وقولهِ عندَ الحاتميّ فيما روى بعضُ اشياخهِ افضلُ ابتداءِ صنعةِ شاعرٍ من القدماءِ والمحدثينَ:

اعِزْ شِعْرَكَ ٱلاَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا
فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصْفَ ٱلاَطْلَالِ وَٱلْقَفْرِ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلاِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ ابُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلاِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلاِبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلاِبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَلَ بِجُودَةِ ٱلاِسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلاِبْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَلَهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا اَبْتِدَاءً جَيِّدًا بِاَبْتِدَاءٍ لَاَرْبَى وَقَصَرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيْهِ جوزًا بيّنًا لا يُقبَلُ مِنهُ ولَا يُسلَّمُ إليهِ • وكانَ ابو تمّام فخم الْابتداء لهُ روعةٌ وعليهِ ابهةٌ كقولِهِ :

اَلحقُّ ابلجُ والسُّيوفُ عوارِ ... فحَذارِ من اسدِ العرينِ حَذارِ

وقولِهِ ايضًا :

اَلسّيفُ اصدقُ انباءً من الكتُبِ

في حدّهِ الحدُّ بينَ الجِدّ واللّعبِ

وقولِهِ « يا ربعُ لو ربعوا على ابنِ هُمومِ » والغالبُ تحتُ اللفظِ وجهارةُ الابتداءِ

وكانَ ابو القاسمِ الحسنُ بنُ بشرٍ الآمديُّ يُفضّلُ ابتداآتِ البُحتريِّ جدًّا وهو الذي وضعَ كتابَ الموازنةِ والترجيحِ بينَ الطائيَّينِ ونوّه فيهِ بالبحتريِّ اعظمَ تنويهٍ ومن جيّدِ ابتداآتهِ قولُهُ :

عارَضْنا اُصُلًا فقلْنا الرَّبرَبُ ... حتّى اضاءَ الاُقحوانُ الاشنبُ

وقولُهُ « ضمانٌ على عينيكَ انّي لا اسلو » وقولُهُ « ترى عندهُم علمًا بشجوي وادمُعي » فامّا الخروجُ فهو عندهم شبيهٌ بالاستطرادِ وليسَ بهِ لانّ الخروجَ انّما هو ان تخرجَ من نسيبٍ الى مدحٍ او غيرهِ بلطفِ تحيُّلٍ ثمّ تتمادى فيما خرجتَ اليهِ كقولِ ابي عبادةَ البحتريِّ :

سُقيتْ رُباكِ بكلِّ غيثٍ جاعلٍ ... من وبلِهِ حقًّا لها معلومًا

ولو انّني اُعطيتُ فيهنَّ المُنى ... لسقيتُهنَّ بكفِّ ابرهيما

وَاكْثَرُ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِهٰذَا الفَنِّ ابُو الطَّيِّبِ فَانَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَانْظُرِي اوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَأَلَا
عَلَّ الْامِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
الَى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِي الهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى انْ يَكُونَ الْامِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ:

سَاشْكُو الَى الفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ   هَوَانَا لَعَلَّ الفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ لِانَّ ابَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ المَاءِ وَالسَّحَابَةِ فَقَالَ:

امِيرٌ رَايْتُ المَالَ فِي نَقَمَاتِهِ   ذَلِيلًا مَهِينَ النَّفْسِ بِالضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَانَّهُ اشَارَ الَى انَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِالمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اوْ يَتَسَرَّاهَا. وَابُو الطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَالشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي القِيَادَةِ فَقَالَ:

ايْقَنْتُ انَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي   لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى انَّهُ يَشْفَعُ فَانْ اجِيبَ الَى مُسَاعَدَةِ ابِي الطَّيِّبِ فَذَاكَ وَالَّا رَجَعَ الَى القَهْرِ وَالَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ ابِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

احِبُّ الَّذِي فِي البَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاشْكُو الَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فَلَفظَةُ ٱلشَّكوَى تُحمَلُ عَنهُ كَمَا حُمِلَت عَن ابِي نُوَاسٍ

وَاولَى ٱلشِّعرِ بَانْ يُسَمَّى تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَن مَعنًى اِلَى مَعنًى ثُمَّ عَادَ اِلَى ٱلاَوَّلِ وَاخَذَ فِي غَيرِهِ ثُمَّ رَجَعَ اِلَى مَا كَانَ فِيهِ كَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبيَانِيِّ آخِرَ نَسِيبِ قَصِيدَةٍ اعتَذَرَ بِهَا اِلَى ٱلنُّعمَانِ :

فَكَفكَفتُ مِنِّي عَبرَةً فَرَدَدتُهَا
عَلَى ٱلنَّحرِ مِنهَا مُستَهِلٌّ وَدَامِعُ
عَلَى حِينَ عَاتَبتُ ٱلمَشِيبَ عَلَى ٱلصِّبَى
وَقُلتُ اَلَمَّا اَصحُ وَٱلشَّيبُ وَازِعُ

ثُمَّ تَخَلَّصَ اِلَى ٱلاِعتِذَارِ فَقَالَ :

وَلٰكِنَّ هَمًّا دُونَ ذٰلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ ٱلشَّغَافِ تَبتَغِيهِ ٱلاَصَابِعُ
وَعِيدُ ابِي قَابُوسَ فِي غَيرِ كُنهِهِ اَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَٱلضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِندَ مَا سَمِعَ مِنهُ ذٰلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَاَنِّي سَاوَرَتنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ ٱلرُّقشِ فِي اَنيَابِهَا ٱلسَّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ مِن لَيلِ ٱلتَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَليِ ٱلنِّسَاءِ فِي يَدَيهِ قَعَاقِعُ

فَوَصَفَ ٱلحَيَّةَ وَٱلسَّلِيمَ ٱلَّذِي شَبَّهَ نَفسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ مِنَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

اَتَانِي اَبَيتَ ٱللَّعنَ اَنَّكَ لُمتَنِي وَتِلكَ ٱلَّتِي تَستَكُّ مِنهَا ٱلمَسَامِعُ

ثُمَّ اَطرَدَ لَهُ ٱلقَولُ مَا شَاءَ مِن تَخَلُّصٍ اِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى ٱنقَضَتِ ٱلقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اَشَرتُ اِلَيهِ غَيرُ خَافٍ اِن شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَقَد

يَقعُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسَطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسَطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ
مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ :

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوعُ ٱلْإِلْمَامَ . وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ : دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا . وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ :

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة الى فلان قصدت وحتى نزلت بفناء فلان وما شاكل ذلك . واما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الاسماع وسبيله ان يكون محكماً لا يمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده احسن منه. واذا كان اول الشعر مفتاحاً له وجب ان يكون آخره قفلاً عليه . وقد اربى ابو الطيب على كل شاعر في جودة هذه الابواب الثلاثة الا انه ربما عقد اوائل الاشعار ثقة بنفسه واغراباً على الناس كقوله اول قصيدة :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه ... بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه

فان هذا يحتاج الاصمعي الى ان يفسر معناه. ويقع له في الخروج ما كان تركه اولى به واشعر له وانما ادخله فيه حب الاغراب في باب التوليد حتى جاء بالغث البارد والتشنيع المتكلف نحو قوله :

احبك او يقولوا جر نمل ... ثبيراً وابن ابرهيم ريعا

فهذا من البشاعة ومن الشناعة بحيث لا يخفى على احد. وما اظنه سرق هذا المعنى الشريف الا من كذبة كان اوردها ابو العنبس الصيمري على لسان رجل فزعم انه قال : رأيت رجلا نام فجره النمل ثلاثة فراسخ . وقد جعل ابو الطيب مكان الرجل جبلا وان علمنا الاغراب في مراده ولفظه . وقال ايضا :

اعز مكان في الدنا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

وبحرُ ابو المسكِ الخضمُ الذي لهُ على كلِّ بحرٍ زخرةٌ وعُبابُ

يُريدُ وخيرُ بحرٍ ابو المسكِ وهذهِ غايةُ التصنّعِ والتكلّفِ. ومِن العربِ مَن يختِمُ القصيدةَ فيقطعُها والنفسُ بها متعلّقةٌ وفيها راغبةٌ ولها مُشتهيةٌ ويبقى الكلامُ منثورًا كأنّهُ لم يتعمّدْ جعلهُ خاتمةً كلُّ ذلكَ رغبةً في اخذِ العفوِ الا ترى معلّقةَ امرئِ القيسِ كيفَ ختمَها بقولِهِ يصفُ السيلَ عن شدّةِ المطرِ :

كأنَّ السباعَ فيهِ غرقى غُديّةً بأرجائهِ القصوى عنابيشُ عُنصُلِ

فلم يفعلْ لها قاعدةً كما فعلَ غيرُهُ مِن اصحابِ المعلّقاتِ وهي افضلُهنَّ. وقد كرِهَ الحذّاقُ مِن الشعراءِ ختمَ القصيدةِ بالدعاءِ لأنّهُ مِن عملِ الضعفِ الّا للملوكِ فانّهم يشتهونَ ذلكَ كما قدّمتُ ما لم يكنْ مِن جنسِ قولِ ابي الطيّبِ يذكرُ الخيلَ لسيفِ الدولةِ في آخرِ قصيدةٍ لهُ :

فلا هجمتَ بها الّا على ظفرٍ ولا وصلتَ بها الّا على املِ

فانَّ هذا يُشبِهُ ما ذُكرَ عن بغيضٍ كانَ يُصابحُ الأميرَ فيقولُ « لا صبّحَ اللهُ الأميرَ بعافيةٍ » ويسكتُ سكتةً ثمّ يقولُ « الّا ومسّاهُ بأكثرَ منها » ويُماسيهِ فيقولُ « لا مسّى اللهُ الأميرَ بنعمةٍ » ثمّ يقولُ « الّا وصبّحهُ بأكثرَ منها » ونحوُ هذا فلا يدعو لهُ حتّى يدعوَ عليهِ ومثلُ هذا قبيحٌ لاسيّما مِن مثلِ ابي الطيّبِ

فهرس

المقالات